# صراع الفدائيين

## الفدائيون الليبيون فى حرب فلسطين ١٩٤٨

دار الفرجاني
القاهرة ـ طرابلس ـ لن

الطبعة الأولى

كانون الاول (ديسمبر) ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م .

محمد حسن عريبي

# صراع الفدائيين

## الفدائيون الليبيون في حرب فلسطين ١٩٤٨

الناشر
الفرجاني
ص.ب ١٣٢
طرابلس - ليبيا
١٩٦٨

بسم اللہ الرحمن الرحیم

# مقدمة

هذه قصة كفاح شباب شُغف بالصراع من طول ما مارس آباؤه قتال الأعداء وصراع الدخلاء . استمعوا إلى قصص البطولة وهم أطفال ، فتشرّبتها نفوسهم حتى عشقوا البطولة منذ نعومة أظفارهم ، وتعلقت أحلامهم بالنضال وبالبطولة والأبطال .. إلى أن حانت لهم الفرصة في قطعة أثيرة من وطنهم الغالي ، وقعت فريسة لمطامع الصهاينة ، ووسيلة لجشع المستعمرين ، فهبّ أبناء ليبيا من كل فجّ : من المدينة ، ومن القرية ، ومن المنتجع . ودفعت الغيرة الأب وأبناءه فذهبوا جميعاً ليقاتلوا ، والأخ وأخاه ، فالتقوا في فلسطين متفانين .. ولم يكن السبيل اليها سهلاً ميسوراً ، فقد كان في أول أمره عسيراً محفوفاً بالعقبات والسجون ، والتشريد والمهالك .

وتحمل المناضلون مشقات الطريق عسيرة من كل لون حتى وصلوا أخيراً إلى معسكرات التدريب في مرسى مطروح وفي القاهرة ، ومنهم مـــن اشترك في ميدان القتال فعلاً ، ومنهم من حيل بينه وبين الميدان وهم الأكثرون ..

والذين وصلوا إلى ميدان القتال كانوا أكثر عـــدداً من جيش بعض الدول العربية وفي مثل عدد بعضها ، أو يزيدون .. ولو لم يحل محافظ مرسى مطروح ،

بطيشه ، بين الليبيين وبين الميدان ، لأصبح عددهم في مثل عدد أكبر جيش في الميدان .

●

وهـــا أنا بسبيل أن أقص عليك لوناً من كفاحهم ، وأصحبك معي بعض الوقت لترى معارك كتيبة منهم وتلمس مُلابَسات معاركهم كما رأيتها ولمستها . وأحاول أن أكون صادقاً معك متجنباً للغُلوّ العاطفي ، وملتزماً للاعتدال والحق ومُواجهة مواطن الضعف في بناء تاريخنا العربي بشيء مـن الصراحة ، ومـــع محاولة هذا الالتزام رأيتني لم أوفق تمام التوفيق ، فلم أزل أبطّن لهجة الحديث بالعاطفة ، إذ أُدْغِم وجهة نظري بالحقيقة . ولعلني معذور لما كان ينتابنا أثناء الحرب من حقد متأجج على المستعمرين ، ومن ثورة جامحة على ما كنـــا نسميه بلاهة السياسيين المحترفين . مما ترك في نفوسنا عُقداً لم نُشف منها بعد ...

●

قد دونت أحداث هذه القصة في حينها ، ونقلتها مما دونت بعـــد تهذيبه وحذف أسباب الإثارة .

وقد أكون أخطأت أو قصرت في بعض ما وصفت أو حكمت ، وعـذري أنني بذلت قصاراي .

●

سأحكي لك قصتي كما عشتها ، وهي قصة آلاف الفدائيين الليبيـين وهبوا أرواحهم لله وللوطن ، فمنهم مـــن تقبله ربه ووسّده تراب الأرض المقدسة ،

وألحقه بالرفيق الأعلى مع الشهداء والنبيين . ولعل منهم من حققت له الأماني ، فنعم بصحبة سيدنا رسول الله في جنة الخلد ، تلك الصحبة التي كانت تحن اليها روحه ويهوى اليها فؤاده .

ومنهم من لم يحظَ بهذا المقام العليّ ، فعاد آسفاً ليروي لك هـــذه القصص وأضرابها . وهو لا يزال يأمل أن يوسّد ذلك التراب المقدس ...

●

أحببت أن أروي قصتنا لأبنائي ليحفظوا عهد آبائهم ويوطنوا النفس على تحرير وطنهم مهما طالت الأجيال ...

محمد عريبي

*

# ألغام وعظام

# ١

أصغ إليه ... ألا تسمعه ..؟لو انك سكنت سكون هذه الصحراء ، في هذا الليل الحالك ، ومطّيت عنقك نحو الشرق قليلاً وأصغيت جيداً لسمعت لأقدامه هسيساً . ولداخلتك منه وحشة وخشية .! وتتساءل ما هذا ؟ انني أسمع خَفَقاً على أسفلت الجادة .. ! خَفَق نعال؟ ولكن أي نعال تجرؤ على ارتياد هذه الصحراء القاحلة التي لا أثر للحياة فيها ، وفي هذا الظلام الحالك الذي تمد فيه يدك فلا تكاد تراها ، وفي هذا الوقت المتأخر من الليل .. ؟ !

ولكنك تسمعه الآن جيداً .. إنه خفق نعال ورب الكعبة ... مستحيل أن يكون إنساناً ..

لا .. لا ، لا بد أن يكون ذئباً أو حيواناً شرساً يجوب الصحراء ... وأعجب بالجادة المعبدة وموسيقى وقع أقدامه عليها .

ولكن أي حيوان يجوب صحراء انعدمت فيها أسباب الحياة على مدى سير أيام وأيام . ؟ ولا تكاد تحس فيها إلا بظلال من أشلاء جنود المحور والحلفاء الذين خلفوا وراءهم هذه البقايا من العربات المبعثرة في هذه الصحراء ؟

ويمضي هزيع من الليل لا تسمع في سكون هذه الصحراء النائمة إلا هذا الخفق الرتيب لنعل يتجه نحو الشرق .

لا .. لا ، هذا ليس خفق نعل بل إن صاحبه حافٍ ونعله في مخلاة على ظهره مع قميص له وسراويل ، وفي المخلاة رطلان من تمر وقربة صغيرة من الماء ، وما

حاجته بالماء في هذا الشتاء وفي شهر ديسمبر .؟ ولكن ... إذن هـو إنسان .. نعم إنه إنسان يسرع الخطى منذ أيام وليال على هذه الحال الرَّثَّة، تحفُّه المكاره.. هارب .. إنه هو محدثك .. وكاتب هذه القصة إليك ... تتقاذفه الصحراء من وادٍ خاوٍ .. إلى بطحاء قاحلة.. وترمي به الهضاب إلى الوهاد الخالية على امتداد الأفق وعلى مدى البصر ، ومدى البصر لا يكاد يجتاز موقع القدم في هذا الليل الدامس ، وقد توارت نجومه وراء سحب دكناء ألقت بردائها الفضفـــاض على أطراف الأفق تخفيه . وهذه الرياح الباردة تشتد شيئاً فشيئاً تحمل رَوْح المطر ونسيمه . قل لصاحبنا يسرع الخطى ويبحث عن ظُلَّة تحميه . إن هذه الموجـــة الباردة تحمل أثراً من وابل شديـــد قادم من الغرب سيغسله غسلاً إن لم يتدارك عربة من عربات موسيليني مضطجعة على جنبها هنالك على قارعـــة الطريق لم تَبْرَح منذ سبع سنوات ويَحْتَمِ بها ..

ويسرع صاحبنا ويجلس في صندوق عربة موسوليني مدثراً ( بجرده )، يصيخ الأذن لوقع الوابل المنهمر ، وتشتد الرياح ، وتشتد الأمطار ، ثم تنتهي فجأة كما بدأت ..

ويحمل صاحبنا مخلاته يُصَوِّب خطـاه إلى الشرق ، والرياح تعبث بدثاره ، ورجله الحافية تَتَحَسَّس الطريق غير شاعرة بالبلل والبرد . ولم يبق من الليل إلا خمساه وقد آن له أن يأكل وينام ، ولن ينام في العراء إلا إذا لم يصادفه مأوى : بقية عربةٍ أو دبابة أو .. وعليه أن يمشي ويمشي ، والطريق يتعرج بـه أحياناً نحو البحر وأحياناً يُوغِل في الصحراء .

## ٢

ها هو هدير الأمواج يترامى إلى السمع من بعيد ، يحمل الى النفس رهبـــة القرون الخوالي تمتزج بالمشاعر النامية في نفسه منذ أسابيع ، من رهبة الصحراء ،

وامتداد أفق لا ينتهي ، ومَهْمَهٍ لا يتبدل ولا يُحَدّ .

والبحر يدنو رويداً رويداً ، ولهدير أمواجه صَخَب يمتد صداه في الصحراء بعيداً قوياً رهيباً ، مؤنساً ومُخيفاً .

وتمتد الطريق من البحر غير بعيد، حيث العربة المتدحرجة في منحدر هـذا الوادي الذي يُفْضي إلى البحر .

ويتحسس صاحبنا التراب تحت العربة بيده ليعلم ما إذا كان جافاً أو بللتـه الأمطار ، وهو لا محالة نائم عليه وعلى أي حال كان ...

وألقى بمخلاته يتحسس التمر ، ثم أكل حتى شبع .. وارتوى بالماء .. واتخذ دثاره غطاء ومخلاته وساداً وأسلم رأسه للنوم مستأنساً بصخب البحر الثائر . ولكن أنّى للنوم أن يراود عيناً أرهقها السُّرى والصحراء ، وجسماً أمضّه العناء ورجلاً ورِمت من الحصى والماء ، وطولِ المسير والحفاء ! ...

أسلم الرأس للأرض ولم ينم ، بل انهالت عليه أشباح جنود المحور والحلفاء في الحرب العالمية الثانية بين كَرٍّ وفرٍّ في هذه الصحراء، بين القنابل والأشلاء . ومن يدري عن هذه العربة التي ينام تحتها كيف تدحرجت في هذا الوادي بما فيهـا ومن عليها؟ وكيف دَوَّتْ صيحة الموت الأخيرة من ركابها في أرجاء هذا الوادي الموحش ؟ لا بد أن دماءهم أَثْوَتْ هذا التراب وسالت حيث أنام .

وتراءَتْ لي أشباح مصارع أبناء المستعمرات الذين قدّمهم المستعمرون قُرباناً للشيطان . وما ظننت شبراً من هذه الصحراء لم يشهد أنيناً أو آلاماً أو جراحاً أو أشلاءَ .. لا لشيء الا لأن المستعمرين كانت لهم أطماع في أوطان الضعفاء .

واختلطتْ في خاطري الذكريات والأشباح والصُّوَر وأنا خَدِرٌ من وَسَنٍ ، أجمع ركبتي الى صدري ورأسي الى كتفي تحسُّساً للدفء . ثم هبت ريح باردة تحمل على جناحها أَقْرَطل من مطر قادم. وما هي إلا لحظات حتى اختلط هدير

البحر المصطخب بالبرق والرعد ،ووقع المطر الغزير على صفيح السيارة التي أنام تحتها ، وخشيت أن يجرفني السيل فأخرجت يدي من دفء الغطاء ، أتلمّس ما حولي خشية ان يكون الماء يتسرّب من تحتي .

وخُيِّل إلي أن يدي لمست عظماً مدفوناً في التراب؛وخيل إلي أنه لن يكون في هذه الصحراء الا عظماً من أشلاء انسان .. وحاولت أن أُبعد هذا الخاطر عن نفسي . وأنا أتلمس سيل الماء .. وإذا بيدي تلمس شيئاً جامداً هذه المرة . ونبشت حوله بأصبعي ، فإذا هو قنبلة يدوية من أمثال القنابل الثلاث التي أحملها في مخلاتي .

وخشيت أن أكون نائماً على قنابل خَظِرَة ، فجلست ولم أغادر مكاني تحت العربة ، لأن المطر لا يزال على أشده . وظللت انتظر ساعة حتى انقطع المطر ، ونبشت عن القنابل اليدوية فحملت منها ما قدرت عليه . ثم خرجت ابحث عن منام آخر . ولا تزال الرياح شديدة والبرد متجمداً . ولم أذهب بعيداً ، فقد كانت هنالك عربة أخرى متدحرجة في الوادي ذاته ، وتلمست تحتها فإذا ترابها يابس ولم يصل السيل الى ما تحتها . وكانت الأمطار قد عادت تهطل في وابل شديد . وتدحرجت تحت العربة الإيطالية وتمددت لأنام ، وكأنني أويت إلى فراش وثير .

شكرت موسوليني الذي ترك لي هذه الظلة تقيني من هذا الوابل . ولست أدري كيف انتقلت من خاطر إلى خاطر . ولعل اختلاط هدير البحر وضجيج المطر ذكرني بتاجوراء وبفراشي الوثير على سدة بيتنا هنالك على الشاطىء ، حيث يمتزج هدير هذا البحر بضجيج غابات النخيل السامقة فوق البيوت ، ويحمل الى النفس في فراشها رهبة وروعة ، فتلتحف بأغطية الصوف الثقيلة وتستسلم للكرى على أنغام موسيقى الطبيعة الصاخبة . .

ولست أدري بعد ذلك ما الذي حدث حتى مددت رجلي ، فإذا هي تمتد في

غدير ماء بارد ، فسحبتها مسرعاً وفتحت عيني لأرى ما هنالك ، فإذا الشمس تكاد تبرز للأفق ، والسحب قد انقشعت ، والرياح سكنت ، والبحر وادع جميل ..

وقلت أحدث نفسي : نمت نوماً طويلا ، هيا بنا نستأنف المسير . وتوضأت من ماء الغدير ثم صليت . وما أروع الصلاة حين تكون بين البحر والصحراء وحيداً مع الله ، وليس بينك وبينه مشاغل قلب ولا أكلاف حياة . ولما قضيت صلاتي تناولت مخلاتي ابتغي الطريق.

ولما حملتها بدت من تحتها قطعة ثوب خلق مما يرتديه الجنود مدفونة في التراب الا قطعة منها كانت بارزة حيث وسدت رأسي البارحة .

ولست أدري لماذا سحبتها ...

ولما سحبت منها جزءاً بدت تحمل في طياتها عظاماً بشرية راقدة حيث كنت أرقد .. نَسِيَتْها الحرب العالمية ها هنا . لم تكن مفاجأة لي فقد تعودت الآلام .. وكنت أتساءل : هل تراه عربياً ؟ أو انجليزياً ؟ أو إيطالياً ؟ ذلك الذي اختار له الله هذه البقعة .. على أي حال ، ومهما كانت جنسيته فقد صحبته في قبره ليلة كانت بالنسبة لي طيبة . ولما مضيت في الطريق حانت مني نظرة للخلف أودع فيها منامي ورفيقي : وداعاً يا رفيقي .

وداعاً يا عربة موسليني .. ومضيت ، حتى اقبلت الشمس بدفئها اللذيذ تفصح عن الطريق المستقيم على امتداد البصر ، كأنه خيط أسود ملقى في برية فسيحة ساكنة لا تسمع فيها لاغية ، إلا وقع قدمي الحافية وانفاسي اللاهثة ، أمضي ساهماً مطرقاً ، مليء النفس بأحاديث أحلامها وأوهامها وآلامها ..

## ٣

هل تحب ان تسمع طرفاً من أحاديثها فها هي تقول : سبحان الله ما أوسع

أرض الله ...! متى نصل مرسى مطروح ؟ لا تزال الشقة بعيدة ... بعيدة ... هنالك في مرسى مطروح سوف تنتهي المشاق ... سوف اركب القطـــار ولا خوف من الشرطة هنالك فهم لا يتعرضون لأحد ... هكذا سمعت النـــاس يقولون ، عندما كنت في مدينة درنه منذ اكثر من عشرين يوماً مضت – وبعد ما أصل مرسى مطروح في يوم واحد أجد نفسي في القـــاهرة ... وهنالك سأتطوع للقتال ... لمحاربة اليهود في فلسطين ..

– ولكن هب ان الجامعة العربية لن تفتح باب التطوع ..؟

– هل تظن ذلك ..؟ وإذا فرضنا ان هذا حصل ، فالأمر يسير .. سأقطع قناة السويس سباحة ، وصحراء سينا أيسر من هذه ، واكثر عمراناً وانساً . سأقطعها ماشياً . وتمر العريش ألذ من تمرسيوة ، وماؤها أعذب من ماء طبرق والسلوم ...لا عليك فالأمر هين،ومن ذا الذي يحول بيني وبين دخول فلسطين؟ سأحطم كل العقبات وأقاتل الى جانب الابطال العظام أمثال فوزي القاوقجي..

. . . . .

ثم إن استشهدت فذلك شرف لي عظيم ، وان عشت فسأعود الى القاهرة لأقم دراستي في احدى جامعاتها ...

أعوذ بالله ، لا بد أن هذه وساوس الشياطين التي أسمعهـا في نفسي تقول : دعك من هذا يا رجل ، واترك الحرب والسلاح لأهله ، وهلم الى القاهرة أتمـــم دراستك... أعوذ بالله ماذا أسمع وهل هذا يصح ؟ لا يجوز هذا ابداً ، قد كتب الله علينا ، أبناء هذا الجيل ، أن نضحي بأنفسنا وأن نطرح الحياة وآمالها ... وقد دقت الساعة لنحمل رسالتنا ... والشوط أمامنا طويل .

وسوف أقاتل وأتتلمذ لمشائـــخ الفدائية ، وأتدرب على أساليب الحرب . وفنونها .. وتلك رسالة نؤديها وخبرة نكسبها لقتـــال اعدائنا في ليبيا ، أولئك الذين يتآمرون علينـــا الآن في المحافل الدولية ، لإعـــادة الطليان

الى طرابلس واستحواذ الإنجليز على برقة ، والفرنسيين على فزان ... سنحاربهم جميعاً بلا هوادة ، بلا تهاون .. هذه رسالة جيلنا يا صاحبي ، في هذه الفترة من التاريخ . ثم نتجه بعدُ لحرب أعدائنا أينما كانوا . دعك من الأوهـام ... إني ذاهب الى هنالك ! الى فلسطين ...

هيا أسرع ... أسرع السير .

هذه بعض أحاديث النفس بآمالها وهي تقطع الفيافي والقفار لتحمل رسالتها..

وهي الآمال التي تضيء جوانب آلاف وآلاف من نفوس الشباب في ليبيا .. وفي بلاد العرب حتماً .

## ٤

دعنا الآن نسير ، ثم نسير ... لقد مر الصبح وفات الضحى وحان الظهر وتوسطت الشمس كبد السماء ، ثم مالت مغرّبة وأنت تراني أحث السير . إني متعب ولكن بي فضل من قوة ، وجائع ولكني أؤجل الغـذاء من مرحلة إلى مرحلة ، وبعد مراحل سألقي بمخلاتي في جانب و (جردي ) في جانب واستلقي على ظهري هنيهة في منتصف الجادة . نعم في منتصف الجادة المعبدة .. لا عليك فإن سيارة لن تمر من هنا أياماً طويلة. وبعد حين أجلس، وأمد رجلي وأسحب المخلاة قريباً مني وأخرج صرة التمر أبسطها على اسفلت الطريق ، وآكل من ألذ ما طعمت في حياتي ، وأين لذة هذه التميرات الجافة من الموائد ذات الألوان التي كانت تعدها أمي لوحيدها، العائد في نهاية الاسبوع من المدرسة في طرابلس؟ أمي التي لا تعلم أين أنا الآن . لقد فررت من المدرسة ، وطويت الأرض مسرعاً قبل ان يعلم أبي وأمي بفرار ابنهم الوحيد ، ولكأني بأمـــي تبكي وبوالدي مكدود محزون ...

لا تخشيا يا أبوي فقد دعتني دواعي المجد والنضال ، وسوف تسمعـــان عن ابنكما صدى ما غرستما في نفسه . وها هو يأكل تمـــراً لذيذاً من جوع ويلقي بالنوى على إسفلت الطريق هاهنا و هاهنا ، ويختم غذاءه بالماء الروي الذي جعل الله منه كل شيء حي ..

ثم يتمطى ويستلقي على ظهره من عناء ، ثم يعتدل جالساً ويخلع قميصه يفليه يفلي ويجتر الذكريات .. أم الرزم .. التميمي .. طبرق .. السلوم .. جبال ومهاوي .. وديان ومغاور .. طريق .. بحر .. صحراء .. بقيـــة عظام .. قنابل .. ألغام .. آمال وأحلام ..

ثم يرتدي قميصه وجرده ويلقي بمخلاته على ظهره ويسير .. ثم يسير .. حتى يصادفه في هذا الأصيل غدير صاف رقراق قد خلفه المطر فوق هذه الصخور .. عن الجادة غير بعيد ؛ وتلمست قربة مائي فاذا الماء دون نصفها .. ملأتها وأحكمت رباطها . وربما أغراني الماء البلوري ، فألقيت بثيابي على الطريق وخطوت الى الغدير غير بعيد أغتسل في مائه النقي الطاهر في هذا الفضاء الفسيح ، ثم أجفف الجلد بطرف من الجرد وارتدي الثياب واستصحب الطريق ، والاحلام تصور لي أنه لم يبق بيني وبين القاهرة سوى فراسخ معدودة رغم الألف كيل الذي يفصل بيني وبينها .

وتغيب الشمس من جديد ، وتطلـــع النجوم بين نثار سحب ديسمبر ... ويخيل إلي أني أرى أمامي هنالك في الأفق حواشي أضواء المدينة ، أضواء القاهرة ، فأسرع السير .. ثم أمضى الليلة في أخدود نحتته عوامل الطبيعة في هذه الرابية .

## ٥

وذات يوم قبل أن تبزغ الشمس كنت قد ودعت مبيتي إلى اسفلت الجادة ،

وعند الضحى بدت لى في الأفق معالم من بشر وأثر من حياة ، فقلت في نفسي لعلى قربت من بلدة سيدي البراني حيث يقوم الشرطة على الطريق بتفتيش الغادي والرائح .

ويلي إن وقعت في أيديهم من السجن ، ثم اعادتي وتسليمي إلى سجن الحكم البريطاني في ليبيا .. ألست هارباً من إرادتهم ..؟

والشرطة المصرية تشتد في الحراسة هـذه الايّام لمنـع النازحين عن مصر والقادمين إليها إلا بجواز سفر .

وبعد لقاح وحصانة من الكوليرا التي فشت بين الناس وفتكت هذه السنة بعشرات الآلاف من الأرواح .

والحصول على إذن الخروج أو الدخول صعب المنال ، واين أنا من كل هذا ، وعند كل نقطة حراسة ؟ عليّ ان أترك الجادة وأوغل في الصحراء ، حتى أغيب عن أنظار الراصدين والمراقبين ، والانظار في هذا الخلاء ترمي إلى مسيرة ربع يوم . وإذا ابتغيت الابتعاد عن النظر ، عليك ان تبحّر أو تقبّل مسيرة ثلث النهار ، وتسير في اتجاه الطريق ثلثه الآخر ، ثم تعود الى الجادة في آخـــره أو بعده .

وقد تبين لي الآن أنني حقاً قربت من ( البراني ) حين بدت في الأفق قطعة بنية صغيرة بيضاء ، هي المبنى المهم في تلك القرية : مبنى الحكومـة . وعلي الآن ان أتنكب الطريق وأسلك الصحراء الجنوبية على غير هدى ، وأسلم مصيري الى هذه المتاهة بين الألغام المبثوثة من أثر الحرب العالمية الثانية ، او أتيـه الى الأبد في برية لا حدود لها . ولكن ، لِمَ انا متعجل ، فلا يزال امامي مسير ثلاث أو اربع ساعات على هذا البناء الذي يلوح في الفضاء قريباً وتتضح معالمه للناظر رويداً رويداً كلما دنا منه . وامتد بي الطريق ساعتين او نحوهما حتى بدت لي معالم اخرى من القرية . وعليّ الآن ان اتجنب الجادة واختفي عن أعين الشرطة ، ولكني أصابر نفسي حتى أصل الى حرث أهل القرية واختفي فيه ، لأنه مسلك آمن من الألغام .

ولم أكد اتخذ الأرض المحروثة مسلكاً حتى بدت لي من بعيد طفلة راكبة على حمار يتبعها والدها . واتجهت نحوهما لاتخذ من رفقتهما تعمية عن الشرطة وأجعل كأني من اهل هذا الحي .

وحدثني والدها الشيخ وحدثته ، وهو متجه الى زريبة احد التجار جنوب البراني . نعمت الرفقة إذن ...

فلن أخشى ألغام ارض أجهلها الآن ...

ولن اتوجس خيفة من كل خطوة مثل ما حدث لي في تلك الليلة الرهيبة منذ بضعة ليال مضت ، ليلة لن أنساها .. كانت مليئة بالمهالك محفوفة بالمخاطر ، تلك الليلة التي اقتربت فيها من الحدود المصرية الليبية ، وكان لا بد لي من قطع منطقة شاسعة بعد منتصف الليل ، خوفاً من الوقوع في أيدي حراس الحدود الليبية أو المصرية .

وتلك منطقة مليئة بألغام مبثوثة تحت التراب لا يكاد يسلم من يقطعها على غير هدى في ظلمات الليل . وكم من هيكل عظمي بشري وحيواني توسد هذا التراب هاهنا وهاهنا .

وقد كانت بها مسارب يتبعها السالكون او يتبعون الطريق المعبد . ولكن كليهما كان محروساً بشرطة من راكبي المهارى محفوفاً بالسجون .

وقد تركت الجادة ويممت وجهي شطر البحر لأجعل الجادة المعبدة عن يميني والبحر عن شمالي ، حتى لا أضل طريقي بينهما ، في صحراء لا معالم فيها إلا الشمس والنجوم .

ووضعت حياتي بين رجلي ، والموت مرهون بأي رجل منهما تطأ لغماً أعده المتحاربون لنسف دبابة فكيف هو بنسف إنسان ؟

تلك كانت ليلة في حياتي لا تنسى . وكذلك الليلة التي تلتها حين كنت نائماً في بلدة السلوم تحت زريبة على شاطىء البحر بعيداً عن الأعين ؛ ويبدو أن الشرطة أحسوا بوجود غريب هنالك ، وهم في هذه البلدة جادون في مطاردة الغرباء .

وفزعت من مرقدي الدافىء إلى رمال البحر ، وكادوا يلحقون بي لولا أن اختطفت مخلاتي وتسللت بين الاكشاك القريبة تواريني . ومن بينها انطلقت لا ألوي على شيء ، هائماً في الصحراء ، متجهاً الى الجنوب ، لئلا تعترضني نقـــاط الحراسة الواقعة شرقي السلوم .

بعد ليلة طويلة من السير الحثيث لم أعد اعـــلم اين انا ..؟ ولا في أي ارض اسير ..؟ ولا أي سبيل اسلك لكي أعود الى الجادة ..

ولما اشرقت الشمس بعد تلك الليلة كانت على غير عهدها ، إذ بزغت يومها من الشمال او ذلك ما يخيل إلي ، واستولت عليّ حيرة من امرها طوال ذلك اليوم ولم اقتنع بأنها لا تزال على عهدها تطلع من الشرق .

ومضت ثلاثة ايام بلياليها كدت اهلك فيها لولا ان هداني الله في الليـــلة الرابعة . إذ قادني الى شاطىء البحر حيث الجادة المعبدة ..

وها انا الآن وبعد ايام من تلك المسيرة العشواء اتحقق من هذا الشيخ بأنني في طريق صواب وان هذه هي بلدة البراني حقاً ..

ومضينا نتحدث والبنية تسير امامنا على حمارها حتى وصلنا زريبة التاجر .

* * *

# ود وَطراد

# ١

زريبة التاجر مقامة من صفيح الحديد وسط مروج القمح من بقايا السيارات. وهنالك بضعة اشخاص يتحدثون أمام الزريبة ، وشخص أو اكثر يشترون الأرز والتمر والسكر والشاي . واشتريت بدوري أقتين من التمر وجلست تحت جدار الزريبة تجاه أشعة الشمس الدافئة آكل من تمري واقول لمن يمر بي: تفضل .

وعاد رفيقي الشيخ وبنيته من حيث أتيا ، وبقيت أنا انتظر لعلي اجـــد مشرّقاً اتخذه رفيقاً اعمي به الراصدين .

وأخيراً وجدت الرفيق وسألني إلى اين انت ذاهب ؟ ومن اين جئت ؟ و.. وهو رجل وسيم حلو الشمائل حسن الحديث دعاني الى ركوب حمـاره فأبيت . وسرنا حتى دنت الشمس من الأفق وابتعدنا عن البراني ، عندئذ ودعته واتجهت نحو الشمال أبتغي الجادة ولكنه استوقفني قائلاً :

— إلى اين يا محمد ؟

قلت : اريد ان أتبع الجادة .

— لا يا بني ، أنت من ضيوفي هذه الليلة ، وحيّنا من هنا غير بعيد .

— سامحني يا عمي حسين ، أنا متعجّل كما تعلم .

— لا عليك ، فإن الدنيا باقية لن تهرب، تعال تعال؛ الليلة تنام معنا وتأكل من طعامنا وغداً يرحم الله ، طاوعني يا بني ..

●

وطاوعته مكرهاً؛ وكانت الشمس تتطلع إلينا من وراء الراوبي حين هاجمتنا كلاب الحي على بعد ، وذبّها عني عمي حسين فعادت تمشي معنا وهي تتحرش بي

حتى وصلنا بيوت شعر متناثرة ما بين كل بيت وجاره ربع كيل أو اكثر بقليل. وقابلنا على مشارف البيت ولدان لعمي يرحبان بوالدهما وما يحمل ، ومن ورائهما شابة هيفـــاء في طرف البيت أقبلت ثم ترددت لما وجدت مع أبيهـــا رجلاً آخر .

فقال والدها : هو ضيفنا محمد عريبي من طرابلس ، فسلمت عليَّ . وجاءت الأم ايضاً فسلمت على ضيفها ، وألقت على الرمـل فراشاً من منسوج شعر الماعز أمام البيت جلسنا عليه . وجلست الأم ناحية زوجها تسأل عن طرابلس ؟ واين هي ؟ وكيف جئت ؟ ولماذا ؟ ومن خلفها جلست الفتاة واسمها سكينة محتشمة تختلس النظرات وتسمع للهجة الطرابلسي وهو يمطط في الكلمات وينغمها على غير ما ألفوا من لهجة القول في هذه البادية . ولم أجرؤ على النظر الى سكينة . ولكني كنت اختلس النظرة العجلى ثم ألقي بناظري على الأرض حياء ، واقول لنفسي : ويحي ، ما هذا ؟ أيخلق الله مثل هذا الجمال ؟ ما رأيت مثله في بنات المدن ولا فيما تعج به طرابلس من بنات روما وبنات البريطان والأميركان . إنني لم أر مثلها من قبل ، أو هذا ما يخيل إلي .

لها جبين زاهر وضاء يتلألأ بالنور وينم عن براءة وذكاء ، وعينها واسعـــة سوداء ذابلة وادعة تشف عن روح حالمة .. متفتحة ، معطرة بطهر السماء . إذا سددت النظر إلى أجدي فؤادي ينخلع من ذبولها وبراءتها الملائكية واحس بقواي تنهار بدداً وخواطري تتوزع أشتاتاً .

أيخلق الله مثل هذا الجمال في هذه البادية ؟ وهي مثل أبيها وأمها حـــلوة الشمائل حلوة الحديث ، تستقبلك بابتسامة بريئة وقلب ودود .

وينهض والدها ليذبح شاة ويسلخها ، وتنهض سكينة لإعداد العشـاء أرزاً ولحماً وسمناً ، ويفرد للرجال جناح من البيت تفصله عن النساء قطعة من رداء .

●

ثم يأتي دور الشاي ويقبل رجال الحي على بيت عمي حسين ليسامروا الضيف الطرابلسي ويسمعوا حديثه. ويقول لي بعضهم :

– إذن انت طالب ..

– نعم .

– ليتك تبقى معنا في حينا تعلم لنا أطفالنا القراءة والكتابة والحساب وتحفظهم شيئاً من كتاب الله ، هل تحفظ منه شيئاً ؟

– أحفظه كله عن غيب .

– ما شاء الله .. تبارك الله . !

–ولماذا لم تقل لنا حتى نعطيك حقك من التكريم ؟؟

– . . .

– حبذا يا فقيه لو اقمت معنا . ان فقيه حي بني ... تعلم منه اطفال الحي كلهم .

وانتقل الحديث الى حي بني ...وزرعهم وماشيتهم ومن تزوج منهم ،ومن مات .. وحديث البادية ذو شجون . وخاطري ما ينفك عن سكينة ذات القوام الممشوق والجبين الأزهر والبشرة النقية كأنها اوراق الورد .

ويتحدثون ثم يعودون لتعليم ابنائهم وقد ساق الله اليهم من يقوم بالمهمة . واخيراً يوكلون الى عمي حسين اقناع الفقيه الطرابلسي بالبقاء معهم . وتحدث شيخ منهم يدعونه جبريل قال :

–يا سيد حسين ،هذا ضيفك نريده أن يبقى معنا ويعلم أولادنا القرآن ونحن نعامله كابن من ابنائنا ونعطيه ما يرضيه. انظر يا فقيه،نعطيك خمس شياه في السنه وخمسة قناطير قمح ومثلها من الشعير وكسوة الشتاء وكسوة الصيف ونحرث لك مع حرثنا ولك في كل عام اربعة جنيهات ونفرد لك بيتاً بيننا ما اقمت فينا : وما احب الينا ان تقيم فينا طول الحياة تعلمنا ديننا وتعلم اولادنا كتاب الله ..

وعلق عمي حسين :

– ما رأيك يا فقيه محمد ؟

ما هي الا خمس سنوات حتى يصبح لك مثل ما لنا من الغنم ويزيدك الله خيراً ، والأمر والخيرة حيث يختار الله .

ولم يدع لي الشيخ جبريل فرصة للكلام فاستطرد :

– خير لك ان تقيم معنا ، ومتى ما جدت الحرب فسنخوضها جميعاً ، ومن الخير للانسان ان يستشهد ويترك له خلفاً من ابنائه .

اقم معنا وأتمم نصف دينك ونحن جميعاً مثلك للحرب وقود ..

وكان كل الحديث دبر اذني الا فقرة الزواج ، رف لهـــا قلبي واضاءت في نفسي بريق السرور والأمل ، لأني اراه في هذه الليلة مقروناً بتلك التي ملأت الفؤاد بروعة جمالها . وخلقها وشخصيتها الوادعة .

والنفس مترددة بين الفوز بهذا الجمال وبين المضي فيما جئت من اجله .

وبت ليلتي امني النفس بسكينة ، وصورتها العطرة لا تكاد تبرح خيالي .

## ٢

واستيقظت مبكراً .

وجلست حتى استيقظ اهل البيت ، عندئذ نهضت الى مخلاتي وشكرت لعمي حسين حسن ضيافته وهممت بوداعه ، ولكنه امسك بالمخلاة قائلا :

– حتى تفطر ، ولم لا تبقى عندنا هذا اليوم وتكتب رسائـــل الى سعيد يبعثها لقريب له في العامرية ، والنسوة يغسلن لك ملابسك ، وغداً تسافر ؟

يا سكينة ، سكينة ، انهضي . هاتي لنا ما عندك نفطر ...

وبعد حين جاءت سكينة تحمل الفطور ثم الشاي وبعدها نهض رب البيت لشئونه .

وجاءت سكينة تطلب ملابسي لتغسلها فأشرت عليها بأنها في تلك المخلاة

فأخذتها وانصرفت ...

ولعلني تابعتهـــا بنظرات مترعة بالأحلام .. وجـاء السيد سعيد يسأل ، لأكتب له رسالة يبعثها إلى أحد بني أعمامه في العامريـــة . وانتقلت معه إلى بيته . وكتبت له رسالة ولزوجته رُقْيَة تعلقها على صدر وليدهـــا الرضيـع ، لتحميه من داء الحصباء . وظللت في بيته أكتب الرقى إلى الجارات اللاتي أقبلن يلتمسن رقية من العين ، أو رسالة لابن غائب ، أو حصناً من الجن . وحضرت سكينة أيضاً فيمن حضر ، حتى حان الغذاء . فقالت سكينة : إن أباها ينتظرني على الغذاء . ولكن العم سعيداً أبى أن أغادر بيته قبل أن أطعم ماءه وملحه . فعادت سكينة وكأني بها مغضبة أو ذلك ما يخيل إلي .

●

وفي الأصيل عدنا معاً ، عدت أنا وسكينة الى بيتهم . قطعنا مسافة ولم ننبس ببنت شفة وخيل الي انها تحمل في نفسها شوقاً مثل مـا احمل ، كنت أتمنى أن أجد شيئاً أقوله ، ولكني لم أجرؤ .

وقضينا الامسية مع الاسرة امام البيت .

وألح علي عمي حسين ان ابقى لأن بعض الجيران يصرون على ضيافتي ولامفر من تلبية رغائبهم وكانت سكينة جالسة معنا . وفي الصباح .. قال ابوهـا قبل ان يخرج : الا يرضيك ان تبقى معنا يا فقيه محمد ؟

فقلت له : والله ما ندري ما نفعل يا عمي حسين ! ...

وبعد خروجه قالت سكينة :

– لماذا لا تبقى معنا ؟

قلت :

– انما جئت لأحارب .

– كثيرون غيرك يحاربون ، واذا جدت الحرب حقاً فلا احد يمنعك .

كانت تخرج هذه الكلمات بمجهود شاق ، وكأنهـا دلاء ماء مثلوج تراق على جلدها في يوم شات .

ولما نظرت اليها وجدتها تنظر الي فألقيت بنظري الى الارض وارتبكت ولم اقل شيئاً ، ويبدو انها ارتبكت ايضاً لأنها خرجت بلا مبرر .

وشعرت يومها بأن كنوز الحياة كلها وبهجتها كانت عند اطراف اصابعي .

وفي اليوم الثالث طلبت مني ان احدثها عن اهلي وبلادي ..

وصفت لها بلادي ، اننا نعيش تحت غابات النخيل ، نبني بيوتنا من الطين ونسقفها بجذوع النخل ، ونروي زراعتنا بماء الآبار ، انك ترين الارض في الصيف خضراء كالجنة .

وحدثتها بصدق عـــن عاداتنا وبخاصة في الافراح ، وقصدت بذلك ان اجاذب عواطفها . ثم ختمتها بالعبارة :

– ليتك ترين بلادي وتعيشين فيها .

– فقالت : من يدري لعل الله كتب لي ان اراها .

## ٣

وفي الصباح حين تناولت مخلاتي لمحت دمعة في عينها واحسست بغصة تمـلأ صدري ..

ولما غادرت البيت تبعتني الاسرة كلها حتى الكلب ثم عادت الام وطفلاهـا بعد وداع .

وبعد حين اشار عمي حسين نحو الاتجاه الذي يوصلني الى الجـــادة وودعني بحرارة واوصاني بنصائحه وعاد ومعه سكينة .

ولما التفت وجدتها قد التفتت ايضاً . ؟؟

ومضيت وقلبي يقول : التفت اليها لعلها هنالك . والتفت ، واحياناً اقف ، وانظر ، انها هنالك ، الست ترى شيئاً مبهماً بعيداً يتحرك وراء الإكمة ؟ انه هي . ولكن نفسي تسفه تخيلاتي ... لا شيء هنالك يا مسكين ، لقد توارت بعيداً بعيداً ، سر ، سر .. واسير وقلبي لا يطاوعني .. انه ينازعني : هلم عد اليها ، هلم عد .

ولكني مضيت ، ولم اعد ، مضيت اكتم الماً ممضاً وآهات قلب يعتصر من الم الفراق ، ولا ادري الى اين امضي لولا ان الجادة تقودني .

●

وقطعت نحو عشرين كيلا ، والتفت مرات ونفسي تقول :

– إلام تلتفت وبينك وبينها مسيرة نصف يوم ؟

فأقول : لعل وعسى .. وتصبرني نفسي او اصبرها . تقول لي : ليكن قلبك كبيراً ، انك جئت لفلسطين ، جئت لرسالة اكبر من هذا . ماذا بقي لشباب العرب من كرامة لو ان كل شاب آثر فتاته ، وكل وحيد لم يهن عليه فراق ابويه ، وكل والد اقعده الشوق لاطفاله وامهم ؟ ! من اذن للرسالة يحملها ؟ !

ويحك لا تستمع لاوجاع قلبك . الم ينازعك في البقاء حين نظرت الى امك على غفلة منها ، نظرات الولهان المودع ؟ وانت تلقي نظرة اخيرة طفرت لها عينك بالدمع ، فأسرعت تخفيه خوف ان ينكشف لها السر ؟ وخرجت من البيت الى غير رجعة ؟

ويح هذا القلب المسكين ! ألم يحدثك حديث الشفقة على ابيك الشيخ وهو يكدح وانت تلقي عليه نظرة الوداع ؟ وقلبك يقطر دمعاً ودماً ؟ والتفت عنه الى غير لقاء ، وهو يشيعك بنظر يشف عن حنان اب يودع ابناً له ذاهباً الى المدرسة في المدينة ؟

مسكين هذا القلب كم يحتمل ؟

الا تذكر كيف كان يتألم وأنت تبيع كتبك وأقلامك، ورفاقك في المدرسة يتساءلون لماذا ؟؟

ألا تذكر حين ألقيت نظرة الوداع الخفية على رفـــاقك في الدرس وانت حزين ؟ وكم ألقيت من نظرة على معالم مدرستك التي لن تراها بعد الان ابـــداً وانت تنسل من بين رفاقك تريد فلسطين ؟ وكم التفت اليها من مرة قبل ان ينعطف بك السبيل ؟

تشجع يا رجل ...

كانت نفسي تصبرني بمثل هذا الحديث ، ولم تكمل حديثها حين التفت اتشمم لعل الهواء يحمل طيب سكينة، وشغلتني الاوهام لعلها تلحق بي ...

آه ليتني اجدها امامي في مرسى مطروح ...

اوهام .. احلام ولهان ... ولم اشعر بالجوع ولم اشعر بالظلام يستولي على اطراف الارض ولم ارَ النجوم ليلتئذ تتلألأ في السماء .

كنت اشعر بشيء واحد .. وارى في خيالي صورة واحدة .. وحين القيت برأسي على الأرض بعد منتصف الليل كانت الصورة الوحيدة التي تتصور لخاطري ملحة قبل ان يغلبني النوم صورة فتاة وادعة كالملائكة ، صارخة الجمال كالحور العين ، تذرف دمعة طاهرة ..

— ٤ —

وسارت بي الطريق .. كم يوماً لست أدري ،حتى وجدتني ذات ضحى أصعد رابية ، وما علوتها الا وأنا وجهاً لوجه مع نقطة حراسة مرسى مطروح على بعد بضعة أميال . حينئذ انتبهت من أحلامي .

ماذا أستطيع أن أفعـل الآن .. لا بد وأن بعض الشرطة في ذلك الكشك

المنصوب على جانب الطريق قد رآني . واضحيت أقدم رجلا وأؤخر اخرى . وخطر لي ان اجلس هاهنا أتوارى عنهم بهذه الصخرة واخلع قميصي واجعل كأني افلي الصئبان منه . . فإنّ احد منهم رآني فسوف يرتاب في امري ، ويقدم عليّ ليجدني افلي ، ولا ريبة في نفسي . . وان لم يرني احد فستكون لي الصخرة حجاباً يُواريني حتى اتدبّر امري . وخلعت قميصي وظللت تحت الصخرة مدة ولكن احداً لم يأت . . اذن لم يرني منهم احد . او ماذا ؟

وجالت بنفسي الافكار : هب انهم امروني بالعودة ، فماذا افعل ؟ واجاب قلبي مسرعاً : نعود الى سكينة . ولكنهم لن يأمروني بالعودة بل يضعونني في السجن . وبعد شهر او شهرين يحملني القطار الى سجون الإنجليز في ليبيا وبعدها لن ترى سكينة . . ويحك !

اذن دعني ابقى وراء هذه الصخرة الى منتصف الليل . وبعدها اتسلل عن بعد تحت جناح الظلام حتى آتي مرسى مطروح ، لن اضيع فرصتي وقد دنا جناها من يدي . ولم يبق بيني وبين المدينة سوى بضعة اكيال . . . وغداً أكون في القطار الى القاهرة . . القاهرة . . ولم أفطن في بداية الأمر لهذا القطيع من الحمير يتجول باحثاً عن الكلأ ، وبعضها مني غير بعيد ، ولكن اين راعيها ؟ فلا ارى لها راعياً . وخطر لي خاطر . لم لا اتظاهر بأني راعي هذه الحمير ؟ . . وظللت اقلب الرأي على وجوهه لعل صاحب الحمير يدركني في موقف حرج او لعل الشرطة يفطنون للحيلة . ولعل . . ولعل . .

نعم ان ملبسي مثل ملبس اهل هذه البلاد ، ولكن هل في عاداتهم ان يتخذوا للحمير راعياً ؟ لا ، لا . دعني اتريث . وبقيت ساعات طويلة اتريث ، حتى ضاعت الفرصة ، وانطلق فريق الحمير بعيداً واكاد اجزم بأن كشك الخفراء خاوٍ لا احد فيه ، لولا ان بدا منه شرطي يرفع عقيرته بغناء اهل هذه البادية .

●

وبعد ساعات زالت الشمس ، وانثنت الظلال ، ولا احد قد بدا من كشك الحراسة الا ذلك الذي كان يغني قبيل الظهيرة .

وكنت في مكمني كأنني في سجن احاول ان أفلت منه ،ولكن اين المفر ؟ والارض مكشوفة ؟ لا وادي يخفي ولا جبل يواري ، وانتظار الليل مشقة في هذا الظرف المشحون بمشاعر الأمل الذي تحقق او كاد ...

ولولا الخشية من انهيار الأمل لأقدمت ..وكان قطيع الحمير قد عاد ادراجه مع العصر رائحاً الى المدينة .

وحسّن اليّ ان اجعل من نفسي راعياً لها . وعتبت عليها كل هذا التردد والخوف من حرّاس ربما كانوا نائمين ، او مشغولين في لعبة استولت على انفسهم. واين تلك الجرأة التي يتطلبها خوض المعارك ؟ عندئذ شحذت همتي بالعزيمة ونهضت لأقرب حمار مني ووجدته أليفاً وادعاً ، به آثار من جر العربات ، وضعت على ظهره مخلاتي فلم يثر ، بل وقف مستأنساً ، وأشرت اهشّ عليه بقطعة حطب فانصاع امامي تجاه مجمع القطيع وامسيت راعياً للحمير اسوقها متمهلاً نحو المدينة متباعداً عن الخفراء وكلي عينان ، عين على العير واخرى على الخفير . وسار قطيعي متمهلاً يقضم العشب من هنا ومن هناك ؛ تالله ان افضل رفقة لرفقة الحمير .. كأن تلك السائمة علمت ما في نفسي فبرعت في التمويه واوغلت في البعد عن نقطة الخفراء حتى توارينا ، وبعدنا ، ثم بعدنا ...

## — ٥ —

في مهابط الوادي ألقيت نظرة شكر على رفاقي ،وحملت مخلاتي وعدت تجاه الجادة . وكم من سرور غمرني عندما شعرت بأني اجتزت آخر عقبة في سبيلي .

وبعد العصر كنت على الجادة أطلّ على مدينة أحلامي التي طالما تعلقت بها الآمال وارتقبت بلوغها النفس.

وكانت الشمس من ورائي ترسل اشعـــة وادعة .. وظلي يتعرج طويلاً على الأخاديد ، ممتداً نحو مدينة ذات معسكرات ومبانٍ وحركة واصوات تترامى الى السامع من بعيد كأنها همهمة من جنة الخلد تترامى الى سمعك من وراء الأزل البعيد ..

او هكذا يتخيلها العـــاني المكدود الذي أرهف الرهق أحاسيسه ، ووتّر تحقيق الأمل أعصابه ، ومن الخلاء والخشية والضنى آوى الى العمران والراحة والأمان ..

خيل الىّ وانا اتطلع الى المدينة وأمر بين المعسكرات في طرفها – خيل الي أنني اشرف على المجد وأن هذه هي مدينة العز والشعر وسعادة الدهر ...

ومشاعر أخرى يقصر عنها التعبير ..

مدينه مرسى مطروح هي في نظري الآن من أبهى المدن ومن خير بلاد الله ، وأي بلاد في الدنيا أجمل في نظر شاب حضري من تلك التي يأتيهـا بعد أيام لا يعرف عددها ، يقضيها في العراء والحفاء والشقاء ؟ لا ينقصه الآن وقـــد ادرك المدينة ونعم البال فيها ، الا امنية واحدة ..

●

# خِطَاب وَارتياب

## - ١ -

حطّطت رحلاة الترحال في الجامع لأصلي المغرب وقد قرب موعده .

وبعد المغرب ألقيت نظرة على المدينة الصغيرة اتجول في شوارعها المتربة الفسيحة ، بين مواطنيها الذين ارتدوا جلابيب طويلة فضفاضة تحت جرودهم .

ولأهل هذه البلاد طبع دمث ، وقلوب طاهرة ، واخلاق طيبة كريمة . وفي المدينة مقاهٍ ومطاعم وفنادق ، ويتخذها بعض الناس مصيفاً ، وكثير من دكاكينها مقام من صفائح البنزين المربعة التي خلفتها الحرب بوفرة في هذه الصحراء ، ومنها بنيت بعض البيوت ، بعدما ترص كالحجارة جنباً الى جنب ، وبعضها فوق بعض ، بعد ملئها بالتراب . وطرق المدينة مترية جميعها ، ما عدا هذا الطريق الصغير المتفرع من الجادة الذي تحفه الاشجار ، ورياح البحر تعبث بهذه الاشجار القليلة ولا تكاد تدع لها فرصة للنمو . وماؤها العذب حملته اليها الأنابيب من النيل السعيد . وفي دكاكينها تباع الأقمشة من أنسجة مصر ، والرز والسكر والدقيق ، والتمر من تمر سيوه انواع ، والفول والعدس والأحذية المصنوعة من مطاط عجلات سيارات الحرب ، وبعض مخلفات الحرب من ملابس وخيم ومخالٍ وفئوس و .. وهي في نظري جنة يفيء إليها العاني المروّع مثلي .. ولا ينساها بعد ذلك أبداً .

علي أن أبحث عن مكان للنوم . الفنادق الشعبية تطالبني بجواز السفر ولا جواز لي ، وتسألني : من اين جئت ؟ وإلى اين ذاهب ؟ دعني إذن ابحث عن مكان آخر لا سؤال فيه ولا جواب . أذهب الى المسجد ، لكن المساجد هنا تقفل أبوابها دون ابناء السبيل ، ولا يسمح لعباد الله أن يناموا في بيوت الله ..

وأخيراً اهتديت الى المطاعم الشعبية . أكشاك من صفائح البنزين تقدم لك وجبات رخيصة ، وإذا دفعت ثمن الوجبة مضاعفاً كان لك الحق أن تنام فيها على الأرض المفروشة بالحصُر . وفي مطعم منها تديره امرأة نمت بين النائمين

القادمين من البادية الشرقية وهي البادية الآهلة من هذه الصحراء .

وألقيت برأسي إلى الاحلام والذكريات ، وتلك الصورة لا تكاد تفارقني ، ولا يزال القلب ينبض بها بحرارة ويكدر صفاءه أسف الفراق . ومضي الفكر يتخيل أحلامه ..

غداً أبكر للقطار ، وفي مثل هذا الوقت أكون في القاهرة ..

ولما غدوت مع شمس الصباح التالي سارعت الى المحطة ولما وصلتها كان القطار يغادرها ولم ألحق الا بدخان كثيف متخلف من كوخه يلفني ويلف المحطة . واما القطار فقد كان يجاهد شاقاً طريقه نحو الاسكندرية ..

وعدت ادراجي اقول لنفسي :

وما علي ان أبقى يوماً آخر في هذه المدينة الوادعة اعيش مع سكينة في الخيال ؟

## - ٢ -

نسيت الأيام ، خميسها من سبتها ، وما كنت أدري يومي هذا ، اي يوم هو من الاسبوع ؟ .

وما عنيت بالسؤال عنه حتى كان الناس عند الظهر يتجمعون في الجامع لصلاة الجمعة ..

وبعد صلاة العشاء من هذا اليوم هممت بالنهوض الى مطعمي الذي اتخذته البارحة مبيتاً ، لولا اني وجدت الناس الذين فرغوا من صلاتهم لم يبادر احد منهم الى الخروج ، بل قد كانوا يفدون إلى الجامع زرافات زرافات ويجلسون .

قلت ، أجلس بينهم لأرى .. عسى أن يكون هنالك ذكر أو حفل أو مفاجأة أحضرها . حتى اكتظ الجامع برجال يبدو أنهم من علية أهل المنطقة ووجهائها ..

وامتلأ الجامع وفاض على الطريق ..

ثم وقف رجل عند المنبر هاتفاً :

حضرات العمد ، حضرات المشايخ ، حضرات الاخوان ، أقدم اليكم

السيد الفاضل والوطني الغيور سعادة ... ليتحدث إليكم ..

ونهض رجل اسمر عريض ، متوسط الطول ، تدل بزته على انـــه ذو شأن خطير في هذه المنطقة .

وكان حديثه عن فلسطين حديثاً مثيراً مؤثراً في النفس . دعا فيه الى قتال الصهاينة والبطش بهم ، ثم انتقل إلى واجب أهالي المحافظة في خوضها ، واستمر اكثر من ساعة . حتى اشتدت بالناس الحماسة وهاج هياجهم وتأثروا تأثراً بالغاً .. وتأثرت أنا أيضاً أيما تأثر .. وحضّ الناس على الا يبيعوا ما بأيديهم من قنابل وبنـــادق ومدافع وذخـيرة في السوق السوداء خوفاً من ان تصل إلى ايدي اليهود في فلسطين . ومن شاء ان يبيعها فليبعها إلى مندوب الفلسطينيين العرب الموجود في مرسى مطروح لهذا الغرض .

●

والبيوت في هذه الصحراء مليئة بمخلفات الحرب العالمية من قنابل يدوية ومدافع رشاشة ومدافع أخرى وبنادق والغام ، كل ذلك من مختلف مصانع الدنيا بين المانية وايطالية وانجليزية و ..

●

وبعد انتهاء الرجل من كلمته ، قدم للحاضرين ممثل الفلسطينيين باسم ممثل الهيئة العربية العليا ، الذي تحدث عن فلسطين حديثاً ليس بالطويل . قال : إنه قد تكونت لجان في جميع أنحاء فلسطين للدفاع عن الوطن ، في كل قرية لجنة من شبابها ورجالها جاهزين للدفاع عن قراهم وللهجوم على قرى اليهود . وفي كل مدينة لجنة .. وهم ليسوا في حاجة إلى الرجال ، إذ لديهم عدد وافر من الذين يريدون أن يضحوا بحياتهم ، ولكنهم في حاجة شديدة وملحة الى السلاح ..

انهم يبحثون عنه في كل مكان ولا يجدونه ، بينما تقوم السلطات الانجليزية الحاكمة بتسليح اليهود بكل الوسائل ..

وقال أيضاً : إننا لا نملك من السلاح للدفاع عن قرانا شيئاً يمكننا من الحفاظ عليها لحين قدوم الجيوش العربية التي ستتولى القضاء على الصهاينة ..

ونحن نعتمد على الله ثم على هذه الجيوش التي عقدنا عليها الآمال ..

وهذا الجيش الأردني موجود الآن فعلاً في رقعة واسعة من فلسطين يضفي عليها الهيبة العربية .. فهو موجود في الخليل وفي أريحـــا وفي رام الله ونابلس وغزة وغيرها من المدن ..

وكنت استمع لحديثه بشغف واهتمام شغلني عن ملاحظات هامة...

## - ٣ -

خرجت بعدها إلى مطعم خالتي التي لا أعرف اسمها . طعمت طعاماً لذيذاً ، وجلست مع المتحدثين ولم أتحدث خوفاً من لهجتي أن تفضح غربتي .

ودار الحديث أول ما دار عن خطبة الليلة التي ألقاها محافظ منطقة مرسى مطروح [1] في المسجد ..

إذن كان هذا الخطيب هو حاكم المنطقة ! ...

قال أحدهم : ما أفصحه من قول وأسمحه من كلام .

وقال آخر : لقـد أحسن والله في نصح الناس لئلا يبيعوا سلاحهم لمـن لا يعرفون .

---

١ – هذا المحافظ الذي استباح دماء الشباب الليبي في كارثة يوغر الصدور ذكرها . ومع ذلك أفلت من عدالة رجال الثورة . والله ان بالنفس لعتاباً مرّاً .

واستمر الحديث يدور بينهم على هذا النحو :

– ليت نصف هذا السلاح يصل حقاً إلى المجاهدين .

– أي والله في كل أسبوع يحملون مركباً مليئاً واحياناً يقلع مركب كل يوم من ميناء مرسى مطروح مليء بالسلاح والقنابل والعتاد . أين يجدون كل هذه الأشياء ؟

– الصحراء مليئة بما لا يحصى .

– يقول بعض الناس ان أكثر هذا السلاح يشحن لليهود ..

– لا لا يا رجل ... لا تصدق هذا الكلام .

– سمعت هذا عندما ذهبت لدار الأخوان المسلمين اليوم .

قيل إن هذا السلاح ينقل لليهود حسب رغبة الانجليز ونظير مبلغ مالي

– لا تصدق : لا تصدق يا رجل هذا الكلام، ألم تستمع إلى سيادة المحافظ... إن بعض الظن إثم ، دعـــك من رواية هذا القول المغرض .

ولما مضى الليل واضطجع الناس كان بعضهم لا يزال يتحدث .

تحدثوا عن الزرع ، والعشب ، والماء ، والأسعار ، وتحدثوا عـن المحافظ ، وعادوا إلى ذكر السلاح وأسعاره . ومما قيل :

– يقال إن حكومة مصر ستحارب في فلسطين .

– لا تصدق يا أخي ، لا نظن ذلك ، ولا نظن مـا يقال عن شحن السلاح لليهود إلا حقاً ، والحكومة اذا حاربت لن تخلص النية للحرب بل يحاربون بقدر ما يحقق لهم فائدة أو لا يحاربون ..

هذا الحديث كان يدور بين أصحابه خافتاً يشبه الهمس ، وغاظني أن أسمع مثل هذه التهم الحقيرة وكدت أعترض، وخوف النتيجة هو الذي أخرسني.

واستمر الحديث :

– لا يا شيخ ! لا تصدق هذه الأباطيل .

– أنا ما قلت الا ما سمعت .

– وهل سمعت شيئاً آخر ؟

– نعم سمعت ...

وسكت المتكلم .

– ماذا سمعت ؟

– سمعت أن هناك اتفاقاً سرياً بضم القسم العربي الباقي مـــن فلسطين الى دولة شرق الأردن .

– يا رجل لا تصدق ما تسمع .

– سمعته من رجال ثقات لا يكذبون .

– بل هم يخرصون والظن ابن عم الكذب .

ودار حديث آخر في الجانب المقابل .

●

– ألم تر الى عمدة المغاربة الشيخ رجب يكاد يثور الدمع في عينيه مـن شدة ما تأثر من كلام المحافظ ؟

– لم ألاحظه .

قال رجل ثالث :

– لقد لاحظته والله ، ولاحظت دمعة حائرة في عينه .

– بارك الله في الشيخ رجب ، قد شرع هذه الأيام يستقبل أبناء أعمامـــه الليبيين ويحميهم من مطاردة الشرطة ، ثم قيل انه يبعثهم للجامعة العربية لتجندهم للقتال في فلسطين ..

أما أنا فقد اغتبطت اغتباطاً شديداً حين سمعت هذا الخبر بين لغو المضطجعين .

واستمر حديثهم :

ـ ولكن ألا تخبرني كيف يستطيع الليبيون أن يفلتوا من مطاردة الشرطة ويصلون إلى هنا .

ـ لا أعلم ..

ـ سمعنا أن الوباء انحسر عن مصر ، وأن الحكومة سوف تتساهل في استقبال المتطوعين من المغرب العربي .

ـ ليتنا يا رجل نجد سبيلاً للتطوع .

ـ عليك بالقاهرة ، وأنا نفسي أفكر في هذا .

ـ سمعنا أن الجامعة العربية ستقيم معسكراً تقبل فيه المتطوعين الليبيين في السلوم .

ـ بل يقال إنها ستقيمه ها هنا في مرسى مطروح .

ـ يا ليت ..

وتنحنح شيخ من ركن المطعم وقال :

ـ يخيل إليّ ان لم أكن مخطئاً، انني رأيت دبيباً حول البيت المنفرد الذي يقع شرقي مرسى مطروح... رجال يرتدون شبه ملابس العساكر، ولكني لم أهتم للأمر.

ـ أي بيت تقصد .؟

ـ أرأيت ذلك البيت الذي يقع وراء الجبل بعد كيلين أو نحوها على الجادة غير بعيد من هنا من المدينة ؟

ـ آه .. المعسكر القديم تقصد ؟

واستفزني الطرب لما أسمع ، وجلست من اضطجاعتي . وجاشت الخواطر مشبوبة في نفسي . هل انهض الآن واتبع الجادة على كيلين أو ثلاثة حتى أعثر عليهم ؟.

لا ، لا ، لعل الشيخ واهم ، او ليسوا متطوعين أو ..

دعني أحتفظ بحقي في المبيت ، وفي الصباح سأرى ..

ولكن هب اني لم اجد متطوعين وتخلفت عن القطار .. يوماً آخر ؟ لا ، لن

أتخلف ، سأبكر وإن لم اجد أحداً فسألحق بالقطار .

●

كانت النجوم لا تزال تتلألأ في بعض اطراف السماء حين خطوت عتبة مطعم خالتي ... وعدت إلى طبع العادة من سلوك الجادة ، غير اني في هذه المرة منتعل بحذائي الذي يحدث إيقاعاً غير مألوف لي من قبل ، يضايقني بضجيجه . وصعد بي الطريق الى هضبة تشرف على المدينة ، وألقيت نظرة أمل عريض على القطار الرابض تحت هذه الهضبة ، وهو لا يزال يغط في نوم عميق وانفاسه مكتومة والدجى يغمره فلا يكاد يرى . وانحدرت وراء المدينة ابحث عن البيت المفرد ولا أثر له . تابعت الطرق احد النظر في كل حجر إلى ان بدا لي عن يمين الطريق شيء مظلم كأنه بناء ، سعيت إليه فاذا هو بنا في العراء يشبه أن يكون بيتاً هجره اهله ، وقلت : لعله المعسكر القديم ، سر نحوه وسوف نرى . وعلى بعد فوجئت بصوت لم أتبين صاحبه ، يقول : قف .

فوقفت . قال لي : من أنت ؟ بلهجة اعرفها جيداً . اجبته عابر سبيل .. عرف لهجتي ... واستغرقنا في سلام حار واستفسار عن الحال والأحوال رغم أننا لم نتعارف بعد ، وسألته : هل أنتم ها هنا كثير ؟

قال : نحن قليل جداً ، لم يفتح المعسكر إلا منذ بضعة أيام .

— هل رفاقك نائمون ؟

— لا ، يتدربون .

— أين يتدربون ؟

— لا ادري . ذهبوا بعيداً في الوديان .. هه ألا تسمع انفجار القنابل الآتية من هذا الاتجاه ؟ ها هم هنالك .

وسررت بالحارس ورفيقيه اللذين استدعاهما للترحيب بي ، فاستقبلوني استقبالاً حاراً كأني عائد إلى بيتنا ..

# تحتَ السّلاح

# ١

قبيل الظهر كنت بين أربعة واربعين ليبياً، ولي بينهم سرير وفراش واربع بطاطين ، وحديث من هنا ومن هناك لا ينضب معينه . . وأنا ألتفت لملابسي الجديدة بين الفينة والأخرى أفحص هذا الزي الغريب الذي لم آلفه بعـــد .. ألتفت اليه من هنا ومن هنا، وهو مشدود في وسطي وكأني منه في عري.. رغم أنني مزهو به امشي حين امشي وكأنني ملكت الكون واستحوذت على الأرض من أطرافها . وشعرت بالتعالي عما كنته من قبل ..

وتراني اتهافت على سلاح التدريب افحص وأتعرف ..

وكل رفاقي خبراء بشؤون الحرب والسلاح، اكثرهم اشترك في الحرب العالمية الثانية مع الطليان أولاً ثم انقلب عليهم..وبعيد منتصف الليل كنت قد غادرت فراشي الى هذا الطابور الذي يهرول جرياً في هذه الوديان المظلمة.الى المناورات والتدريب على حرب العصابات . وعند الضحى كنا مرهقـــين ، أو على الأصح كنت مرهقاً ، ورفاقي يجلسون جماعات بين مروج القمح ، نتناول ما بأيدينا من فطور جاف . واسترحنا نصف ساعة ، عدنا بعدها الى تسلق الشعـاب والزحف في المغاور والأخاديد ..

ولما عدنا الى المعسكر قبيل منتصف النهار كنت مشتاقاً الى حساء العدس الذي عافته نفسي بالأمس عندما قدم الي لأول مرة .. ولكنه اليوم لذيـــذ . وافرغت الصحن المعدني وألقيت به جانب السرير . فقيل لي : ماذا فعلت ؟ قم نظف صحنك وملعقتك حتى يلمع كالمرآة وترى فيه وجهك، والا فالعقاب لك . كل شيء ينبغي ان يكون نظيفاً لماعاً ومنظماً .. لمّع حذاءك وحزامك ، وحدد سراويلك كل يوم .. وكل يوم رتّب سريرك ، وحـــذار ان يجد المفتش منك ادنى اهمال ..

# ٢

لا استطيع ان اصف النشوة التي تضطرم في نفسي من حيـــاتي الجديدة فكأني خلقت خلقاً جديداً .. حياة جديدة تدب في كياني بالعزة والأمل والجد الفعال ، وتومض في أملي بالقوة والزهو والكرامة ، والحياة كرامة ، ومن لم يشعر بالكرامة لم يشعر بالحياة .. إنني الآن أشعر بالحياة .. قد تغيرت هيئتي في ملابسها ، وتغيرت نبرات صوتي في لحنها ، وتغيرت نفسي في اعتدادها ، وسمت روحي المعنوية سمواً يليق بالانسان الجديد ، وتغير فكري السياسي إلى الثقة في النفس والثقة في قادة العرب أيضاً ، والثقة في المستقبل المجيد ، وأول الغيث قطر. وقطرنا هذه المرة يبدأ من فلسطين. وتغير كل شيء في نظري فلم أعد أنا الأول..

لم أعد انا ذلك الذي بدأ ريعان شبابه بنفس تضطرم بالآمـــال الكبيرة والأحلام الزاهرة ثم سرعان ما خبت كما تنطفىء جذوة هشيم الذرة في ليلة باردة ندية ، كذلك كان حالي وحال شباب العرب .. لا حول لنا ولا قوة . يقتـــل الاستعمار معنوياتنا وهي لم تكد تولد بعد . والآن قد تغيرتُ بين يوم وليـلة . ومالي لا اتغير ؟ وأزيل عن نفسي نير الجناح المهيض وشعور الخانع الذليل اللذين صُبغت بهما حياتي من أثر عنجهية الغشم الإيطالي الذي ولدت في ظلاله وترعرعت على لبانه ..

●

وبعد ساعتين للغذاء والراحة نعود للدرس والطابور وتسلق الجبال في الهواء وتسلق الجدران بالحبال والتهديف والنسف .. نسف المباني والكباري والسكك والابراج والحصون ، حتى تكاد الشمس تغيب ثم نجتمع في طابور التفقد النهائي

نحيي العلم .. العلم المصري طبعاً ، وتتلى علينا تعليمات القيادة ، قيادة الخمسة والاربعين . وننبأ بحوادث الميدان ، والميدان في فلسطين ، ونُعلم بكلمة السر . ثم ننصرف إلى السمر والطعام والتدريب الحر ونقضي هزيعاً من الليل في السمر البريء .. اخوان جمعهم التوادد على الصفاء ، والإخلاص في السراء والضراء .

يجمعنا المبيت في صالة فسيحة ، هؤلاء يتحدثون عن مستقبل بلادهم .. وأولئك يتناقلون الطُّرف والنوادر ، ثم يعودون جميعاً الى أخبار فلسطين .. وللجرائد مكان فسيح في حياتنا تنقل إلينا انباء العالم ، وأنباء قضية بلادنا وانباء فلسطين التي تهمنا بصفة خاصة .. نترقبها كل عشية في القطار القادم من الاسكندرية ، تتخاطفها الايدي ، ونلتهم أول ما نلتهم أنباء فلسطين ، ثم نعود ونقرؤها على مهل ، ثم نخوض نقاشاً تدرك منه قلق المتطوعين وتلهفهم على خوض معامعها في وقت مبكر .

وها أنا أقضي ليلتي الثانية بين رفاق يتجاذبون أطراف آمالهم ويداعبون تخيلاتهم عن القتال والفدائية وطبيعة الأرض التي سيقاتلون عليها ..

●

ثم أنسحب إلى السرير رقم ٤٥ الذي يقع في طرف الأسرة وأتركهم يسرحون وراء أحلامهم ..

أنسحب لأخلو إلى نفسي استعيد الذكريات المضنيات التي لا تزال تحفر في سري ، وتتصور في صفحة مشاعري بأثرها العميق ، وكأنني لا زلت أعيشها ولم انفصل عنها رغم تغير مجرى حياتي ومفاجآت تيارها العسكري الجديد ..

واستلقيت على الفراش الموضوع على سرير خشبي أنظر في السقف وأسفلت الطريق يتراءى لي وهو ينسحب خلفي بين رجلي الحافيتين ووهج شمس الصحراء يغشى عيني كأني أراه الساعة . وأشباح جند المحور والحلفاء وقطع الملابس

وآثار العظام ومشاهد من قبور ووسخ وقمل وعطش وجوع وألغام وصحراء وذكريات أم باكية وأب ولهان ، وجزع من شرطة الإنجليز ومن شرطة مصر وآلام واحلام ، وقطعة من فؤادي دفنتها عند سكينة . وبين نوم ونعـــاس صورت لي القرى المقامة من صفـــائح البنزين في أم الرزم والتميمي والسلوم والبراني و كأنها جنات في هذه الصحراء تروح على المكدود العاني ، وخيل الي أني عانيت آلاماً ومشاقّ لم يعانها أحـــد من هؤلاء الذين نام بعضهم ، وبعض آخر لايزال يتلهى بالحديث . وعزمت أن استقصي اخبارهم واسأل بعضهم كيف وصلوا إلى هنا ؟

## ٣

غدونا مبكرين إلى ساحـــة التدريب ، وتذكرت أن ارسل إلى أمي وأبي أعلمهم بحياتي وأشعرهم بزهوي في الجندية . وبعيد ملتقى الطابور الختامي حملت الرسالة في جيبي إلى المدينة . ومن باب المعسكر صحبني إبراهيم الزوبي الى المدينة وأنا اصغر من في المعسكر سناً ولكن إبراهيم هذا اصغر مني .. وهو من ابناء بنغازي اسمر خمري اللون ، باسم الوجه وسيم الطلعة جميل العينين اسودهما في نبرات صوته عذوبة ، حلو الحديث طيب السريرة وصغر سنه جعلني اتساءل كيف تسنى لهم قبوله جندياً ؟

طرحت عليه السؤال فقال :

– رفضوا أن يقبلوني أول الأمر ، ولكنهم أخيراً قبلوا وساطة الرفقـــاء الليبيين ولم يجدوا بداً من قبولي أمام إلحاح أخواني و ..

ولم أدعه يتم حديثه ، بل قاطعته قائلاً :

– قل لي يا ابراهيم . كيف وصـــلت مرسى مطروح ؟ وكيف غادرت أهلك في بنغازي ؟ هل سمحوا لك بذلك ؟

وذهب إبراهيم يحدثني عن طفولته وأصدقائه ووالدته وإخوته الذين يحبهم كثيراً ، وعن بنغازي ومواطنيها حديثاً عذباً طربت له ، والحديث عن الوطن

يطرب من لا ينوي العودة اليه .. وقال إبراهيم إنه هرب من أهله ماشياً على رجليه خالي الوفاض وقاسى من البرد والجوع ما لا أحلم به . وله ذكريات في الجبل الأخضر ترتعد لها فرائصه كلما ذكر الثلج والجوع والنوم تحت أشجار العوسج . وقد خرج من بيتهم وحيداً حافياً يبتغي فلسطين . وهو لم ينس خمسة عشر يوماً من الفزع قضاها حول طبرق يفكك القنابل ليبيع ما بها من نحاس لتجار الخرده لكي يستعين بما جمع على السفر ، وقضى أشهراً يسير على قدميه النحيلتين ليقطع طريقاً وصفته لك. وحدثني عن التقائه ببعض رفاقنا في المعسكر الذين اضطروا لسرقة خيام الجيش الانجليزي من معسكراتهم في طبرق. يسرقون الخيمة وأصحابها تحتها نيام [1] ويزعمون أن لهم في هذا العمل ثلاثة مآرب :

التدريب على فدائية الحرب ، والاستعانة بأثمان الخيم على السفر للحرب ، واضعاف الجيش الانجليزي وهيبته .

ولم يكن هذا العمل قليل الأخطار ..

قلت في نفسي :

إذن لست أنا ذلك الرجل الوحيد الذي كافح كفاحاً مـرّاً كما كنت أظن .. بل أنا الشخص الخامس والأربعون ..ومن قبلي أربعـــة وأربعون إنساناً قاسوا أشد الآلام وخاطروا بحياتهم أكثر مما خاطرت ..

●

وحدثني إبراهيم عن هذا المعسكر ، وكيف أقيم ...

أقيم منذ أيام فقط بمجهود الليبيين وحدهم. ذهب ثلاثة متطوعين إلى القاهرة وعلى رأسهم بشير الناجح . حاولوا أن يقنعوا الجامعة العربية بافتتـاح معسكر يستقبل الليبيين ويدربهم ...ولكن الجامعة لم تكن تعلم ماذا تفعل . ؟

---

١ ـ بعض هؤلاء يتولون اليوم مراكز كبيرة في الحكومة الليبية ولعلهم لا يستحبـــون ذكر اسمائهم .

قالت : فليذهبوا الى سوريا ، وهنالك يتدربون مع جيش التحرير في قطنا، مع المناضلين من سوريا والعراق والاردن ولبنان .. الى ان تدخل بعض الليبيين الموجودين في القاهرة .. وفتح هذا المعسكر .

وقال إبراهيم : كنا في بداية الأمر والى وقت قريب نرتدي ملابسنا ، ونأكل على حسابنا وأيدينا خاوية .. وأما الليبيون الذين وصلوا مبكرين فقد اضطروا للسفر إلى سوريا ودخلوا معسكرات قطنا فعلا .

قال إبراهيم : كم كانت الأيام قاسية على الذين سبقونا ..

●

ولم يدر ابراهيم أن الأيام كانت قاسية على الذين جاءوا من بعدنا أيضاً .

وقد وصل الى هذا المعسكر ما يزيد عن ستة آلاف متطوع ، معظمهم وصل الى مرسى مطروح أو الى فلسطين على الحالة التي رأيتني عليها . تركوا متاجرهم ، ومزارعهم .. ووظائفهم .. ومدارسهم .. ووالديهم .. وذويهم .. واحبابهم.. وحملوا أرواحهم على أكتافهم فداء لفلسطين .ومنهم الاخ الذي جاء مع أخيه والوالد الذي جاء مع أبنائه الثلاثة و .. و .. أمثلة للفدائية رائعة .

وانكشف سر الصحراء الرهيب الذي طبع النفوس الليبية في باديتها ولاحقها بصبغته في مدنها فطبعها على البراءة والطهر ،والشهامة والغيرة ، والصبر على الاحتمال ... لا تخف على شعب هذا معدنه. لو قدر لك أن تراهم،لأدركت كيف استطاع هذا الشعب الصغير المبعثر في مهمه تشابهت أرجاؤه أن يراوغ قوة تزيد عليه ثلاثين ضعفاً .. قاومها عشرين حولاً كاملاً . ولولا الفقر والقحط والحرمان لما دنست ترابه قدم إيطالية باغية أبداً.

## ٤

وبعد بضعة أيام من التدريب المتواصل، وفي ٢٦ / ١ / ٤٨ ، طالعتنا الصحف

بنبإ دخول القائدالعظيم فوزي القاوقجي الذي اشتهر في قتال الانجليز في ثورات فلسطين الماضية .. دخل أمس إلى فلسطين يقود أفواج جيش التحرير الفدائي ، التي سبقه بعضها الى فلسطين منذ أسبوعين مضيا . هذه أنبا بالنسبة الينا كانت سارة ومحزنة في ذات الوقت .

كانت سارة لابتداء أول عمل جدي منظم في سبيل التحرير ، ولما لقائد هذه الحملة من سمعة في آفاق العالم العربي ..

كان معظم الشباب يتمنون أن يقلدوه ، أو يقاتلوا تحت لوائه. وكانت محزنة أيضاً لأننا كنا نتمنى أن نكون أول فدائيين تطأ أقدامهم أرض فلسطين ..

ولذلك تذمر معظمنا ، وأبدوا استياءً واحتجاجاً على بقائنا هاهنا . وكنا نظن ان هو إلا اسبوع مع المران ، نكسب فيه دربة على السلاح ، وخبرة في أعمال الحرب . ثم بعده نخوض ميدانها .

●

ولكن ها هي الأسابيع تتساقط من حسابنا وتمر .. ونحن لا نزال هاهنا نخوض حرباً وهمية كل يوم ، نرتاد ميدانها صباحاً ومساء دون ان نلقى عدواً او نحتل ارضاً ، ودون ان نقاتل في ازقة وشوارع حقاً ، الا هذه الآكام التي نصنع منها في وهمنا قرى ومدناً .. ومرت أسابيع اخرى ، ونحن على هذا الحال في شغل شاغل .. في قتال كالحرب وليست حرباً . وفي كر وفر ، ولا عدو يفر امامنا او يكر علينا ، وفي جري وهجوم واختفاء ، وسلاح ومدافع وتفجير ، وألغام . واسعاف الجرحى ونقل الموتى . ثم نعود الى معسكرنا آمنين لم نفقد قتيلا ولم نحمل جريحاً .

●

وفي المعسكر نشرع في تدريب بعضنا بعضاً ونفجر الألغام والقنابل اليدوية التي حملناها معنا من الصحراء . وهي نوعان : ايطالي صغير خفيف ، وانجليزي ثقيل مبرج ماركة ملز .

وقد حدث ذات أمسية ان بعض الجنود وجد في طريقه قنبلة إيطاليـــة في طرف المعسكر من القنابل التي قذفناها ولم تنفجر . فضربها برجله فانفجرت على حذائه ، وحسبناه ذهب اشلاءفي الفضاء ، وكانت لنا مفاجأة .. انه لا يزال حياً واكثر من ذلك لم يمسه سوء . وحتى حذاءه لم يتضرر ومنـــذ ذلك اليوم اثبتت القنبلة الإيطالية أنها ذات عجيج ولكنها ليست بذات طحن. وعلى العكس منها القنبلة الانجليزية ملز ، فهي ذات خطر شديد .

ومن حسن حظي أن جميع القنابل التي حملتها معي كانت من هـــذا النوع الخطر .

●

يشرف على تدريبنا صف ضابط برتبة صول من الجيش المصري وزمـلاء له في مختلف الأسلحة وتعلمت أن النصر يتوقف على نوع التـــدريب والروح التي يخلقها المدربون بين الجنود ..

ونحن نشعر ان التدريب الذي نتلقاه في ساعات الفراغ على يد زملائنـــا الليبيين من المحاربين القدامى أجدى علينا من التدريب الرسمي. ومعظم زملائي اشتركوا في الحرب العالمية الثانية مع الطليان ثم مع الانجليز، وكثير منهم اشترك في خمس حروب كبيرة ..

## ٥

وتمر الأيام دون ان نصحو من شاغل التدريب ، الى طول ما اقمنـا ، حتى

يذكرنا حادث في ميدان الحرب الحقيقي ..

وكبرت الأسابيع وصارت أشهراً ، ومضت واحداً إثر اخر . حتى كان الحدث البارز الذي ذكّرنا .. كان ذلك يوم ٨ / ٤ / ٤٨ .. يوم لا ينسى في معسكر مرسى مطروح ، اذ جاءت الأنباء بمقتل قائد من قادات العرب ، ورجل من خيرة رجال الحرب ، وسيد من سادات الوطن ، وخيّر من خيرة الابناء البررة المخلصين . ذلكم هو الرجل الذي لا يكاد يخلو منه حديث لنا عن فلسطين .. وهو القائد المجاهد عبد القادر الحسيني . قتل بالأمس في القسطل بشارف القدس . طالما سمعنا وتحدثنا عن جنده المسمى بجيش الجهاد المقدس . وطالما تمنينا أن نصحبه في معاركه ، ونصارع قوى البغي على منواله ، من الشجاعة والإقدام والتضحية ..

لقد ذهب الى ربه بعد صراع دام اشهراً وانتصارات سيدوم ذكرها قروناً . وكان لاستشهاده اثر بيّن في شحذ همم الجنود وإثارة حماستهم لميدان القتال .

## ٦

ثم لم يمض بعد وفاته إلا يومان .. يومان اثنان ، حتى تحدث تلك الهزة التي ارتج لها عالمنا الصغير في مرسى مطروح . واهتزت لها افئدة الجنود بغضب شديد .

حادث آخر في ضاحية أخرى قريبة من القسطل نقلت الينا الصحف أخباره وهو أسوأ نبإ سمعناه إلى هذا اليوم : وذلك أن اليهود داهموا بالامس ٧ / ٤ / ٤٨ قرية تسمى دير ياسين من ضواحي القدس ، واحتلوها ، وقتلوا جميع من وصلت اليه أيديهم فيها من نساء ، وأطفال ، ورجال ، ممثلين بهم أبشع تمثيل . وفتكوا بنحو ثلاثمئة نسمة في وحشية نادرة المثال .

●

وقع علينا هذا الخبر وقوع الصواعق ، لم نتأثر لخبر سمعناه تأثرنا لهـــذا . واجتمعت جموعنا ترغي وتزبد وتهدد وتتوعد .. واشتد الجدل بيننا وبين قيادة المعسكر لإصرارنا على السفر إلى فلسطين فوراً .. واشتدت الحماسة ..

ولم يكن لنا في هذا اليوم من حديث غير دير ياسين ، وكان عدد المتطوعين الليبيين قد تزايد في هذا المعسكر ، واصبح يقرب من ألفي فدائي . ولم تجـــد القيادة بداً أمام تيار الألفي فدائي من أن تتصل بالقـــاهرة ، لكي يسمحوا للكتيبة الأولى بالسفر الى فلسطين . وقد أصبح إرسالنا ضرورة لا مفر منها ، لإخلاء المعسكر للافواج القادمة من الشباب الليبي .. لأن أمر المعسكر قد اشتهر في المدن الليبية المتطلعة إلى أخبار فلسطين ، لذلك ترى مدينة مرسى مطروح تستقبل مئات الرجال كل يوم .. افواجاً أفواجاً..وكان المعسكر يموج بالشباب سيلاً زاخراً ، والخيام تتزايد وتمتد عشرات الأمتار كل يوم ..

ويبدو أنه لن يتسع للآلاف التي سيستقبلها كل بضعة أسابيع ولا بـــد من تخريج كتيبة أو كتيبتين في كل شهر ..

●

هذا فضلا عن الثورة الغامرة التي أثارتها حوادث دير ياسين بـــين الرجال المتذمرين من بقائهم في المعسكر وقد استكملوا تدريباً كافياً .. وقضوا مدة لم يكونوا يتوقعونها .. فلم لا يرسلون الآن لتقليم أظافر الوحشية الصهيونية ؟ اننا لم نسمع عن وحوش يعتدون على المسالمين من الرجال وحتى على الأطفال الرضع.. لم نسمع عن هؤلاء الوحوش منذ الحروب الصليبيـــة الى الآن ، وفي القرن العشرين . ذلك شيء، تشمئز منه المروءة العربية . وليس ببعيد ومنذ شهر فقط إقتضت الشهامة العربية التي تأبى أن تقتل العدو المقاتل إذا استسلم .. منـــذ ثلاثة عشر يومـــاً فقط وفي يوم ٢٧ من الشهر الماضي اقتضت شهامة المقاتلين الفلسطينيين ان يعفوا عن ثلاثمئة من المقاتلين اليهود في قافلة عائدة من مستعمرات

كفار عصيون ، وكانوا يستطيعون ان يبيدوهم جميعاً. وهؤلاء الصهاينة قد خانوا الميثاق المعقود بينهم وبين اهل دير ياسين . وهم منذ أيام فقط عقدوا ميثاق عدم اعتداء مع اهل تلك القرية .. ثم عادوا في ليلة يخونون ميثاقهم ويتسللون في الظلام ليغدروا بالعرب .

وفطن العرب للغادرين فقتلوا منهم عدداً ليس بالقليل ، ولما تغلب الغادرون لم يكتفوا بقتل الرجال ، بل قتلوا حتى النساء والأطفال ، وألقوا جثثهم جميعاً في بئر هنالك .

لذلك ترانا اليوم نتحرق غيظاً ونترقب الرحيل بصبر نافذ .

## ٧

وبعد أيام كان لنا من أبناء العرب الفلسطينيين ما أشفى بعض غيظنا . لقد انتقموا لدير ياسين .. بعد أربعة أيام قتلوا نحو مائة رجل من خيرة رجال اليهود الذين يعتزون بهم من القادة والأعلام البارزين ، لا طفل بينهم ولا امرأة من قافلة بحيّ الشيخ جرّاح بالقدس .فتكوا بالقافلة وأحرقوا سياراتها وقتلوا خيرة الصهاينة من الرجال . وعندما وصلتنا هذه الأنباء كنا نحزم أمتعتنا نستعد للرحيل إلى القاهرة . خففت هذه الأنباء من حزن الكتيبة الثانية التي لن تسافر معنا وستتخلف بضعة أيام أخرى .

وكانت أنباء سررنا لها جميعاً أيما سرور ، ولكن أبت الصحافة العربية أن تستغلها لإنعاش الروح المعنوية العربية بل ظلت تلح على تهويل وقائع يوم دير ياسين المشؤوم . ولم يكن مشؤوماً لأنه كان مذبحة لأهل القرية أو لأنه كان تنكيلاً بهم .. بل هذا أمر هين .. وإنما كان مشئوماً لأنه كان مذبحة للروح المعنوية العربية .. وانتعاشاً للروح العالية لدى اليهود وازدهاراً لمعنوياتهم ، فكانت لهم أقوى سلاح فيما بعد ، وبقدر ما خلقت في نفوسهم من ثقة واعتزاز

نفثت سموماً وخذلاناً في المعنويات العربية .

وكنت أحس بالسهام تخترق أضلاعي وأنا أستمع لهذه السموم تنفثها الإذاعات والصحافة العربية وهم يتباكون ويصرخون ويزعمون أنهم يصورون الوحشية الصهيونية، وقد استمرت معاول الإذاعة والنشر مدة تخرب معنويات العرب بتهويل ما حدث في دير ياسين ولا مستنكر من قادة العرب ..

●

والروح المعنوية العالية أشد سلاحاً لأصحابها من الطائرات والدبابات .
والروح المتخاذلة أشد فتكاً بأهلها من الصواريخ والقنابل السامة .

ويكفي أن يتسلل بضعة أفراد من ذوي الروح العالية بين جيش من المتخاذلين لكي ينهزم بلا حرب وبلا سلاح .

وقد حدث من هذه الاعاجيب كثيراً في الحروب التي يشترك فيها الألمان مع جيرانهم ، وحدثت لليابانيين قصص تجعل خصومهم جيشاً من الحطب الهشيم .

●

ومنذ هذا اليوم ضعفت مقاومة اهل القرى الفلسطينية في الدفاع عن قراهم وانهارت المعنويات وسلمت كثير من القرى والمدن بلا مقاومة تذكر . وكنا ننتظر من اهل هذه القرى والمدن ان يدافعوا عنها شارعاً فشارعاً وبيتاً فبيتاً وشبراً بشبر ، لا ان يسلموا العدو المدن والقرى بلا نضال يذكر .

●

وكان المفروض ان يرد العرب بيوم اشد هولاً يفزع اليهود ، ويروع جموعهم

ليمسخ المارد الوليـد في نفوسهم الى فأر قميء يتلصص في تجـاويف الشقوق والجحور . ولكنهم لم يفعلوا ، فاستمر اليهود في تعاليهم منذ ذلك اليوم . وحتى حين انتقم العرب لأنفسهم لم تبال أجهزة الاعلام باستغلال ذلك الانتقام استغلالاً يرد للروح المعنوية العربية انتعاشها وخاصة بين المواطنين الفلسطينيين أنفسهم ، بل روتـه رواية عابرة كأنه لا يستاهل التضخيم والتطبيل ما يستأهله حادث دير ياسين .

## ٨

في هذا الجو المشحون بالانفعالات الحربية ونحن نستعد للسفر بعد غد ، كنت قد وضعت رسالة لأهلي في صندوق بريـد مرسى مطروح وانثنيت ، فإذا بي وجهاً لوجه مع عمي جـبريل ، ذلك الشيخ من حي عمي حسين ، وهو الذي ألح عليّ أن ابقى في الحي واعلم أبناءهم القرآن .

استوقفته ، لأنه لم يعرفني في هيأتي العسكرية ، وسلمت وهو لم يتعرف عليّ بعد . ولما عرفني رحب بي من جديد ، وجلسنا نتحدث ونتبادل الاخبـار . فأخبرني عن عمي حسين ، وعن الحي ، وبدون سؤال أخبرني بأن سكينـة خطبت لأحد شباب حي آخر ، وانها ستزف الى زوجها عقب موسم حصـاد القمح مباشرة .. كان لهذا الخبر صدمة قاسية في نفسي رغم ما نحن فيـه من انفعالات واستعداد ، وحاولت أن اكرم عمي جبريل من اجل مـا اكرمني أهل حيه ، ومن اجل سكينة وذكرياتها .. والمرء وسط هذه الحياة العسكرية والاستعداد للسفر والقتال ، كان كأنه في عالم آخر أو في دهر ليس من هـذه الدنيا وحياتها .. لما يفيض به الوجدان من مشاعر .. وحين لقيت عمي جبريل شعرت بالاطمئنان والشوق الحار ، وكأنني لقيت احد اعمامي بعد غربة مضنية وفراق طويل وصحبته معي الى المعسكر ..

وتحدثنا طويلاً عن الحي وأهله حديث الراغب المشتاق .

وفي اليوم التالي صحبت عمي جبريل الى البلد وحملته تحيـاتي الى عمي حسين واسرته .

وودعته ودعاعاً حاراً قبل ان أفارقه الى معسكري أعاني أثر الصدمـة ، رغم تظاهري بالجلد .. وانشغالي بالاحداث .

●

# هَـذه القَـاهِرة

# ١

ركبنا قطاراً خاصاً من مرسى مطروح الى الاسكندرية ، وفي محطة القطار في الاسكندرية انتقلنا الى قطار آخر. وهنا ولأول مرة نختلط بالمصريين المسافرين إلى القاهرة ، ولم نكن نعرفهم من قبل عن كثب ، لأن سكان مرسى مطروح من أولاد علي ، وهم ليبيون أصلاً ولا يختلفون عن القبائل الليبية المجاورة لهم إلا قليلاً .. ولكننا الآن في القطار نجد عرب وادي النيل يختلفون في لهجتهم العربية ... ولا يختلفون عن العرب الآخرين في شهامتهم وكرمهم وخلقهم السمح . ولكنهم يتميزون باللطف، والمجاملة البالغة ، ولباقة التعبير ... تهافتوا علينا يتساءلون .. وأكرمونا بما يقدرون .. وسروا بنا أيما سرور . وتبين لنا من اريحيتهم نبل عظيم، ذكرنا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل الكنانة خيراً . وسرعان ما اختلطنا كأننا أسرة اجتمعت بعد غياب .. تحدثنا عن كل شيء تحت ضوء مصابيح القطار المرتعشة، لأنهم يريدون ان يعرفوا كل شيء عن بلادنا . ويحاولون ان يشعرونا بأننا لم نفارق أهلنا وبلدنا ، وقد نجحوا ..

يا له من شعب فدته حياتي ..

●

كانت الدنيا حوالينا مزدهرة بالزراعة والمصانع ، ومررنا بالقرى والمدن ووقف القطار في محطات صاخبة بالجموع الريفيـــة التي تستعد للسفر في ربوع

النيل الزاهر. حتى وقف اخيراً في محطة باب الحديد. هنا القاهرة المصونة، قلب العروبة النابض ونراها لأول مرة ولأول مرة في حياتي أرى عاصمة كبيرة ..

الحق إنني شعرت بالفخر ... والزهو . شعرت بالفخر أن يكون في مدن العرب مدينة مثل هذه زاخرة بالحركة والنشاط، تموج بالبشر ووسائل المواصلات. بهرتني الأنوار الملونة التي لا عهد لي بها ، تسطع وتلمع باعلانات تخطف الأبصار ، وقفت مدة مشدوهاً قبل ان اتقدم من رتل السيارات التي ستحملنا الى معسكرات الهايكستب في ضواحي القاهرة . ومرت بنا خلال مدينة طويلة عريضة تميد بالخلق والسيارات والترمايات . ولم نفرغ من اجتيازها إلا بعد حين ، وهي متشابهة في الحركة والعمران والنشاط .. حياها الله من مدينة وزادها عزاً وبهاء .. والتقينا في المعسكرات بالفدائيين المصريين .. يستعدون لتطهير الأرض التي طهرها أجدادهم من قبل بقيادة صلاح الدين الايوبي فسروا بنا واستبشرنا بهم .

●

لم نكن نحسب أننا سنقيم في القاهرة إلا هذه الليلة ، ولكننا أقمنا اليوم التالي فاغتنمناها فرصة لزيارة المدينة العظيمة ...

وبعد ثلاثة أيام .

تولى تدريبنا ضباط آخرون، وكان تدريبنا من قبل جيداً . ولكن المصريين ذوو حيطة وحذر ..

ومضت أيام أخرى حتى ثارت ثائرتنا ولم نستطع صبراً مع الأنباء السيئة عن المعركة في فلسطين .

المعارك تدور عنيفة هنالك ونحن نيام ها هنا !

ونفد الصبر مع سقوط مدينة طبريا في يد اليهود اليوم .

وبعد مداولات تقرر سفرنا بعد يومين .. وفي مساء ٤٨/٤/٢١ زارنا وفد من

الجامعة العربية ومن بينهم الزعيم المغربي عبد الكريم الخطابي الذي تحدث إلينا في خطاب تشجيعي بليغ .

## ٢

واحتفل بنا إخواننا المتطوعون المصريون في ليلة السفر تلك احتفالاً بهيجاً ، وقضينا ليلة جميعنا فيها مغتبط .. ثم غدونا مع فجر يوم ١٩٤٨/٤/٢٢ نستقبل نوره ونسماته الندية ، وقد أشرقت وجوه الشباب بروح النضال ومشاعر المجد ، وهم يتدفقون قوة في صفوف منظمة كأنها سطرت بيد القدر. كل منهم قد حزم أمتعته على كاهله ، رابضاً في موقفه يتحفز ، وهو يقبض بيد شديدة على عدة الموت الزؤام .

وأذن الآذن ببدء المسير إلى حيث تقف السيارات ، واندفع سيل الجموع يشق سبيله قوياً رتيباً منظماً . وما هي إلا دقائق حتى كانت السيارات تحمل شباباً صلداً . فلذة من كبد ليبيا ، فداء للوطن العربي ولمجد التاريخ ..

وسارت القافلة وسط آفاق خضر من الريف المصري الجميل ، تصبح القرى المنتعشة بحياة يوم جديد . وظلت الدنيا الخضراء من ذلك الريف الجميل تتطاير من حولنا على جنبات الطريق ..

●

واجتزنا قناة السويس قبيل العصر ، وهنالك وقفنا على شاطىء الصحراء الممتدة إلى أرض فلسطين .

وهنالك لاحقتنا صحف القاهرة بالنبأ السيىء .

وأي نبأ أسوأ من سقوط مدينة حيفا من كبريات مدن فلسطين .. ولكن

كيف تسقط مدينة ويطرد منها ١٠٠ الف عربي تحت سمع الحكم الانجليزي وبصره ، وهو المسئول ... أو تراه متواطئاً مع الصهاينة ؟

وصفت الجرائد سقوط المدينة وأوضحت مدى الغدر الانجليزي الذي كان قد أعلن بأنه سيحتفظ بقوات له في حيفا إلى ما بعد انتدابه على فلسطين بثلاثة أشهر . ثم يتبين أنه كان يغدر بالعرب، وها هو ينسحب فجأة يوم ٢١ — ٤ قبل انتهاء الانتداب بخمسة وعشرين يوماً ، ويسلم مواقعه واستحكاماته إلى اليهود ليسيطروا على المدينة .

وكأنه ليس مسئولاً عن غدره هذا ، وليس مسئولاً عن تذبيح الفلسطينيين وتشريدهم .

وليس مسئولاً عن حمايتهم كما يتولى حماية اليهود في كل مكان .

وكان للخبر أثر كبير في نفوسنا يشعل نار الحقد على الانجليز وعدائهم للعرب . .

## ٣

ثم سارت القافلة تطوي الطريق طياً نحو فلسطين ، وقلوبنا تكاد تقفز لتسبق السيارات .

قطعنا صحراء لا شيء فيها ، وكان الليل مخيماً على الكون حين بدت لنا أضواء مدينة العريش الشهيرة . وإذا هي مدينة عامرة مزدهرة بأهلها ومبانيها ومتاجرها .

وأهلها يرتدون الكوفية مثل أهل فلسطين ، ويلهجون بالقول لهجة أقرب ما تكون إلى لهجة الفلسطينيين . وأغلب البيوت الشعبية بنيت من طوب صنع من طين نيء مخلوط بالتبن يصب في قوالب . .

وهي مدينة جميلة في واحة ذات نخيل ، وآبار عذبة قليلة العمق ، وسط

بحر من الرمال البيضاء . ولما توقفت قافلتنا ، أقبل علينا أهل المدينة فرحين مرحبين ..

●

ولم يبق بيننا وبين فلسطين إلا شقة قصيرة .

ونمنا تلك الليلة في معسكر على شاطىء البحر ، وسط غابات من النخيل حيث تصطدم أمواج البحر بجذوع النخل .

ولما أصبحنا في معسكر العريش من غد قيل لنا في طابور الصباح إننا سنكون منذ اليوم تابعين لقيادة البكباشي أحمد عبد العزيز ، وأننا سنقيم في هذا المعسكر بضعة أيام لاستكمال تسليحنا. وكان معظمنا لا يحمل الا القنابل اليدوية التي جلبناها معنا من الصحراء الليبية من مخلفات الحرب العالمية الثانية .

وهنالك وجدنا كتيبة من الفدائيين المصريين التابعين لقيادة السيد احمد عبد العزيز مقيمين بالعريش منذ أيام ينتظرون الإذن باقتحام المعارك الدامية الجارية في فلسطين ..

بعض هؤلاء المصريين من الاخوان المسلمين .

ورغم أن معظمهم ليسوا من الإخوان المسلمين فقد أطلق عليهم الناس اسم الإخوان لأن قائدهم الأعلى وكبار الضباط ينتمون للاخوان المسلمين .

وأخيراً أطلق علينا نحن ايضاً اسم الاخوان المسلمين هنا في العريش ثم بعد ذلك في غزة والخليل .. رغم أننا لم نكن نعرف الإخوان المسلمين إلا في هذه الأيام ..

والحق إننا أعجبنا بسماحة أخلاقهم وصدق تقواهم وبشر نفوسهم ، لولا أنهم أساءوا فهمنا وتقدير وجهة نظرنا ، حين رغبوا ان يدمجونا في الكتيبة المصرية وطلبوا من كل جماعة منا أن تنخرط تحت قيادة ضابط مصري . ورفضنا نحن إلى حد التمرد مما أسدل حجاباً بيننا وبينهم ، وبيننا وبين أحمد عبد العزيز نفسه

الذي ظللنا نكن له التقدير لشجاعته وإخلاصه .

●

وحين رفضنا كانت لنا رغبة جامحة في تمثيل بلادنا والاحتفاظ بمظهر جيش ليبي يشارك الجيوش العربية في معركة التحرير ..

واخيراً استجابت القيادة لرغباتنا وقدرت مشاعرنا . والفضل يعود للسيد البنباشي الورداني محمد زكريا الذي توطدت بيننا وبينه عرى التفاهم ..

وشهد بنفسه ذلك اليوم مدى ما يتمتع به الليبيون من تضحية ورجولة ..

احتفظنا بوحدتنا، وإن كان كثير منا قد فضّل الانضمام الى الكتيبة المصرية لأنها مسلحة تسليحاً جيداً دونه السلاح الذي سيعطي لنا . وانضم إليهم فعلا جزء كبير منا ، وانخرطوا في التشكيلات المصرية مدة اقامتنا بالعريش .. فهم يرون إنما جاءوا لإعلاء كلمة الله فحسب ، ويقاتلون تحت أية راية : مصرية أو غير مصرية .. ونحن نرى أننا جئنا للقتال في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله ، ولكننا نريد ان تكون لنا راية بين رايات العرب ، وأن يكون منا ضباطنا ، ونقود أنفسنا بأنفسنا ..

●

ومرة ثالثة عدنا للتدرب على استعمال السلاح للتأكد من حذقنا .. أو لأننا أصبحنا حقاً وجهاً لوجه أمام استعماله ، أو بالأحرى لحرص قائدنا الجديد وحذره ..

وله العذر لأنه لم يخض حرباً قبل هذه ابداً .

ولما أقبل المساء وغربت الشمس بين النخيل كان مشهدها يذكرني ببلادي حيث تغرب بين باسق النخيل ومآذن المساجد وغابات الزيتون والبرتقال ..

# ٤

في ضحى ٢٩ — ٤ — ٤٨ توقف القطار القادم من فلسطين بجانب خيامنا ، وكانت عربات البضاعة مشحونة بالبشر بعضهم فوق بعض مثل العربات الأخرى: أطفال وأمتعة ، ورجال جلوس على حواف عربات البضاعة أو متعلقين بجنباتها ، ونساء منثورات بين الزكائب المليئة بالأمتعة والأدوات . وكان وقوف القطار نعمة لأولئك المعلقين بأيديهم والواقفين على جنوبهم . نزلوا ليتمددوا على الأرض حيناً ، قبل ان ينتشروا يلتمسون أي طعام لبنيهم ..

وطبعاً ليس كل هؤلاء الآلاف من الاطفال يصحبهم آباؤهم ، إذ منهم من قتل أبوه ، ومنهم من فرّت به أمه من وجه الصهاينة وهي لا تعلم بمصير زوجها ولا يعلم هو بمصيرها . وعلى هذه الزوجة المسكينة وعلى الارملة الحزينة أن تبحث لابنائها عن الطعام .

كان منظراً يفتت الأكباد ..

ألا قاتل الله الانجليز وجازاهم شر فعالهم مثل ما كانوا السبب في المآسي التي كنا نرى . كثير من إخواننا تواروا لا يريدون ان يشهدوا المخدرات المصونات يضطررن لمد أيديهن يسألن الإحسان . ومنهن من تمد يدها لأول مرة في حياتها خجلة ، حيرى ، دامعة العين ..

هؤلاء الذين يصفر لهم القطار ليعودوا الى أماكنهم منه ، هم ضحية الغدر الانجليزي الصهيوني في مدينة يافا العربية المجاورة لتل أبيب ، أخرجهم الصهاينة من مدينتهم بمساعدة الغدر الانجليزي الذي لا يزال مسئولاً عن الأمن والحياد ، وها هو قد غدر بهؤلاء المساكين قبل عشرين يوماً من انتهاء حكمه الذي ينتهي في ١٥ — ٥ — ١٩٤٨ . غدر بنحو ثمانين ألف عربي في يافا وكان قد غدر من قبل بمئة ألف في حيفا وبين الغدرين ثلاثة أيام فقط ..

اجتمعنا جماعات حول الرجال الفارين يروون لنا ما شاهدوا من فظائع الغدر الانجليزي والمتوحشين الصهاينة ، وكل يروي فظائع تقشعر لها الأبدان ..

ثم مضى القطار متئداً، مترفقاً بأولئك الجالسين على سطوح العربات والمتعلقين بالحواشي والنوافذ ، وعاد الجنود يروون الفظائع ويطالبون قيـــادتهم بالسفر حالاً للانتقام للأعراض التي تنتهك على مرمى حجر من أنوفهم ...

وتقرر سفرنا من العريش يوم ٤ مايو الداخل .

## ٥

ولما كانت شمس يوم ٤ مايو ١٩٤٨ تختفي وراء النخيل على شاطىء البحر كنا نحن نغادر العريش إلى فلسطين، تاركين إخواننا الليبيين مع كتيبتهم المصرية التي انضموا اليها ..

ومضت بنا السيارات في أرض خلاء حتى اقتربت من الحدود الفاصلة بين مصر وفلسطين. وعلى بعد بضعة عشر كيلا توقفت، وحمل كل منا امتعته على كاهله ومضينا نسير على أقدامنا نقطع الطريق الى مدينة رفح التي تقسمها الحدود إلى بلدتين .

وعادت السيارات أدراجها من حيث أتت .

وكان الانجليز لا يزالون يحكمون فلسطين وسيدوم حكمهم إلى الخامس عشر من هذا الشهر ، والجيش الانجليزي لا يزال يرابط على حدود فلسطين . وعلينا نحن ان نتسلل الى داخل فلسطين تسلّلا ..

وسارت الكتيبة في طوابير تشق الظلام بعد منتصف الليل ، ولا تسمع إلا حفيف الأقدام على كُثبان الرمل في وقع موسيقي منتظم .

وإذا التفت تلاحظ هذا الركب الميمون لرأيت صفين طويلين من الشباب لا أول لهما ولا آخر ، يسيران في قوة واعتداد نحو الميدان ..

وها أنا أسير في محاذاة رفيق لي ، نضرب في كثبان رمل هشة تغوص فيها الأقدام ، وكلانا يشعر بالغبطة إذ تحققت الأمنية أخيراً ، وبدأنا نخوض ميداناً طالما ترقبناه .

وحاولت ان أحادثه ، وحاول ان يحادثني، ولكن النظام العسكري الصارم يجب احترامه ..

والآن يجب التأكيد على احترامه بصفة أخص .

وبعد ساعات من السير الحثيث ، بدت للنظر أنوار الكهرباء ممتدة امتداد الأفق على بعد بضعة أكيال. لعلها مدينة رفح .؟ لا ، بل هي أنوار المعسكرات الانجليزية الواقعة على الحدود .

وبعد حين عادت الطلائع تنبىء عن أحوال المعسكرات .. وأن الطريق خال .. وعلينا ألا نثير انتباه الانجليز وأن نكون على استعداد دائم للمعركة ، لاحتمال ان يتعرضوا لنا ..

●

جلس الرفاق على الرمل ينتظرون الإذن فيما يفعلون. وذهبت فرقة للمفرقعات لتكتشف ان كانت هنالك ألغام مبثوثة على أطراف المعسكرات ، ولتفتح لنا نوافذ في اسلاكها قد نحتاج اليها إذا ما اصطدم السلاح بالسلاح ..

وكانت ليلة هادئة جميلة ، والجو معطر بطل ندى منعش ..

وبعد حين عدنا سيرنا في صف طويل نخوض تلال الرمال ، بعضنا هابط وآخر صاعد ، وقد بدت أشباح الرجال على ضوء النجوم الخافت وكأنهم جيش من الجن مشدودي القامة رافعي الرؤوس يحزمون زكائبهم على أكتافهم ، وفوق الاكتاف تبدو اشباح البنادق والرشاشات منصوبة .

واختفت معاقل الانجليز خلف الركب الزاحف ، ثم بدت بوادر الفجر ولا يزال الرجال يخوضون كثبان الرمال حتى أتوا مسرباً مطروقاً ، وقبيل

الفجر كان شباب مدينة خان يونس يستقبلوننا على بعد بضعة أكيال منها ، يرحبون فرحين..

وفي مدرسة كبيرة حططنا رحالنا .

هذه هي فلسطين ..

●

# هَذه هي فلسطين

# ١

هذه هي فلسطين ..

فلسطين التي كانت طيلة التاريخ لواء من ألوية الشام، وجزءاً من سوريا، وحتى في التاريخ القديم كانت تسمى أرض كنعان ، وهم من أصل عربي أقاموا فيها حضارة دامت ألفي سنة قبل هجرة أول جماعة من اليهود العبرانيين الذين جاؤوها جماعات مهاجرين وأقاموا في بعض اجزائها مدة ألف سنة ، من سنة ١٤٠٠ قبل الميلاد ، ولم يقيموا على هذه الارض دويلات لهم إلا مدة أقل من اربعة قرون وفي اجزاء صغيرة من فلسطين ، هي القدس وما حولها ، لأن شاطىء فلسطين كان يسكنه قوم آخرون مهاجرون اسمهم الفلسطينيون الذين أطلقوا عليها اسمهم ، وجنوبها كان دائماً تحت سيطرة الأعراب. وفيما عدا هذه الأربعة القرون كانوا أقلية بين سكان فلسطين في رقعة صغيرة ، مع ان طول فلسطين كلها يقل عن ٢٧٠ كيلاً وعرضها ، في اعرض بقعة منها ، يقل عن ١٢٠ كيلاً . وفيما عـــدا ذلك ظلوا هجاً في فلسطين ..

●

مع العلم ان اليهود كانوا في ذلك الحين يستوطنون مصر والعـراق واليونان وروما وفـارس ، كما هم اليوم ، وربما يكونون نسبة أكبر من نسبتهم اليوم في البلدان المذكورة .

وأما الذين استوطنوا منهم فلسطين في فترة ما قبل المسيح فقد ظلوا هنالك الى سنة ٧٠ ق.م. ، حين احتل تيتوس مدينة القدس وذبح معظم اليهود وأسر بقيتهم ، وبعد ذلك بمئتين وخمس سنوات أي في سنة ١٣٥ م. قام اليهود بثورة كانت سبباً في القضاء عليهم وانقراضهم من فلسطين نهائياً .

## ٢

ومنذ ذلك الحين ظلت فلسطين أرضاً رومانية تعيش فيها أجناس ، جلهم من العرب ، إلى ان عادت الى حكم العرب ١٣ قرناً أخرى منذ ٦٣٦ ميلادية . وهي أرض عربية سيطر عليها العرب ثلاثة وثلاثين قرناً . وحتى في خلال السبعة عشر قرناً التي لم يكن للعرب سلطان عليها جميعها كان معظم سكانها من العرب .

ولم يقم فيها العبرانيون أكثر من خمسة عشر قرناً ، وأكثر هذه القرون كانوا يعيشون فيها أقلية في شكل جماعات غريبة مهاجرة ..

وكلمة عبري مشتقة من كلمة ( خبيرو ) وهي في اللغة البابلية معناها لص بدوي مرتزق . هذا الاسم أطلقه الكنعانيون المتحضرون على الأجلاف الهمجيين الذين هاجروا إلى أرض كنعان وهم اليهود .. لأنهم كانوا بدواً أجلافاً لم يتحضروا ، ولم يألفوا حياة المدن . حتى في عهد سليمان كانوا يسكنون الخيام بينما الكنعانيون والفلسطينيون قد أقاموا لأنفسهم حضارات وثقافات ومدناً .

## ٣

وفي سنة ١٩١٧ حين كانت فلسطين ولاية عثمانية أعطى الانجليز وعداً

لليهود الصهاينة بإقامة وطن لهم فيها ، وهي حينذاك تحت حكم دولة أخرى وليس بها من اليهود سوى ٧ ٪ من مجموع السكان .

والدافع للانجليز في هذا الوعد هي العصبية الدينية .

أولاً : لأن المذهب البروتستانتي المسيحي يتمسك بما جاء في التوراة الحالي الذي يرى أن فلسطين لا شعب لها ، وأن اليهود شعب لا بلاد لهم ، ومن ذلك جاء القول : اعطوا البلاد التي لا شعب لها الى الشعب الذي لا بلاد له . فهي في اعتقادهم خالية لا يسكنها أحد...

وثانياً : لأن عصر الوحشية البريطانية لا يساير المنطق الانساني بقدر ما هو خاضع للمنفعة التي تخص بعض البريطانيين . ومن سوء الحظ أن الانجليز استولوا على فلسطين بعد ذلك بمساعـــدة العرب أنفسهم . وكانت تلك بداية المأساة . إذ فتح باب فلسطين لكل من يريد الهجرة إليها من اليهود ولا يلقى إلا التشجيع من السلطات الانجليزية . ولم يكن عدد اليهود يزيد على ٧ ٪ بالنسبة للعرب ،أي كنسبتهم في أي بلد عربي آخر : ليبيا مثلاً أو العراق أو تونس.ورغم محاولات الانجليز لم ترتفع هذه النسبة الى الحد الذي يريدونه ...

وتوزع الصهاينة في شكل قرى زراعية صغيرة متناثرة سميت بالمستعمرات ، وزعت فيما بين المدن والقرى العربية في طول البلاد وعرضهـا بنية ان يستوطنوا فلسطين كلها حتى يصبح العرب أقلية ..

ولما لم يقبل عليها العدد المرغوب ظلت المستعمرات صغيرة مركزة معـــدة كمركز حربي أو كثكنة في خطوط حربية .

●

ولما لم يكن في فلسطين من اليهود ما يكفي لإقامة دولة فيهـــا ، لجأت بريطانيا إلى محاولة تقسيمها : قسم عربي يخضع للنفوذ البريطاني كسائر الدول العربية والباقي لدولة الصهاينـــة . وأخيراً برزت الولايات الأمريكية بقيادة

رئيسها ترومـان ، برزت إلى مناصرة خلق دولة الصهاينة ، وهكذا أصبحت دولتان من أكبر دول عصرهما تتآمران على العرب ..

ولما هب الفلسطينيون للقتال ليحولوا دون تقسيم وطنهم نقلت بريطانيا قضية فلسطين التي أصبحت شائكة – نقلتها الى الأمم المتحدة وتآمرت مع الولايات الامريكية على تقسيمها وحمل الدول الأخرى غـير العربية على تأييد مشروع التقسيم ؛ وفعلاً أيدته الأمم المتحـدة في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ . ومن يومها ثار العرب في كل مكان وجاءوا يعارضون إرادة الدولتين الكبيرتين بقوة السلاح. وها أنا أحد أولئك العرب الذين جاءوا من كل مكان يحملون السلاح ، وها أنا في خان يونس انتظر ... انتظر سيارات أخرى تحملـني الى مستعمرات اليهود لأطهر الأرض منها ..

لأطهر أرضنا من الرجس الذي خلفة الحكم الانجليزي ..

## ٤

ها نحن في ساحات هذه المدرسة ننتظر ..

وربما اتكأ بعضنا على جنبه ، أو أخـذه نعاس ، ونفسه تفيض بمشاعر من بطولة بهية كنور الفجر ، يظهر علينا لأول مرة في الوطن المقدس .

وحينما انتبهت من وَسَنٍ خفيف تحت عمود كرة السلة هذا .. كنت كأنني قد بعثت من ألف سنة عشتها مع آبائي وأحبائي وأجدادي في طفولتهم وشبابهم نستقبل هذه الشمس في وطننا هذا مرحين مع الحياة ..

لو كنتَ مكاني لكنت تشعر بما أشعر أنا الآن إزاء هـذا الدور التاريخي الذي نعيشه .

سألت : ألم تأت السيارات بعد ؟

ها هي هنالك أمام المدرسة تنتظر .. تنتظر الأوامر .. ان تتجه بنا الى أية معركة ..

وفي الضحى ركبنا السيارات وأعددنا السلاح ونحن لا ندري أين نتجه، ولا نعرف من فلسطين إلا خريطتها .

أما كيف هي على الطبيعة .. ؟ وكيف ستكون معركتنا هذه الأولى ؟

لسنا ندري إلا أن نعد سلاحنا لقتال مرتقب ، أو كمين محتمل . وسوف نمر قريباً من المستعمرات الصهيونية ، وقد يترصدون لنا .

●

ودعنا أهلنا في خان يونس ولوّح لنا الصبايا والأطفال بأيديهم ، وسارت القافلة سيارة إثر أخرى .

وأمر قائدنا أن تتجه القافلة إلى مدينة غزة .

نسيت أن نتحدث عن قائدنا هذا واسمه محمد سرور رستم ، وهو شيخ من السودان برتبة يوزباشي قد عالج الحروب في شبابه ، متقاعد منذ سنوات لكبر سنه .

ولما ذرت فتنة فلسطين بقرنها تطوع للقتال .

وانتدبه الجامعة العربية لقيادة الكتيبة الأولى من الليبيين ، لما بين الليبيين والسودانيين من انسجام وتشابه ، وهو الذي يركب تلك السيارة الصغيرة التي تتقدم الرتل الى غزة ...

ومررنا بأرض ذات أشجار وبيارات جميلة ، والبيارة تعني مزرعة ذات بئر جوفي يروي اشجارها وزراعتها .

وكلما مررنا ببيارة خرج إلينا الشباب والاطفال والرجال، بيض وجوههم، نظيفة ملابسهم تبدو عليهم آثار النعمة والشهامة العربية.. يلوحون لنا بالتحية والترحيب .

وها نحن في طريقنا الى غزة .

وفي طريقنا الى غزة مررنا بدير البلح ، وهنالك على جانب الطريـــق مررنا بمستعمرة صهيونية قريبة تسمى ( كفار داروم ) ، ثم قريباً منها مررنا بمعسكر أطلقنا عليـــه معسكر النصيرات وسنعود لنتحدث عن مستعمرة ( كفار داروم ) والمعسكر الذي يقع على يسارنا الآن ونحن نسير الى غزة .

وقد سمعنا بأن هنالك وحدة من الجيش الأردني تعسكر في مدخل غزة منذ عهد بعيد ، ممـــا جعل بعضنا يعجب كيف سمحت لها بريطانيا بالإقامة ها هنا .

ومما هو جدير بالملاحظة ان الحكومة المصرية لا تنوي ان تشترك بجيشها في حرب فلسطين كسائر الدول العربية الأخرى . ولعل الجيش الأردني ينوي أن يدافع عن المناطق التي لن يدخلها أحد الجيوش العربية الرسمية .

## ٥

وهنالك في أحد جوانب غزة ، وفي طريق فسيح جميل تحفه الشجيرات على جانبيه ، هنالك وقفت القافلة ونزل الجند للراحة والطعام .

وقفت القافلة إلى جانب صف أشجار غرست حديثاً ، وهي في علو السيارات في هذا الطريق الفسيح البهي ..

وكنت في حالة نفسية طيبة ، أقول لنفسي : هذه غزة التي كنت أسمع عنها . ما أجلها من لحظات تثير في النفس الذكريات .. أولئك نفر من إخواننا يصلون جماعة جاءوا من ليبيا ليصلوا هاهنا ، تلك أرضهم وهذه أرضهم ؛ هـل ترى عمرو بن العاص أيضاً كان ذات يوم يؤم جند المؤمنين في هذا الثغر الطيب ؟ يركع فيركعون جميعاً ويخر على وجهه ساجـداً فيخرون من ورائه سجوداً؟ تعظيماً لربهم ، وإجلالاً لفضل الخالق العظيم ؟

وهل ترى جند المسلمين كان يخيم ها هنا على أول عهدهم بثغر جنوب فلسطين؟ وتمد الطرف فلا يقع الا على خيام أولئك الذين جاءوا يحملون الهدى والنور .؟ كأني بهم يعسكرون هاهنا وقلوبهم تفيض بالحق والإيمان . يضحون في سبيله بأنفسهم بكل شجاعة وإقدام ..

هل تراهم كانوا يشعرون بأن سيأتي يوم يجيء فيه أبناؤهم ويعيدون الكرة من الغرب إلى الشرق عوداً على بدئهم . ؟

لا بد أنهم كانوا يشعرون بشيء خفي وجميل ، لا يدركون كنهه ، وهو هو الذي يعتمل في نفوسهم بأحداث التاريخ وتقدير الله في الأزل .

ألا تراانا الآن الى جانب سياراتنا هذه ونفوسنا تتحرك بهذه المشاعر الأزلية ، وكأن هذه المشاعر من تلك ؟

●

وإلى جانب هذه البقاع نفسها مر كليم الله موسى – وقد يكون منطوياً على المشاعر ذاتها – ومن ورائه بنو اسرائيل يبحث لهم عن وطن..

وفي هذه الأرض نفسها قالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون .

وظلوا يتيهون في الأرض كالسوائم ، وكما كانوا طوال تاريخهم .. وماذا يفعلون بالوطن .؟

## ٦

وفي غزة شباب عربي كريم الأصل قوي الإيمان ، تنبض قلوبهم بحساسية خاصة نحو العروبة والإسلام . هذه المدينة الصغيرة على شاطىء البحر المتوسط تحيط

بها المزارع التي تسمى البيارات ... هذه المدينة صورة حية تتجاوب مع الأحداث العربية من مغربها الى مشرقها .. كل حدث هناك له رد فعل هنا لدى الشيب والشباب ..

ونحن الآن نتجول في أكبر شارع فيها ويسمى شارع عمر المختار . ونتساءل من عمر المختار هذا ؟ لعله فلسطيني من أهل غزة أبلى بلاء طيباً في التاريخ، فسمي الشارع باسمه ، وتشابه باسم البطل الليبي...وسألنا ممن حولنا من الشباب عن عمر المختار هذا الذي سمي الشارع باسمه ؟ فقالوا إنه الشيخ الذي اعدمه الإيطاليون في ليبيا .. الرجل الذي أذاقهم الويل عشرين سنة . كانوا هنا في غزة يعيشون أياماً حزينة أيام إعدام عمر المختار ، واجتمع المجلس البلدي وقرر تخليد ذكراه في أبرز معالم غزة ، ولا يزال اسم عمر المختار في غزة ابرز الأسماء الى يومنا هذا .

وللشباب ها هنا صولة على مستعمرات اليهود المتناثرة حولهم هنا وهنالك ، ولكن ستشل أيديهم بعد أيام قليلة ، ويحرمون من الجهاد في سبيل بلادهم ، وتمنعهم الجيوش العربية حتى من حرية التنقل من قرية إلى أخرى . وفي قطاع غزة نحو خمس وعشرين مستعمرة منها مستعمرة ( كفار داروم )التي تحدثنا عنها ومنها ( الدنقور ) و (يدمردخاي)... وقد ألف المواطنون في غزة وحدات مقاتلة من أبنائهم وأموالهم اسموها ( الجهاد المقدس ) .

●

لما كنا نتجول في غزة صحبة شباب من الجهاد المقدس المستبشرين بقدومنا سألونا فيما اذا كنا سنقيم في قطاع غزة؟ وهل سنكون تابعين لقيادة رجل يسمى طارق الإفريقي ؟

وسألت بعضهم: من يكون طارق الافريقي هذا ؛ إني لم أسمع عنه من قبل؟ فقالوا لي بأنه قائد قطاع غزة كله .

قلت إذن هو قائد المنطقة المعين من قبل اللواء اسماعيل صفوت باشا ، قائد عام القوات العربية في فلسطين ..

وفوجئت إذ قيل لي لا ، بل هو معين من قبـــل الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين .

إن الذي كنت أعلمه ان الأمور العسكرية أمرها موكول الى القائد الأعلى إسماعيل صفوت ، المعين من قبل الجامعة العربية .. لا للشيخ المفتي ..

ولكنني علمت من إخواننا أنه لا ارتباط له بالقيادة العليا للجامعة العربية ، مثلنا نحن الذين نعتبر تابعين لقيادة الجيش المصري رغم أن هـــذا الجيش لم ينو الاشتراك في غزو فلسطين بعد ..

وعلمت أيضاً ان الشيخ المفتي عين آخرين في معظم انحاء فلسطين ، وجميعهم يرفضون تعليمات القائد الأعلى للقوات العربية .

وطارق الإفريقي هذا حاول أن يكوّن وحدات صغيرة من أهـــل القرى ليدافعوا عن قراهم .

مجهود مشكور ولكنه محدود جداً لانعدام السلاح ..

●

ووجدنا الليبيين الذين تدربوا في معسكر قطنا بسوريا قد جاءوا الى غزة مع آخرين بقيادة رجل يسمى عاهد السخن، وعدد الفصيلة كلها دون المائة رجل بما فيهم الليبيون .. ومعسكر قطنا كان تابعاً لقيادة اللواء اسماعيل صفوت باشا قائد القوات العربية ..

وهنالك أيضاً ليبيون غير هؤلاء بعثت بهم الهيئة العربية العليا الى غزة مع عرب من بلاد أخرى ، يقودهم رجل يدعى عبد الحق الغزاوي، وإن كان عددهم صغيراً .

لست أدري من أين جاء الليبيون ؟ ولا كيف ..؟ إنهم ينبتون في الحرب كما يُخرِج الزرع شَطْئَهَ . يساقطون على ميدان القتال كالفراش تجتذبه الأنوار . إنني لا أتصور مـدى العناء الذي قاساه هؤلاء في الوصول الى مصر ثم الى سوريا . عزائم جبارة ، وشعب عنيد ..

# عِراق سُویدان

# ١

غادرنا غزة ..

إلى أين ؟ لسنا ندري . ولا قائدنا يدري فيما نظن . ننزل حيث شئنا . وان كانت هنالك وصية ألا نتجـــاوز وادي أبي سويرج حيث رسم خط أحمر على الخريطة التي يحملها قائدنا .

وفي الطريق مررنا بمستعمرة يهودية كبيرة قائمة على قارعة الطريق بدير سنيد تسمى ( يدمر دخاي ) .

وتمنينا أن نتوقف هنالك لضرب هذه المستعمرة التي يحتمل أن تقطـــع المواصلات يوماً ما ، وتحول فيما بين غزة والمجدل والخليـــل ، ولكننا مضينا بجانبها ، واكتفينا أن نرمقها بنظرات عدائية .

ومررنا بقرى عربية جميلة في سيارات تتهادى بنا ، نطوي القرى الوارفة الظلال كما تمضي الحياة تطوي العصور والأجيال ، وكأننا نرى هذه القرى من وراء التاريخ ، ونفوسنا مليئة بالعبر ، ونحن نطويهـــا قرية فقرية والشمس تطوي أبراج السماء الصافية برجاً فبرجا . وما كادت الشمس تأتي إلى الغرب ، حتى أتينا قرية راقدة على جانب الطريق بين القرى العربية المتناثرة هنا وهنالك تسمى ( عراق سويدان ) .

●

هنا ألقت السيارات بحملها ، وأطفأت محركاتها ، وسكنت على قارعـــة الطريق .

وهب أهل القرية مروعـــين لخردة من سلاح في حوزتهم، وللفؤوس والهراوي يبتغون قتالنا . وسرعان ما يترك الرجـل منهم المسحاة في ضيعته ويهب إلى بندقيته المعلقة في أقرب شجرة منه . وعلا الصياح في المزارع والغيطان يدعون بعضهم بعضاً للقتال وقد كان الرجال من قبل يعدون عدة القتال لمثل هذه الساعة. كيف لا وهم أهل الشجاعة الذين يرجون أن يضربوا مثلاً للقرى الأخرى في قتال أعدائهم . من الصهاينة ! ...

وتحصن الرجال وراء طوابي كانوا قد أعدوها من قبل ، واستعدت بعض نسائهم لقتالنا أيضاً ، قتالنا نحن أبناء عمومتهم ، ولكن أنى لهم أن يدركوا ، فقد حسبوا أننا من أعدائهم جئنا لاحتلال قريتهم .

ونحن في غفلة ممـــا يصنعون وفي شغل بأنفسنا وبتفهم طبيعة وضعنا الجـديد .

ولما لم تبدر منا بادرة تدل على عداء ، أقبل بعضهم محتاراً يستطلع أمرنا ، فاذا نحن من بني عمومتهم ، جئنا من حيث تغرب الشمس إلى نجدة إخوتنا في الأرض المقدسة .

وعندئذ تنادوا بالبشرى وألا خطر ، فهؤلاء أبنـــاء اجدادهم العرب الذين غرّبوا في عير عمرو بن العاص ، ينشرون النور ، ويبتغون رضاء الله في هـداية عباده ...

●

وأقبل أهل ( عراق سويدان ) مهللين مرحبين ، يشدون على أيدينـــا بالمصافحة الحارة ، إخوة التقوا بعـد طول فراق ، جمعتهم بلية نسجتها دول ماكرة مدّ لها العصر بالقوة . وكنت أشد على أيدي المصافحين ، وأنا أتأمـل الناس والأرض وأشرف من نافذة الدهر البعيد على معشر من الشباب ، إخوة

وأبناء عمومة، بعضهم اختار الإقامة ها هنا إلى جوار عيسى وابراهيم ، وبعضهم غرّب في جيش عمرو بن العاص ولم يعودوا ...

وها هم بعض حفدتهم قد عادوا بعد اربعين جيلاً والتقوا ابناء الأجداد ... وبعد اربعين جيلا . يا للصهاينة من أشقياء ... هل يطمعون أن يقيموا دولة في أرض العرب تدوم على الدهر ؟ وهل ستتركهم الاجيال ! ... ستمحقهم في جيل أو جيلين أو أربعين جيلاً ...

ها هم أبناء العرب قد جاء بهم مغرب الشمس بعد أربعين جيلاً يرتدون البدلة العسكرية الخضراء ، ووضعوا على رؤسهم الحطة والعقال ... وحملوا عدة الموت للجرثومة الدخيلة .

هؤلاء اشقاؤهم ، أبناء هذه الأرض الطيبة ، يرحبون ويتأملون سمات أجدادهم في أحقاب التاريخ ...

●

وحفل بنا الأطفال وآباؤهم ، وانعقدت المجالس التي انفض سامرها منذ ثلاثة عشر قرناً ، ونحرت الذبائح واجتمعنافي ضيافة إخواننا على تلك الطريقة التي ألفناها في أريافنا ، وجلسنا حول القصاع جماعات جماعات ، وأفردوا لنا بعض منازلهم لنتخذ بعضها قيادة ومن بعضها الآخر سكناً. وأقمنا ثكنات لنا حول القرية ، وثكنات حول مركز الحكومة القريب وهو لا يزال بيد حكومة الانتداب نرجو ان نحتله حالما يغادرونه .

وفي اليوم الثاني أقمنا في ضيافتهم كارهين. وأنى لأهل قرية صغيرة بضيافة جيش ... ولكنهم أصروا إلا أن نكون ضيوفاً عليهم أياماً ثلاثة .. عرب أبناء عرب : شهامة وكرم .

●

لا تشعر في هذه القرية بأنك مغترب، الدار دارك والقوم قومك؛ ان كنت من تاجوراء فهذه قرية فيها تين شوكي على الطوابي يحيط بالبساتين ، وكروم ولوز وزيتون ، ومنازل متناثرة على دروب متعرجة ... قرية في ستر الله ورغد من العيش ، نائمة في دعة ، لولا ما يتهددها من اعداء حولها في مستعمرات صهيون تبطن المكر وتبيت للشر .. وفطن أهلها لما يبيت لهم فاستعدوا ببعض بنادق تشبه السلاح ، وطلبوا السلاح ببعض ما لهم وبكل أموالهم فلم يجدوه .

يتناوب الشباب حراسة عرينهم ليلاً ، متأهبين للنفير ولنجدة قرى العرب إن دهمها غائل .

●

رجال لو كان لهم سلاح ... وسوف تعلم أن فلسطين لم يكن لها قادة وكان لها شعب عظيم ، يطمع في الجامعة العربية أن تمده بالسلاح .

وأهل فلسطين لا يريدون من الجامعة غير السلاح الذي سبق أن قررت مدهم به؛ ولو وجدوه لما قامت إسرائيل على الرغم من إرادة بعض المتآمرين.. الجامعة رضيت أن تقبل المتطوعين للقتال ، وأن تمدهم بالعدة والعتاد ، في الوقت الذي تحرم فيه أصحاب الأرض من الدفاع عن أرضهم ، وعن أنفسهم ، وعن ابنائهم ، وأعراضهم . وهم أعرف بوطنهم ، وأدرى بعورات عدوهم .. وما منهم من رجل إلا وهو مستعد للتضحية والفداء كما وجدناهم ورأيناهم ..

رأينا العرب ها هنا في عراق سويدان ، وفي الكراتية المجاورة ، وفي القرى العربية الأخرى يهبون جميعاً بما بأيديهم من سلاح إذا سمعوا ان اليهود يهاجمون قرية عربية قاصية أو دانية ...

وسرعان ما يجتمع منهم جيش جرار يكبد اليهود أرواح شبابهم ، ثم

يعودون وفي أيديهم سلاح جديد من المعتدين اليهود ..

●

لم يكونوا منظمين ومدربين على الاستعمالات الحربية ومهاجمة أعدائهم في مستعمراتهم .. ولو كانوا كذلك لاستطاعوا أن يطردوا اليهود من المنطقة .. ولو كان بأيديهم سلاح، نصف سلاح احد الجيوش العربية، لما ضاع من الأرض العربية شبر واحد ..

وعجيب أمر السياسة الخرقاء أن تستدعي متطوعين من كل فج من ليبيا ويوغسلافيا واليمن ومصر وتمدهم بالمسيرة والسلاح .. وهؤلاء أهلها الأشاوس تنتهب ديارهم من بين أيديهم وهم يستغيثون قطعة من سلاح تأباه عليهم جامعة العروبة .

●

وقد وجدنا الفلسطينيين قوة هائلة تستطيع أن تتحكم في مصير فلسطين لو أوتيت قليلاً من التنظيم ، وشيئاً يسيراً من السلاح الذي يباع في كل بقعة من ديار أوروبا .

إننا وجدناهم يسيطرون على طرق قوافل اليهود . ويسيطرون على المناطق العربية . ومعظم فلسطين مناطق عربية . ووجدناهم قوة يعتمد عليها في نجدات القرى العربية حين تتعرض لليهود أو يتعرضون إليها . ولا يزالون الى يومنا هذا يعتمدون على أنفسهم في حماية قراهم والقرى المجاورة لهم . وأهل الجنوب منهم ، بصفة خاصة ، أشداء يرهب الصهاينة سطوتهم . وسوف نجد في الأيام القادمة أن الجيش الأردني يعتمد عليهم في حماية المناطق التي يعسكر فيها ، مثل القدس والخليل وغيرها . وهم في الواقع أعلم منا بطبيعة بلادهم ،

وأوعى لأساليب أعدائهم وطرق التغلب عليهم .

## ٢

إنني أذكر أننا كنا ذات يوم بُعيد الزوال ، والشمس في كبد السماء ترسل أشعة حارة على عراق سويدان ، حين صاح صائح من السويدانيين : هلموا إلى السلاح .. وانقض رجال القرية يهرولون ولم يبق منهم رجل .

وسألناهم ماذا حدث ؟

ذكروا لنا قرية عربية في الشمال ( نسيت اسمها ) قالوا ان اليهود يداهمونها الآن ، وكنا نود أن نشاركهم لولا أن بعدها يحول بيننا وبين معسكرنا والقيادة لا تسمح لنا بالذهاب . ومع ذلك ذهب كثير منا معهم ... قطعنا المسافة نجري تارة ونهرول أخرى ، وكان مئات من الرجال يهرولون مثلنا قادمين من كل قرية ، ومن كل صوب ، ولم نصل للقرية الموعودة الا بعد أن أخذ منا الجهد فبلغناها لاهثين .. ووجدنا هنالك أكثر من ألف رجل ممن قدموا من القرى المجاورة .

ولما رأى الصهاينة النجدات العربية تتوالى في شكل طوفان مخيف ، لفتوا مصفحاتهم وانطلقوا مسرعين ولم نلحق بهم ولكننا لاحقنافلولهم نودعها ببضعة طلقات ، ثم عاد كل إلى قريته يصخب ويلعن الانجليز والأميركان ..

هذه هي الطريقة التي كان يدافع بها أهل فلسطين عن بلادهم ، غير ان هؤلاء الآلاف من الرجال الذين هبوا لنجدة اخوانهم لم يكن بأيديهم غير بضع عشرات من البنادق وقليل من الذخيرة العزيزة النادرة ، وليست لهم رشاشات ولا مدافع ولا قنابل ولا سيارات حتى ولو كانت عادية وصفحت من الحديد المحلي ، كما فعل

اليهود . لست أدري . . . أين كانت الهيئة التي تشرف على تنظيم الفلسطينيين. . . وليتها فقط شجعت تجارة السلاح بين المواطنين . .

وكان في استطاعتها أن تفعل ذلك . وفي استطاعتها أن تنتدب لكل قرية من يدربها على الأساليب الحربية والدفاع عن النفس على الأقل . ولكن. . وينبغي أن تعلم أنه لولا دفاعهم هم أنفسهم عن القرى والمدن إلى جانب الجيوش العربية لما استطاع جيش أن يحتفظ بقرية عربية ، والجيوش التي استغنت عنهم سرعان ما سلمت المناطق العربية المنوطة بها إلى الصهاينة .

●

وفي الحقيقة ، ان الفلسطينيين بصفة عامة أمهر من الجيوش العربية وأحذق منهم في حرب العصابات التي تعودوها خلال تجارب طويلة في تاريخهم مع الانجليز ونضالهم لقواته الاستعمارية .

وقد كانت خطة الدول العربية الاعتماد على أبناء فلسطين انفسهم في تحرير أرضهم وهو ما تقرر في اجتماع الجامعة العربية في عاليه بلبنان . ولكن سرعان ما تغيرت هذه الخطة لانها لم تحز رضا الجميع .

ولما شرعت الدول العربية تدرب الفلسطينيين في معسكر قطنا بأراضي سورية احتج الانجليز بأن هذا العمل غير ودي .

وأنّى للحكومات العربية المستضعفة أن تحادّ الإرادة البريطانية في هذا الحين الذي استفحل فيه الوحش البريطاني ، واستنعج فيه العرب . .

●

# ٣

في عراق سويدان أقمنا بضعة أيام نتحرق لخوض المعارك ، وكنا نحسب أننا سنخوضها متتالية من مستعمرة إلى أخرى . ولما أصبحنا في عراق سويدان ، منذ أول يوم ، علمنا أن قافلة للصهاينة تمر من الصحراء جنوب عراق سويدان ، فأسرعنا إليها من تلقاء أنفسنا نحمل سلاحنا، ولما أدركناها كانت قد تجاوزت المنطقة وتبادلنا معها إطلاق النار على بعد شاسع ولم تعد منذ ذلك اليوم تمر قريباً منا .

●

وقد قال لنا المواطنون : إذا قدر لكم أن تلحقوا بالقافلة ، وأحس اليهود بحرج الموقف ، سرعان ما يهب الجنود الانجليز لنجدتهم ومؤازرتهم والفتك بكم إذا وجدوا منكم تهاوناً في مقاومتهم. ونحن قد علمنا هذا من قبل من تاريخ الانجليز خلال الخمسة الأشهر الماضية ، في عشرات من الأحداث ، وكنا مستعدين لقتالهم أكثر من استعدادنا لقتال اليهود . لذلك ظلت سرية منا تترصد للحامية الانجليزية في مركز الشرطة المجاور لنا لنمنعهم من الحركة ..

●

وبعد عودتنا من هذه المحاولة طلبنا من قائدنا أن نهاجم مستعمرة ( نقبا ) المجاورة ، ولكنه أبى إلا أن تأذن له القيادة العليا في مباشرة القتال . وهي لم تأذن له بعد . وقلنا لعلها تريد مهلة يوم أو يومين حتى تدرك الموقف ، ولم

نكن نحسب في بداية الأمر ان قيادتنا ستخضع لآخرين بعيدين عن ميدان القتـــال يقيدون أيدينا ؛ يأمروننا بالتوغل في المناطق العربية ليجسوا بنا النبض : نبض الإدارة البريطانية .. ثم يغلون أيدينا فيما عـــدا ذلك .. ونحن ما جئنا إلا لنبسطها ونوغـــل في مستعمرات اليهود ، نخوض كل يوم معركة ، ونقتحم كل ليلة مستعمرة . ولكن وبعد يومين ، هذه الأوامر تأتينا بألا نخوض معركة إلا للدفاع عن أنفسنا .

الدفاع عن أنفسنا ؟ هراء ! وأي هراء .. ومن ذا الذي سيهاجمنا واليهود في رعب شديد ؟. ومضت ليلتان ونحن نحرس هذا المبنى الحكومي ( مركز البوليس ) ولا شيء غير هذا... إنه مبنى من طابقين على قارعة الطريق ، قريباً من عراق سويدان ومن مستعمرة نقبا ، نطوقه ليلاً من كل جوانبه خوف أن يخرج منه الإنجليز ويسلموه لليهود ولذلك نطوقه كل ليلة ونراقبه كل يوم لنسبق لاحتلاله حال خروج الانجليز منه ولنقاتل اليهود دونه .. وهذا هو واجبنا وكل عمـل لنا . يا للخسارة.. ولم لا نحتل المستعمرة نفسها والمستعمرات التي تليها ؟

## ٤

وقد فاوضنا الانجليز الذين يحتلون ذلك المركز بتسليمه لنا. ولكنهم رفضوا لأنهم يدعون أنهم محايدون وليسوا طرفاً في النزاع ، وأنهم فقط مضطرون للحفاظ على الوضع كما هو ، إلى أن يحـــين يوم ١٥ مايو . وسوف يخرجون منه دون أن يسلموه لأحد وهذا ما يقتضيه الحياد .

ولكننا حين سألناهم لماذا لم يحافظوا على الوضع في يافا وحيفا وطبرية وعكا وغيرها ؟ لماذا سلموها لليهود ، ولماذا تآمروا مع اليهود وساعدوهم على احتلالها وخدعوا العرب ومنعوهم من الدفاع عنها ؟ أجابوا بأن ذلك من السياسة

التي لا دخل لنـا نحن العسكريين فيها . وقطعنا الحديث يائسين من نتيجة هذه المداورات .

•

وهكذا أصبحنا على الرغم منا ، كما ترى ، في سجن عمـل روتيني خامل لا يشبع نفوساً مشبوبة متوثبة للقتال متعطشة للاعمال الفدائية والانتحار في سبيل أرض العروبة ...

ولكن فلنصبر ، لعل للقيادة رأياً مدروساً وستأتي الساعات التي نحظى فيها بالأعمال العظيمة بلا شك . وبعض المتحمسين في ثورة من أنفسهم ... وربمـا اجتمع بعضهم الى بعض وعزموا على طرح أوامر القيادة واقتحامهم مستعمرات الصهاينة من تلقاء أنفسهم .

ولم يقتنعوا بسهولة بأن عملهم هذا ربما يفسد خطة للقيادة مدروسة .

## ٥

لقد تسلل بعضهم داخل مستعمرة ( نقبا ) المجاورة يتعرفون على وضعهـا ويجسون أحوالها . وجاءوا منهـا بدجاج وبط وخرفان ، ولم تعلم القيادة بأمرهم . .

وقد وجدوا المستعمرة محصنة يصعب غزوها من الخارج ولكنها يمكن التسلل إليها ومهاجمة المدافعين عنها من الخلف من قلب المستعمرة نفسها ، وبهذه الطريقة يسهل القضاء عليها .

وتسللوا ليلة أخرى لمستعمرة أخرى نائية ..

وقد أزمعوا على القيام بعمل حربي في ليلتهم الثالثة .

ولكن القيادة علمت بأمرهم وهددتهم بالعقاب ان هم عادوا للتسلل داخل مستعمرات الصهاينة ... رغم أنهم قد كشفوا لنا كثيراً من الحقائق التي كنا نجهلها عن طبيعة هذه المستعمرات ..

وقد تحقق لدينا بأننا نستطيع أن نحتل كثيراً منها في بضعة ليال إذا أحكمت خطط جيدة . وأبدى الجنود رغبة في القيام بالاحتلال أو بأي عمل حربي . وكثيراً مـــا تذمروا من وقوفهم هكذا موقف المغارل . ولكن أوامر القيادة العليا تحذر من أي قتال عدا الدفاع عن النفس .

هكذا قال قائد الكتيبة ...

●

ولما لم نجد سبيلاً للقتال بأنفسنا ، واعدنا شباب عراق سويدان سراً أن نسلمهم سلاحاً وذخيرة لمهاجمة المستعمرات المجاورة وفق خطة لقصدالاحتلال ، وتولى جماعة منا تدريبهم مساء ذلك اليوم ، وسيتتابع التدريب أياماً...ولكننا في صباح اليوم التالي ، يوم ١١ مايو ، أُمرنا بالتقهقر الى ما وراء غزة .. الى دير البلح ، فكان ذلك صدمة لأولئك الشباب .

وأما نحن فلسنا ندري لماذا نعود .

فمن قائل : ان القيادة تنوي تطهير الأرض العربية من المستعمرات الصهيونية الكثيرة التي خلفناها أولاً بأول ، في الطريق إلى تل أبيب .

ومن قائل يقول : إننا ذاهبون لنجدة معارك كبيرة تدور رحاها الآن بين الفدائيين المصريين واليهود . وقد جاءنا نبأ معركة منها دارت حول مستعمرة كفار داروم التي مررنا بهـــا في دير البلح استشهد فيها كثير من الليبيين والمصريين .

# ٦

عدنا مسرعين نأمل أن نثأر لحرماتنا في حيفا ويافا ودير ياسين وكلنا قلق ..

وعندئذ ادركنا أن القيادة قد وضعت خطة مدروسة للحرب بكاملها . وحمدنا الله أنّ لم نتسرع ونعلن تمردنا عن قيادتنا الحكيمة ..

وغادرنا عراق سويدان صباح ١١ / ٥ / ٤٨ بمزيج من مشاعر الأسف لفراق رجال أحببناهم ومشاعر الابتهاج لما سنخوض من مغامرات بطولية . وودعنا أهل القرية محزونين ، ولم نجتز القرية حتى طفقنا نتطلع الى ما عسى أن تكون هنالك من معارك .

وعدنا أدراجنا من حيث أتينا .

●

ونحن في الطريق لحقت بنا طيارة قال بعضنا إنها انجليزية ، وقال آخرون بل هي مصرية ، وكانت هزيلة تئن من طول البلى ، فمرت بنا ثم عادت ، ولما انخفضت تحاول إلقاء قنبلتها أدركنا أنها صهيونية ، فوثبنا من السيارات وتفرقنا لئلا تصيبنا متجمعين . وكانت القنبلة عبارة عن علبة صفيح معبأة بالألغام وقطع الحديد ، وقعت قريباً منا ، فهي أشبه ما تكون بلعب الأطفال . ولما ألحقنا الطائرة برصاص مدافع البوبز لم تعد تجرب حظها . وضحكنا طويلاً بعد أن توارت إلى غير رجعة .

وكم كنا نتمنى أن تعود وتجرب حظنا معها أيضاً .

والذي نعجب له أن يستخدم اليهود سلاحاً جوياً وبحرياً وبرياً بعلم حكومة

الانتداب ، وبإذنها طبعاً ، في الوقت الذي كانوا يبطشون فيه بالعرب إذا علموا أن بأيديهم بقية من سلاح ، وفي الوقت الذي تحتج فيه على الدول العربية حين بدأت تدرب الفلسطينيين في سوريا .

وكلما تذكرت هـــذه الحادثة تجول في نفسي ذكريات من طبائع الخلق الملتوي للحكم البريطاني أينما حل .

وهذا الالتواء هو الذي عجل بنهايته في كل مكان .

## ٧

ظننا ، ونحن عائدون ، أننا كنا في مهمة وقد انتهت الآن ...

كانت القيادة تجس بنا نبض القوات البريطانية في فلسطين ، فقد جست بنا أول ما جست نبض القوات المعسكرة على حدود فلسطين مما يلي مصر ، وكنا أول من دخل فلسطين من الفدائيين بعدد كبير مثل هذا .

وكانت القيادة تخشى ان يفطن الانجليز لتسللنا إلى فلسطين ، وتحسب لهذه المغامرة ألف حساب ..

ولا يقوم بها الا الفدائيون . ويبدو أن الحكومـــة المصرية تدرس مسألة اشتراك جيشها في غزو فلسطين .

ولا يجوز ان تقامر بالجيش وهيبته في مغامرة لا تعرف نتيجتها ..

والمصريون ذوو فطنة وحيطة ، ويعلمون نوايا الانجليز ورغبتهم في تحطـيم الجيش المصري ، منذ الحرب العالمية الثانية وقبلها ، إذ هو الجيش العربي الوحيد الذي لا يؤمن جانبه لا في الحركات التحررية ، ولا في الاحتفـــاظ باستغلالهم لقناة السويس .

ولا يستبعد ان يدبروا خطـــة في فلسطين لتحطيمه أو للقضاء على معنوياته ..

هذا جانب . وجانب آخر : من ذا الذي كان يصدق أن بريطانيـا تنوي الانسحاب حقـــاً من فلسطين ، وتترك دولة اليهود التي خلقتها بريطانيا ، تتركها بلا حماية ، وتسمح للجيوش العربية بتدميرها في فلسطين ... هذا ما لم يكن يصدقه أحد . ودخولنا نحن الفدائيين سيكون جسّاً للنوايا الانجليزية.. ورد فعلهم .

وها نحن قد دخلنا فلسطين ، وتجاوزنا معسكرات الحدود التي لا يعقل أن الانجليز بحواسيسهم كانوا في غفلة عن تخطينا لها ولم يحسوا بنا ؟

ثم أوغلنا في أراضي فلسطين الى عراق سويدان ، وأقمنا هنالك وجهاً لوجه مع جنود بريطانيا : نحادهم ونفاوضهم ان يسلمونا مـــا بأيديهم ، وحاصرناهم أياماً ولياليَ .. وطلبوا منا ألا نحاصرهم ...

وكدنا نصطدم بهم واستمر حصارنا لهم على الرغم منهم . وهذا غاية مـــا كانت القيادة تروم أن تعرفه لتطمئن لسلامة وموضوعية دراستها .

نرجو أن تكون هذه مهمتنا حقاً ، فبذلك نكون قد أدينا رسالة جليلة .. وهذا ما نتمناه ..

وعلى أي حال ، فلقـــد اطمأنت القيادة إلى أن البريطانيين لن يتعرضوا للجيش المصري إذا دخل فلسطين يوم ١٥ من هذا الشهر. ولن يلجأوا إلى تنفيذ تقسيم فلسطين وإقامـــة الدولة اليهودية بالقوة وهو ما كان يتوقعـه العرب أجمعون .

وحق لعلهم يتساهلون في احتلال بعض أجزاء نصيب اليهود من التقسيم . ولم لا يبسط الملك فاروق سلطانه على هـــذه الأجزاء ... : يـــد في مصر ، وعين على السودان ، وأخرى في فلسطين ! لقد كشفنا الطريق للجيش المصري الآن ، وليس هنالك من خوف قضاء الانجليز عليه أو حتى تعرضهم له . ورغم

أن المهمة لا بد أنها كانت حساسة بالنسبة للسياسة المصرية ، لكنهـــا لم تكن حساسة بالنسبة إلينا . مثلها مثل أي عمل دون الفدائية الانتحارية . ولماذا لم يطلقوا أيدينا ننزل الضربات بالمستعمرات الصهيونية .؟

ولكن يبدو ان السياسة كانت تتجـه للتراجع عن قرار عدم اشتراك الجيش المصري في غزو فلسطـــين ، إذ ربما يشترك أسوة بالجيوش العربية الأخرى .

# جَاسُوس فِي النصيرَات

# ١

مررنا بغزة ؛ وفي مشارف دير البلح ، بـــين غزة وخان يونس ، توقفنا . وهنالك أقبل علينـــا البنباشي السيد الورداني والانظار تجول في الآفـــاق ونتساءل : أين عسى أن تكون المعارك؟ وسأل البعض منا السيد الورداني الذى كان واقفاً قريباً منه :

— ماذا هنالك ؟ وأين المعركة التي دعوتمونا إليها ؟

فقال الورداني : قريبا إن شاء الله .

انتابنا شعور بخيبة الأمل . ليس هنالك من معارك ... ولا أثر لها .

ولم نكن نعلم بما جرى البارحة من أحداث وآلام ... لم نكن نعلم بأربعة وسبعين شهيداً بينهم ثلاثة وعشرون ليبياً لا تزال جثثهم ملقية هنالك حول مستعمرة (كفار داروم) ؛ ولعل بعضهم لم تفارقه الحياة بعد ، حين توقفت سياراتنا أمام معسكر النصيرات ، ولا تزال دماء الشهداء الزكية تجري في عروقهم من أثر معركة لم تكد تنتهي حين تلقينا الاوامر بالعودة من عراق سويدان الى دير البلح .

وقد انسحب المقاتلون العرب ، وتركوا المصابين حـول الأسلاك الشائكـة المحيطة بالمستعمرة .

هؤلاء الشهداء هم إخواننا الذين تركناهم في العريش . لحقوا بنا بعد ستة أيام ، ثم أقاموا بخان يونس يوماً قتل فيه أحد الإخوان المصريين وسط المعسكر برصاصة لا يعلم أحـد من أين جاءت ، بينما هم يعسكرون وسط محيط عربي خالص .

●

ولما رأوا هذه المستعمرة وسط منطقة عربية فسيحة روا أن يزيلوا هـذا المسخ المشوه من هذه المنطقة الطاهرة ..

وبيتوا النية أن يصبحوها طاهرة محررة من رجسها ..

ولما انتصف الليل أحدقوا بها من جهات ثلاث يستعدون لاقتحامها بعـــد ساعتين ، ومضت الساعتان ولم تبدأ المدافـــع الثقيلة ضربها حسب الموعد المضروب ...

وتقـدم الفدائيون يزحفون إلى الأسلاك الشائكة المزروعة بالألغام . حتى أسفر النهار عن معالم الكون ، ووضحت الأشباح تزحف خلال الزرع والعشب منذ ساعات حين انطلقت أول قنبلة تدك المستعمرة إيذاناً ببدء المعركة ...

وألقت المدافع حملها حيثما اتفق، دون أن تهدف إلى المعاقل والحصون وتترك الباقي للمجاهدين الذين تقدموا الآن خلال الأسلاك الملغمة .

وقد استشهد أول من استشهد من فرقة الألغام ، الفدائيان الليبيان مصطفى الكعامي والعم بشير التاجوري . وكانت قنابل الهاون قد ألقت دخاناً كثيفاً خيم على المستعمرة . وتقدم الفدائيون تحت ستاره داخل المستعمرة ، والمدافع لا تزال تدك على غير هدى وتصيب المغيرين العرب فيما تصيب .بل لا تصيب غيرهم من المستعمرة الحصينة .كل ذلك والجانب اليهودي ساكن حتى اقترب منه المغيرون وانكشفوا . عندئذ فوجئوا بسيل من الرصاص ينطلق من داخـــل أقبية الاسمنت المسلح خلال كوى ضيقة مصوبة إلى كل انحـــاء المستعمرة تصويباً كاشفـاً .

●

وصدرت إليهم الأوامر بالانسحاب ، لأن النهـار تقدم والمستعمرة حصينة منيعة تحتاج الى مجهود ووقت أكبر .. فانسحب الذين كانوا بالخلف ، أمـــا الطلائع التي اقتحمت المستعمرة وسط اللهيب فاستمروا يقاتلون وهم لا يعلمون

بأمر الانسحاب ، وظلوا هنالك ولم يعد منهم إلا بضعة أفراد .

انسحبوا تاركين قتلاهم ومن لا يستطيع منهم أن يعتمد على نفسه ، وعددهم ٧٤ منهم ٢٣ ليبياً وقليل من أبناء تونس والجزائر والمغرب الذين كانوا ضمن الكتيبة ،وبقيتهم من أبناء مصر . وجرح منهم نحو ثمانين رجلاً ..

## ٢

وحططنا نحن رحالنا في المعسكر القبلي الذي سميناه معسكر النصيرات وهو قريب من المستعمرة، وواقع على جانب الجادة .. وعلى الفور ذهبت فصيلة منا لحصار المستعمرة التي أصيب فيها اخواننا، وفصيلة ثانية اقامت بوابة تشرف على المرور في الطريق، وعلى كل مار أن يثبت أنه عربي أو يتعرض للإيقاف والتحقق من هويته. وجل المارة يثبتون شخصياتهم ببطاقات شخصية رسمية أو أية بطاقة أو رخصة تثبت أنه عربي .

●

ومن بين السيارات التي أوقفها رفاقي كانت سيارة تحمل رجلين من علية القوم ومن العاملين في الهيئة العربية العليا، مهذبي العبارة ، ذوي هندام حسن وخلق جميل . ولما تشكك رفاقي في شأنها دعوني للتحقق من أمرهما . وجرت بيننا اسئلة وإجابات مقتضبة وحديث مختصر . وكانت وجوههم تطفح بشعور مزيج من الاشفاق والإكبار : اكبار الروح العربية التي جاءت بشباب من ليبيا ليدفع ضريبته من الأرواح والدماء ، وإشفاق على شباب غر

يجهل ما يحاك له وراء الحجب من خفايا : ولم تخل عباراتهما من سخرية بسياسة الدول العربية ...

وانصرفا .

انصرفا وهما يحيياننا تحية الإكبار والرثاء ...

ولم أتبين أنهما على حق إلا بعد حين..يوم سلكنا طريقاً طويلاً من أرضنا.. ولكن تحت حراب جند قميء .. سيأتي ذكرها بعد سنة من هذا اليوم ..

●

وعدت الى حيث كنت في ظـــلال شرقية تحت شجر الأثل ، أخلو الى أفكاري ، أفكار الشباب .

وحين تخلو الى نفسك مثلما خلوت الآن ، تحت ظل هذا الصف الطويل من شجر الأثل الجميل ، والزرع الأخضر يحيط بك على امتداد الأفق ، غير بعيد من هـــذا الطريق الأسمر الذي صقلته العربات ، ترقب الإخوة الكرام من ذوي العقال ، يفدون من قراهم إلى المدينة ، أو يروحون من المدينة إلى القرية والبيت والعيال . حين تخلو الى نفسك تحت هذا الأثل ، وتجلس على هذا العشب ، ثم تلقي بمدفعك الرشاش أمامك ، وتتكىء على هذا الجدول ، وتسرح الناظر في الأفق وراء الزرع ووراء التاريخ .. ويسرح الفكر في التأملات ثم يسرح .. ولا يملك إلا أن يعود بالخواطر العـذاب .. والمشاعر الجياشة بالقداسة والمجـد ، تتساءل : أمثلي يهيأ هذا الدور من التاريخ العظيم ؟ أيكتب على هذا الجيل الذي أنا منه بالذات أن يحمل الرسالة والسلاح ؟ ! يا له من دور ! ويا لها من رسالة تهون في سبيلها النفس راضية والدم رقراقاً ، آه يا أخي لو كنت مكاني...ساعةٌ خير من عمر .

لو كنت مكاني لما فعلت غير ما أفعل الآن ..

أتناول حفنة من تراب ، وأبسط بها كفي ، وأناملهـا ، هل تراني أكون

اهلا للدفاع عنك يا تراب بلادي ؟ هل تراني أهلاً للشرف العظيم ؟

هل تراني أطمع أن يمتزج دمي بتربك يا بلادي ؟ كما امتزج بدماء الشهداءمن أجدادي ودماء النبيين ؟ حلم ... أمل يهيّج النفوس . نفوس شباب متوثب... ثم يشرد الخاطر في وديان خضر من أحلام الحقيقة وقتاً طويلاً..

وأخيراً نهضت من متكئي متثاقل النفس بآمال عظام ..أطأ الارض في ثقة وزهو ، وكأنما أنا أمشي على هام التاريخ ...

وقد أدركت أن رفاقي يشعرون أحياناً بما أشعر الآن . وكل نفس مجاهدة مزهوة . كأنها تحمل التاريخ بين منكبيها . تستنشق من وراء الأفق عبير الجنة والخلود . ما أجمل الشباب إذا كانت هذه رسالته ... ومضيت مجتازاً الجادة . مضيت أجاهد حمل نفسي الحالمة الى هنالك ... الى حيث طائفة من رفاقي تطوق مستعمرة ( كفار داروم ) في استخفاء .

## ٣

قبل أن أسلم بادرني علي القربولى... : ألم تسمع ؟

– اسمع ماذا .. ؟ هل من جديد .. ؟

– قالوا ان سلامة اعترف للقيادة بأنه جاسوس ، وأعلمهم بكل شيء في المستعمرة .

– ماذا ؟ ماذا تقول يا علي ؟ من يكون سلامة هذا الذي تتحدث عنه ؟ فهل اشتبهت القيادة في بعض الناس بأنه جاسوس ؟

– لا ، لا ، سلامة هذا قبضنا عليه اليوم .

ألم تسمع .

●

ولم أكن قد سمعت ، كان ذلك في اليوم الثاني من وصولنا ، أو بالأحرى في الليلة الثانية .

وبينما كان سالم الترهوني يؤدي نوبته في الحراسة ، والفجر لم تكد تبدو بوادره بعد ، خيل اليه أنه رأى شبحاً يتحرك هنالك . ولم يجزم أول الأمر بما رأى حتى رآه ثانية على ربوة جرداء بجانب المستعمرة ، يبدو مبهماً خلال شعاع الفجر الضئيل من وراء الأفق الشرقي ، يمشي على أربع ، متجهاً نحوهم . فأيقظ رفيقيه وأشار لهما باتجاه الربوة ، ولكنهم لم يروا شيئاً . فقال أحدهم :

ـ ماذا هنالك ... ؟

ـ كان هنالك شبح اختفى الان .

وبعد حين استدعى رفيقيه ثانية قائلا :

ـ انظرا هنالك ، وأشار بيده الى الهضبة الجرداء .

ـ انه شبح حقاً ، حيوان .. ابن آوى .. لا ، لا ، هذا أكبر من ابن آوى. انه انسان يمشي على يديه ورجليه مستخفياً ..

ورفع علي القربولي بندقيته ، ولكن سالم أمسك بها .

ـ لماذا ..

ـ لا تضرب . قد يكون وراءه آخرون .. أو يقع في الشرك حياً ...

ـ لا بد انهم خشوا اعادة الهجوم عليهم وفقدوا الأمل في النجاة فخرجوا يفرون من حصنهم .

ـ انه يتحرك في اتجاهنا . أنظر ... يبدو أنه طليعة ... ولكن لا أحد وراءه ... اننا نريده حياً ، ولا نريد أن يسمعوا دوي رصاصنا ...

وسرعان ما اختفى في الزرع ولم يسمع له بعد ركزاً ..

ومضت فترة كأنها سنة أو بعض سنة ، وسالم ورفيقاه في قلق شديد خوف أن يكون قد أفلت ... ولكن كيف يفلت وهو ان حاد عن استحكامنا فلن يفلت من استحكامات اخواننا . لعله أفلت ... آه ليتنا قتلناه حين كان على مرأى من أعيننا .. وأحاديث أخرى تدور في نفوسهم .

وجاء « النوباتجي » فأخبروه بما رأوا . فأوصاهم باليقظة وانطلق يوصي مراقب الحراسة الأخرى .

وسأل سالم أحد رفيقيه همساً :

ـ ألا تحس له أثراً ؟

ـ لقد اختفى في الزرع ، ما أظنه الا أفلت منا .

وسكنوا سكون الأموات لأنهم سمعوا خشخشة في الزرع غير بعيدة ، زرع تحرك ثم سكن ... ثم ماتت الحركة ... ولم يعودوا يسمعون الا وجيب قلوبهم وهم يتخيلون أن دقاتها تسمع من بعيد ، ولهثت منهم الأنفاس متلاحقة ... ولكن لا شيء يبدو من قريب ولا من بعيد . ثم سحب أحدهم بندقيته الموجهة لأنه فقد الأمل ، سحبها في رفق ، ولم يكد يسحبها حتى اشتدت قبضته عليها فجأة ، وعاد فوجهها حيث كانت لأن الزرع تحرك بعد سكون طويل .

ولكن لعله حيوان : ثعلب ، أو ابن آوى ، أو ارنب . وكان الطل قد غمر الزرع والارض والخوذات والبنادق ، وسقطت من خوذة سالم قطرة من ندى على بندقيته فتخيل لها دوياً في أذن المتحرك في الزرع وهو عنهم ليس بقريب ، فبالغ في السكون . ثم تحرك الزرع في اتجاههم وأيقنوا انه انسان لأنه يتحرك في حذر . وقرب منهم ثم قرب ...

وأشرعوا بنادقهم وصوبوها ، وانتظروا لعلهم يقبضون عليه حياً . وطال الانتظار حقاً ولم يعد الزرع يتحرك .. حتى يئسوا ووضح النهار .

ولما استبانت الأشياء في وضح النهار دخلوا الزرع يبحثون حيث كان .. فإذا أحدهم أمام رجل مختبىء في حفرة بين الزرع . وأشار إلى رفيق قريب منه .. وما شعر صاحبنا الا والسنكي بين أكتافه ، وأحدهم يقول له : هس لا تتكلم .. ووجد بندقيتين موجهتين الى رأسه فسكن واستسلم ودفعاه في السرداب الذي اتخذوه ثكنة لهم ، وهنالك أوثقوه وبدأوا معه سؤالا وجواباً . فإذا هو عربي ، واسمه سلامة . وادعى بأن وظيفته مدرس في المستعمرة ، ألجأته الحياة للعمل مع اليهود منذ زمن بعيد . وأرادوا أن يتخذوا منه أداة لهم ، ومطية لاستطلاع

الأخبار . وأراد هو أن يتخلص منهم بعد أن هوجموا في مستعمرتهم ، أراد أن يهرب ، فأوقعه حظه السيىء حيث وقع. وأبدى استعداده للتكفير عن سيئات سلفت ونقل إلى القيادة . ولما سمعتْ القصة لحقت بالقيادة ..

## ٤

هنالك في حجرة من قيادة المعسكر اتخذت سجناً من أجل سلامة قابلت الجاسوس .فهو لم يتجاوز شبابه ، ويبدو أنه من المسرفين المستهترين من اعراب البادية ،ولاأرى له من شبه بالمدرسين، وجدته يتحدث إلى جماعة من الضباط فقال له أحدهم :

— استمر . قابلتها في المقهى والناس ينظرون ؟ !

— لا ، تدارينا قليلا ...

قال سرور : هكذا وبكل صفاقة أمام الناس ؟

قال السجين : أمام الناس وماذا في ذلك ؟

— لا بد انها كانت جميلة .

— هي ليست جميلة فحسب،هي رائعة تتفجر أنوثة في ريعان الجمال والشباب والدلال ... انها سلاح فتـاك . لو عَرَضَت للزهـــاد والعباد لهجروا صوامعهم وتبعوها إلى الحانات. كما هجرت أرضي واهلي في...وتبعتها في كل بار ومرقص ..

●

وتابع سلامة :

— لم أعلم ان الوكالة اليهودية خصصتها للاستيلاء عليّ،ومن بعد للاستيلاء على ارضنا .

سألناه : هل معكم في هذه المستعمرة نساء ؟

ـ قال : نعم ، وهن مسلحات مثل الرجال .

## ٥

ثم عدنا نتابع استجوابه فسألناه:

ـ كم عدد المسلحين في هذه المستعمرة ؟

ـ نحو مائة وستين مسلحاً .

وسألناه عن وجهة نظر الصهاينة إزاء الجيوش العربية المنتظر غزوها لفلسطين في ١٥ مايو فقال :

وجهات النظر مختلفة ومتعددة الاختلاف ولكنهم مجمعون على الخوف ، وقلوبهم واجفة .. الرجال والنساء فزعون خائفون أن تحل بهم نكبة لا تبقي ولا تذر .. وأما الرسميون في الوكالة اليهودية فهم أيضاً متخوفون رغم تأكيدات الامريكيين والانجليز ، وتطمينهم لليهود بألا يخشوا الجيوش العربية .. ورغم أن وايزمن اليهودي قال لهم وللعالم بأن اسطورة القوات العربية ليست إلا خرافة .. مع ذلك فهم متخوفون ، يخشون عاقبة غزو هذه القوات لاحتمال حدوث تطور مفاجيء يدمر آمالهم ويدمرهم هم أنفسهم ..

هذا الذي لمسته منهم أثناء تجارب طويلة .

ولمست أن كبار المسئولين منهم مفرقون في الاطمئنان الى الوعود الاميركية والانجليزية ، ويبذلون قصارى الجهد ليوحوا لبقية اليهود بالاطمئنان .. لذلك لما اقترح أكثر السياسيين سحب اليهود من مستعمرة دير البلح ومستعمرات الجنوب النائية وتجميع قوى اليهود حول تل أبيب ، رفض كبار المسئولين هذا الاقتراح اطمئناناً لوعود أصدقائهم .

وحتى لما اقترح انسحاب اليهود المحاصرين في الحي القديم من مدينة القدس.. رفضت الهاغاناه انسحابهم ، رغم أنه ميئوس من فك الحصار عنهم ، وقد قطعوا بضعة أشهر داخل حصار عنيف ولا يستطيعون الحياة معه طويلا .. »

وسألناه عن جيش اليهود الرسمي ؟ وكم عدده ؟

فقال سلامة :

ـ ليس لليهود جيش رسمي مثل الجيش البريطاني أو غـــيره . ولكن لهم عصابات : عصابة الهاغانا ، وعصابة الأرغون وعصابة شترن . ولكل عصابة جيشها ونظامها ومستعمراتها ومناطقها. وللهاغانا وحدها نحو ستين ألف جندي. وهؤلاء هم الذين سيكونون نواة للجيش الرسمي بمجرد إعلان دولتهم .

قلنا : ستون ألفاً كلهم مدربون ؟ وهل هذا العدد هو كل مـــا لدى اليهود من المسلحين ؟

ـ لا، ليس هذا العدد هو كل ما لدى اليهود ،بل لديهم أكثر من ثلاثين ألفاً آخرين معدين للتجنيد إذا اضطروا لهم .

ـ وهل كل هؤلاء مدربون ؟

ـ نعم ، كلهم مدربون على يد الجيش البريطاني او الأميركي ، ومنهم من اشترك في الحرب العالمية الثانية او في غيرها من الحروب . وعلى العموم فجميع اليهود الموجودين في فلسطين مدربون على استعمال السلاح ، رجالاً ونساء إلا ما ندر وشذ .

قلنا : وكم عدد العصابتين الأُخْرَيَيْن ؟

قال : ليسوا كثيرين . لا يصل عدد جنودهم الى سبعة آلاف .

قلنا : وهل لديهم فدائيون ؟

قال : نعم ، وهم اشد فرق الهاجانا ويسمونهم ( البالماخ) .

ـ كم عددهم ؟

ـ حوالي اربعة آلاف .

●

ـ هل لدى العصابات السلاح الكافي لكل هذا العدد ؟

– لست ادري ما لديهم من السلاح الخفيف ، ولكني اعلم ان لديهم نحـــو ثلاثين طائرة ، وان كانت ليست طائرات حربية ، وهم يحاولون ان يحوروها إلى حربية ، واعلم ان مدافع الميدان لديهم قليلة ، وليس لديهم منها الا ما سلمه لهم الجيش البريطاني ، وكذلك الدبابات . واعلم ان لديهم اكثر من خمسمئة سيارة درعت جميعها هنا في فلسطين بألواح الحديد ليقيها مـــن الرصاص . ولديهم مدافع مورتر كثيرة صنعت معظمها في فلسطين. ولهم مصانع للذخيرة ، ولقنابل المورتر . هذا الذي اعلمه ان شئتم ان تصدقوني ..

قلنا : نحن نصدقك .

فقال : وعلى ما اعلم ، إنهم قـد اشتروا سلاحاً جديداً من بريطانيا والمانيا وفرنسا ، وهم يعتمدون كلية على اميركا ورئيسها ترومان .. وفي هذه الأيام ترد عليهم اعداد كبيرة من المحاربين والطيارين .

قلنا : الم يشتروا طائرات حربية ؟

قال : لقد اشتروا من أميركا على ما سمعت .

قلنا : ولكن اميركا سوف تمتثل لقرارات الأمم المتحدة ولـن تبيع لليهود ولا للعرب .

قال : سوف لا تبالي بقرارات الأمم المتحدة . وفي الحقيقة إن الصهاينـــة يعلقون آمـــالهم على الولايات الأميريكية . تستطيع لو عشت معهم أن تلمس ذلك من أحاديثهم ، فهم يعلمون أنهم لا يستطيعون أن يقيموا لهـم دولة وسط العرب إلا باعتمادهم كلياً على الولايات المتحدة الأميريكية أولا ، ثم على بريطانيا. وقد سمعتهم مئات المرات يؤكدون أن رئيس الولايات الاميريكية ترومان وعد زعماءهم بإقامة دولتهم على الرغم من أنف قوى العالم كلهـــا .. وهم مطمئنون لوعده ، حتى ولو لم تكن لهم عصابات مسلحة .. صدقوني فـيما أقول .. سمعت منهم وتأكدت منه .

●

تأكـدت ان الانجليز يصرون حقاً على مساعدتهم لإقامـة دولتهم . رأيت ذلك بعيني . ولم أسمعه بأذني .

رأيت الجيش الانجليزي يدرب أفراد عصاباتهم على الحرب واستعمال السلاح وأعمال المقاومة والتجسس .

ورأيتهم يتفقون معهم على الغدر بالعرب وطعنهم من الخلف.

ورأيتهم يسلمونهم السلاح والذخيرة والدبابات والمدافع.. وسيسلمونهم معظم السلاح الثقيل عند رحيلهم من فلسطين . صدقوني يا سادة : إن هذا ما حدث، وهذا ما سيحدث . وكثيراً ما كنت أترجم بين كبار ضباط الإنجليز وبـين اليهود الذين لا يحسنون الانجليزية ...

وهم مطمئنون لقيام دولتهم . وبأيديهم الأدلة الأكيـدة من الأميركان والإنجليز ، وحتى من بعض العرب .

●

وهنا ثار في وجهه جميع الحاضرين ، وصفعه بعضهم على وجهه . فسكت.. ولكن آخرين ابدوا امتعاضاً من صفعه وأحبوا أن يستدرجوه ...

ونطق أخيراً ومما قال :

– إنني لست أكذب. إنني أعلم حقيقة مصيري ... مصيري هو مصير أي جاسوس، وفي حالة حرب، الاعدام .. الاعدام ..ولا شيء غير الموت، وحدثتكم بصدق لتعلموا كيف يفكرون . إنني مثلكم عربي خانني الحظ . ولكنني لن أكون خائناً مائة في المئة عندمـا أقول ان اليـهود مطمئنون لوعود بعض العرب الأكيدة .. إنها وجهة نظرهم وقولهم هم وحدهم . وأحسب إن رواية ما يقوله الأعداء لا يثير غضب العقلاء . وأنا من جانبي أؤكد لكم بأنهم فاوضوا بعض زعماء العرب بواسطة الانجليز واتفقوا على حلول معينة وعلى التعـاون للوصول اليها .

فقال له أحدنا : ولكن العرب يتظاهرون أمام العالم بأنهم لا يقبلون دولة لليهود مع دولتهم الفلسطينية . وهذا الحاج أمين الحسيني والهيئة العربية العليا جادون في القتال وشراء السلاح ..

قال سلامة : أنا ما قلت الحاج أمين الحسيني . فهو أعدى عدو لليهود ، ولا قلت الفلسطينيين فهم لا يملكون أن يعطوا وعوداً . وحتى لو افترضنا أنهم يعطون وعوداً ، فاليهود لا يقبلون وعودهم فيما لا يملكون .

قلنا : أليسوا سيكونون مسئولين عن الدولة العربية في القسم الفلسطيني حسب رأي اليهود ؟

قال سلامة : حسب رأي اليهود ...

حسب رأي اليهود لن تكون هناك دولة فلسطينية عربية ، ولن يملك الفلسطينيون تنفيذ الوعود .

قلنا : هل يطمعون في الاستيلاء عليها جميعها ؟

قال : لا ، بل سيبقى منها قسم للعرب المقيمين فيها وللعرب الذين سيرحلون من القسم اليهودي . وسيضم القسم العربي إلى دولة عربية صغيرة مجاورة . وسيمتد هذا القسم على طول حدود تلك الدولة ، وسيضرب بتقسيم الأمم المتحدة عرض الحائط .. اسمحوا لي يا إخوان إذا كان هذا يزعجكم .. ولكن ما ذنبي .. أنتم تريدون أن تعرفوا وجهة نظر اليهود ، وأنا أردت أن أكون صادقاً معكم ..

## ٦

قال سلامة كلاماً كثيراً ربما يكون في مستقبل الأيام ذا أهمية .. ولكني لم أسجل منه في مذكراتي الا ما رأيته مناسباً ، وكان أكثر كلامه غير مناسب لمزاجي ، بل معظمه كان مزعجاً لي .

إنه يناقش نقاشاً مخيفاً يكاد يضع يدك على البرهان، وأحب أن أتجاوز عن أكثر ما قال ولو أقام عليه ألف برهان .

## ٧

قال سلامة : كان اليهود في منتصف الشهر الماضي يؤكدون بأن الإنجليز سيسلمونهم مدينة حيفا ثم مدينة يافا العربيتين في نهاية الشهر . وكان الأمر كما قالوا : تسلموا مدينة حيفا يوم ٢١ من الشهر ذاته ، ثم تسلموا مدينة يافا بعدها بستة أيام ..

كانوا يفرضون رأيهم والانجليز لا يملكون غير الإذعان ، والدول العربية لم نسمع عنها يوماً أنها تحدث رغبة انجليزية قط

قلنا : دعنا من موضوعات السياسة ، وحدثنا عن مناطق الصهاينة وتحصيناتها وتسليحها ..

قال سلامة :مناطق الصهاينة منها المستعمرات ومنها المدن ، ولكل عصابة مستعمرات موزعة . ولكل عصابة نظام يخصها .. والعصابات ذاتها مختلفة على طريقة تقسيم فلسطين ، كل عصابة تريد أن تكون مستعمراتها داخلة في حدود القسم الصهيوني،وتصر على الاستماتة في الدفاع عنها على الرغم من موافقة زعمائهم على جعلها ضمن القسم العربي وأنا أرى أنه يصعب احتلالها بالسلاح العادي الخفيف كما رأيتم في ( كفار داروم ) .

وكل المستعمرات الواقعة في وسط عربي محصنة تحصيناً قوياً : مجهزة بما يلزم للحياة الضرورية ، وجميع من فيها من رجال ونساء جنود مدربون على السلاح، حتى الاطفال .. أما المستعمرات الصهيونية المتجاورة فحالها من التحصين دون أخواتها الواقعة في مناطق عربية .وهذا أمر طبيعي ، وأما المستعمرات الواقعة في مناطق يهودية صرفة فهي مهملة من التحصين تماماً،مثلها مثل القرى العربية..

قلنا : إذن هذه يسهل احتلالها ، واليهود يعلمون ذلك،ويعلمون أن الجيوش

العربية في هذه الحالة ستبدأ باحتلال المدن والمناطق الآهلة بالصهاينة.. وبعدها وحين يتحولون إلى هذه المستعمرات المحصنة ، لن يكون أمامها إلا الاستسلام دون أية مقاومة . أوليسوا يعلمون هذا ؟؟

●

قال سلامة : هذا صحيح ، لو كانت الأحداث ستقع على نحو ما فسرتم .. ولكن العبرانيين يؤكدون أنها لن تقع كذلك ...

– قلنا : كيف ستقع في رأيهم ؟

– قال : هم يقولون ، والعهدة عليهم ، يقولون : إن الحكومة الإنجليزية تفاوضت مع الحكومات العربية بألا تسمح لجيوشها بدخول القسم الذي خصصته الأمم المتحدة لدولة الصهاينة . والحكومات وافقت شفهياً على ألا تدخل من هذا القسم إلا المناطق المزدحمة بالسكان العرب على الأقل لحماية أرواحهم من الاعتداء . الصهاينة يقولون هذا ، ويقولون ... وسكت .

قلنا : قل ، ماذا يقولون ؟ مالك سكتّ ...

قال : يا اخوان ، أنا أرى على وجوهكم علامات الاشمئزاز من حديثي ، أليس من الخير لي أن أسكت ؟ وألا أسمعكم ما تكرهون . ؟

قلنا : لا ، لا ، تكلم ، انت لست أكثر من راوٍ تروي وجهة نظر أعدائنا وادعاءات الأعداء باطلة ومزيفة ، وهي من قبيل الحرب النفسية لتعبئة شعبهم . ونحن يفيدنا أن نعرف كيف يفكرون ...

قال : إذن يقول الأعداء إن أكثر من دولة عربية متفقة معهم على ألا تقترب من المناطق الآهلة باليهود ، وأن تحتل فقط المناطق الآهلة بالعرب لتتمكن من حماية أرواحهم لحين ترحيلهم من القسم المخصص لليهود ..

واليهود يرون أن الحكومات العربية مضطرة لذلك لتبرير موقفها أمام الشعوب العربية .

قلنا : وما ريك أنت ؟

قال: أنا رأيي إذا كان ما يدعيه اليهود صحيحاً، رأيي أن تصارح الحكومات العربية شعوبها، وألا تسمح لجيوشها بدخول منطقة ثم يعودون فينسحبون منها، لأن ذلك يفسر بأنه هزيمة عسكرية يسجلها التاريخ .. وتظل ثغرة في تاريخ العرب .

قلنا : لم نسألك عن ذلك ، بل نسألك عن ادعاءات الصهاينة، هل تراها صحيحة ؟

قال : لست أدري ، وهم أنفسهم مختلفون .

●

ليس هذا كل ما قال سلامة .... ولنترك سلامة مع أخيلة الصهاينة وأوهامهم ... لقد تشربها ووثق بها... وما تصور لهم أحلامهم اكثر مما يتصور سلامة .. وهو بلا شك يشعر بالخجل ويرجو ان يكفر عما سلف ، يريد ان يقدم البرهان على توبته .. قبل ان يلقى مصيره .

ندعه الآن يتفاوض مع السيد الورداني ويحاوره لعلهما يوفقان لعمل ...

# المعركة الأولى

# ١

هؤلاء إخواننا في معسكرهم يتحدثون عن الجاسوس الذي أمسكوا بـــه ويمنون أنفسهم بالبطولات التي سيقومون بهـــا ، وبالمعارك التي سيخوضونها وبالمعجزات التي تصنعها أحلام الشباب ... وكأن ساعة البطولات قد حانت ... فها هو السيد الورداني يلحق بنا في المساء ، ويأمر بالنفير وجمع الطوابير ، على غير مألوف عادته . وهرول الرجال مسرعين تلبية للنفير ، واصطفوا في ميدان التجمع في ثوان. فاستعرض صفوفهم ثم وقف عند سارية العلم وقال : هذه المعركة التي كنتم تحلمون بها جاءت تبحث عن بطولاتكم يا رجال ... اذهبوا فأعدوا أنفسكم للرحيل الليلة .

ولا تسأل عن فرحتنا ...

●

علمنا فيما بعد ، ونحن نترصد للأعداء ، أن سلامة اتفق مع السيد الورداني ان يتصل بتل ابيب لاسلكياً ( وهو يحسن العبرية ويعرف الشفـــرة المصطلح عليها )، ويطلب من قيـــادة الصهاينة أن تمدهم بنجدة من السلاح والذخيرة والطعام ... وتم له ما أراد ، فاتصل بهم ووعدوه بمعونة من الميرة والســـلاح

والذخيرة والوقود ، وعينوا لذلك غداً صباحاً .

●

وكان البنباشي الورداني يثق بالليبيين لأسباب شاهدها بنفسه ، ومن يومها اقتنع بأن هؤلاء الناس أهل حرب، ومنذ ذلك اليوم وهو يلجأ اليهم في الملمات.

ولم يكن السلاح موفوراً ، فقد كان عدد كبير من الليبيين بلا سلاح بالمرة . وهكذا أرادت الجامعة العربية ان تحارب في فلسطين بلا سلاح، وأما المسلحون منهم ، فسلاح بعضهم من مخلفات الحرب العالمية الثانية ... تصور انت بضعة مئات من الجنود يرتدون البدلة العسكرية وبعضهم ليسوا إلا نواطير لتخويف العصافير ..

وجيء ساعتها ببعض البنادق ، ومع ذلك فقد بقي بعضهم عزلاً من السلاح ، باستثناء القنابل اليدوية من مخلفات الحرب العالمية الثانية ، التي حملناها معنا من صحراء ليبيا .

وسار الجنود الليبيون القافلون من ( عراق سويدان ) وحدهم ودون سواهم، ما عدا طاقم مدفعين اثنين مقياس خمسة ارطال من الاخوة المصريين ، لأننا ليس بأيدينا مدافع ميدان. رغم وجود المتدربين عليها في الجيش الإيطالي بيننا، وذلك لندرتها . ساروا ليقضوا ليلتهم مترصدين للقافلة اليهودية المنتظرة ... وذهب الى المعركة حتى العزل من السلاح ، على أمل أن يشرعوا سلاحاً مثل ما كان آباؤهم يفعلون .. حين كانوا يحاربون إيطاليا بسلاحها .

●

واختفينا جميعاً بين القمح الاخضر الممتد على جوانب طريق غير معبد اتخذته قوافل اليهود طريقاً من المستعمرة الى الصحراء . ولا سبيل الى القرية غير هذا

الطريق وغير طريق آخر يتفرع من الجادة المعبدة. ولكن هذه الجادة أصبحت في حوزتنا ولن يفكر اليهود في الاقتراب منها .

هل ستأتي قافلة حقاً ، وتمر من هذا الطريق المترب ، وهي غافلـــة عمن يترصدها ويكمن لها في هذا الزرع الذي يكاد يصل في طوله الى كتفي ؟ ومتى ستأتي؟ غداً في وضح النهار؟ ولماذا لا تأتي الليلة ؟ ما اطولها من ليلة، تشبه ليالي المحب المهجور .. ومضت متثاقلة طويلة . وهي اول ليلة نعزم فيها على خوض معركة أكيدة إذا صدق الظن .

واختفى مئات الرجال في الزرع . وأشرق النهار وبزغت الشمس . ولو أنك كنت معي وتطلعت ذات اليمين وذات الشمال تبحث عن أثر لأولئك المئـــات الذين جاءوا الى هنا البارحة لداخلك الريب فيما تزعم ، لأنك لا تحس لهم أثراً ، فقد ابتلعتهم الأرض ولا تسمع هاهنا إلا حفيف سنابل القمح الاخضر ، وهي تتمايد مع النسيم مترفقة . أرادوا ان لا يثيروا ريبة في نفوس اليهود في المستعمرة المجاورة ، فخنسوا جميعاً بين سنابل القمح . حتى السيد الورداني نفسه لم يغادر مكمنه . وسكنوا كأنهم أموات ، لولا بعض المدخنين المدمنين الذين يكاتمون السعال بين حين وحين ، وأنت في مكمنك يتناهى الى سمعك من وســط حقل القمح . الرجل منهم يكاتم أنفاسه ، ويضع يديه على فمـــه ، ويغرس رأسه في حجره ، ويسعل سعالاً متقطعاً. ورغم ان احداً لن يسمعه . ولكننا نحن نسمعه مزعجاً ، نابياً ، كأنه صوت الشياطين في جنة القمح هذه .

وارتفعت الشمس الآن ولا أثر لقافلة يبدو من قريب ولامن بعيد . لقد كذب علينا ذلك الجاسوس اللعين ، وإنني لأخشى ان تكون في الأمر مكيدة مدبّرة. وان يكون قد غرر بنا لتدور علينا الدائرة، وتنقلب خطتنا وبالاً علينا..ولعل اليهود قد نصبوا فخاً لكميننا هذا ؟ ولعلهم يخلفوننا على معسكراتنا ومخازننا عن طريق آخر ؟ لا لا ، هذا مستبعد ، وقد تركنا في المعسكر حرساً يدفـــع عنه الشر . إذن ، أترى ذلك الجاسوس كذب علينا ؟ أم ترى اليهود فطنوا لكيده

بهم ؟ أم تراهم اتصلوا مرة أخرى بمستعمرتهم فتبينوا المكيدة ؟ أم مـــاذا ..؟ وارتفعت الشمس ومتع الضحى ولا أثر لقافلة في الأفق ..

إنني لفي ريب ... ولست أدري ؛ وكل امرىء كانت تجوش بنفسه خواطر الريب ، لولا ما بدا في المنظار المكبر من أثر بعيد .. هنالك ... عندئذ زقزق صوت عصفوري إشارة بالاستعداد للقافلة .. فسمع الصوت وكأنه عصفور ينقر سنابل القمح ويزقزق . ولكنه حمل الى الرابضين بين السنـابل معنى اشتدت له دقات قلوبهم وتلاحقت ... واخيراً تنفسوا الصعداء ... لقد حضر الصيد .

●

ومرت اللحظات وكأنها ساعات ، والدقائق وكأنها أيام ، ولم تصل القافلة بعد .. ولكن دوي سياراتها طفق يترامى إلينا من الأفق بعيداً ، ويدنو رويداً رويداً حتى اصبحت غير بعيدة عنا ولا احد يجرؤ على رفع رأسه واختلاس نظرة ليراها . كم أتمنى أن اختلس منها لمحة قبل ان ترتعد فرائصها في الفخ .. واخيراً دخلت الطريق الذي يربض على جانبيه مغامرون وهبوا ارواحهم فداء لفلسطين، ودونك اول معركة منهم على قاب قوسين أو أدنى .

بالنسبة لي كانت هذه اول معركة أخوضها في حياتي . وها أنا أرقب أعدائي من خلال نبات القمح جالسين في سياراتهم تعبر بهم سيارة إثر سيارة بعضهـــا مصفح وبعضها للنقل مُحَصَّنة بزكائب تحميها من الرصاص ، ويدي ترتعد على زناد رشاش انكليزي في جوفه بضع عشرة طلقة ، يوشك ينفلت بالنار ، وفي مخلاتي هذه عشرات الطلقات تنتظر إشارة البدء ، سينطق بها اول ما ينطق مدفـــع الميدان الرابض وراء تلك الأكمة المشرفة على الطريق .

دعني أتفرس ذلك الصهيوني قائد السيارة وذلك الجالس الى جـــواره ، أرمقه بين عيدان القمح ، لولا انها تحجز عن متابعة النظر اليه ... ولكني

استطيع ان أتبين سحنته الانجليزية ، وشنبه المفتول مرتفع الى خديه . والذي إلى جواره يبدو كأنه قادم من روسيا لأيام مضت .. تحملها سيارة ذات اربع عجلات خلفية مزدوجة يطلق عليها اسم « كيوى ». ومرت من أمامي المصفحة الرابعة عشرة ، وهي ليست آخر القافلة ، ولم ينطلق حتى الآن مدفع البدء لتدور رحا معركة توترت أعصابنا في انتظارها . وازدادت توتراً وشدة في هذه اللحظات الرهيبة قلقاً على المصير ، وخوف ان يفلت الصيد الثمين أو تنقلب الدائرة علينا . وفجأة اهتزت اعصابي ، وارتجف قلبي لدوي أول قنبلة من مدفع القمح. واثرها ارتجف حقل القمح ايضاً . وأرعدت جوانبه بدوي شديد، فقد فتحت جنة القمح أفواهاً من جهنم .. يصطلي برصاصها صهاينة روعتهم مباغتة من حيث لم يكونوا يحسبون لها حساباً .. بعد ان وصلوا مستعمرتهم أو كادوا .. واطمأنوا .. وقد أطبق الأماميون على السيارة الأمامية واطبقنا على آخر مصفحة وتداول الآخرون ما بينهما ، فتوقفت مصفحة الطليعة لأن قنبلة المدفع اخترقتها اختراقاً . وفي غمرة هول الموقف ذهل الصهاينة لحظات .. ومنهم من اشتد به الفزع فوثب من مكنه ليمزقه الرصاص قبل ان يصل الى الارض ثم شرع بعضهم يقاوم .. لولا ان المفاجأة كانت أشد من ان يقوم في وجهها عشرات من الجند بل كانت جديرة بقصم ظهر فيلق جرار.. وما تجدي مقاومة فاترة لبضعة عشرات من جنود مروعين ؟ وحاولت بعض المصفحات أن تهرب وحادت عن الطريق لولا ان وجدته محفوفاً من جانبيه بمدافع البوز المضادة للدبابات .. ولما فطن صهاينة المستعمرة لما حل بقافلتهم .. شرعوا يصبون رصاصهم في اتجاه المعركة ، رصاصاً طائشاً لن يصيب احداً حتى اولئك الذين يقفزون من عربات القافلة ولا يمزق أشلاءهم إلا هذا الرصاص من حشو بنادقنا التي ورثنا عن آبائنا حسن تصويبها .

ومن قفز ووصل إلى الأرض قبل ان ينوشه الرصاص وجد أمامه جمعاً من البنادق تترصده اينما توجه ولن نبقي على احد منهم لكي يسير الرعب في قلوبهم

مع ذكر الليبيين أينما ساروا . وهذا ما حدث .

وكان سالم البنغازي يوجه رصاصة واحدة بعد أخرى ، يقتنص ركاب أدنى سيارة منه ، يصوب رصاصه بعناية وترصد .. حتى أتى على رابعهم وسكنت . عندئذ وثب إليها وقذف بسائقها المكبوب على مقودها ، قذف به أرضاً . وكان محركها لا يزال يهدر .. وحاد بها عن طريقها المرسوم إلى الاتجـــاه العربي .. واقتدى به الآخرون فانقضوا على من يليهم بالسلاح الأبيض انقضاض أُسُود على فرائسها بقلب من حديد . وأجهزوا على بقيتهم المروعة .. ولم يتركوا عيناً تطرف ..

ووثب الذين يحسنون قيادة السيارات الى المصفحات فقادوا منها اربـع عشرة .. ومعظمها مدرع من كل جهاته بصفائح من حديد ثقيل لا ينفذ الرصاص فيه ، وعلى جوانبها كوى ضيقة يطلقون منها رصاص سلاحهم .. ومنها سيارتا نقل كبيرتان غير مصفحتين وضعت أكياس الدقيق على جوانبهـا لتحميها من رصاص المهاجمين ..

وكان المناضلون في القرى الفلسطينية قد سمعوا دوي الحرب ، ففزعـوا إلى بنادقهم ، وهرعوا من كل حدب ينسـلون . ولكن المعركة كانت قد انتهت ، وسكنت رحاها عندما وصل المناضلون الفلسطينيون ، ثم وصلت بعدهم فصيلة من الإخوان المسلمين الذين يقودهم الشيخ فرغلي ، وهم معسكرون عنا غير بعيد ، لذلك عرفنا نحن ايضاً بالإخوان المسلمين .. والفلسطينيون لا يزالون يحسبوننـا منهم .

●

عدنا بأربع عشرة مصفحة وسيارة محملات بالمئونة .. مصفحة منها مليئة بالذخيرة ، وأخرى بها ثلاثمئة وستون بندقية ألمانية جديدة ، وثالثة محملة بالبنزين

ورابعة برشاشات نوع ستن وبرن ومعدات حربية أخرى ، وسيارة تحمل رافعة أثقال .. عادت محملة بكل هذا وبقتلى من اليهود أيضاً ، وتسلح العزل منا بسلاح الصهاينة ثم ذهب الجنود يجوسون حقل القمح يتفقدون آثار المعركة .. ويفتشون عن هويات قتلى اليهود وما يحملون .

هذا أبو شنب مقتول ملقى هناك ، تدل اوراقه على أنه قادم من بريطانيا. وهذا قادم من أمريكا. وآخرون ون روسيا . ومن اوربا الشرقيـة جاء اكثرهم، ومن كل بلاد أخرى التقى الشذاذ والمجرمون .

●

وبعدها شرعنا ندفع بقية السيارات الأربع تجاه معسكرنا .

وكان قد حضر هنالك من أهالي خان يونس من يحسن قيادة السيـارات ، فطلبنا منه أن يقود إحدى السيارات الباقية، ولكنهم طلبوا ان يأخذوها معهم ليطوفوا بها خان يونس لكي يرفعوا من معنـــويات مدينتهم ، وكان لخان يونس وأهلها موقع جميل في نفوسنا منذ أول يوم حللنا فيه فلسطين .. ورحبنـــا بمقترحاتهم فكان يوماً من أعياد خان يونس على ما قيل. وعدنا الى معسكرنا ، تطوف بأخيلتنا مشاهد المعركة مشوبة بنشوة النصر في أول معركة نخوضها، ولم يصب أحد منا بأي أذى ، لا قتيل ولا جريح وكان لنا ، نحن الذين لم نحارب من قبل ، يوماً مشهوداً ... عاد الجند يصخبون بل حناجرهم ، مفاخـــرين ببطولاتهم ، واثقين من بطولات أخرى في معارك أشد هولاً واكثر صعابـاً ، سيخوضونها بكل تأكيد ، ويصنعون لبلادهم تاريخاً مجيداً وذكراً لن ينسى في فلسطين ..

●

وإنك لتشعر بفخر عظيم حين تنتصر في أول معركة تخوضها.. لقد داخلتني رهبة الحرب حين غادرنا المعسكر لننصب كميننا ، ثم سرعان ما زالت الرهبة بعد هنيهة من اختفائنا في حقل القمح . ولكني الآن أشعر بفخر واعتزاز ونحن نعود إلى معسكرنا . لا شك أن هذا الاعتزاز سيخلقني خلقاً جديداً ..

وقضينا هذا اليوم يوماً لا ينسى .

ولا تستطيع الكلمات أن تصور فرحة شاب في أول شبابه ينتصر في اول معركة من معارك طالما كان يحلم بمثلها ..

## ٢

عدنا الى معسكرنا نطوف بتلك المصفحات وما تحمل من سلاح وذخيرة وأرز في قدوره لا يزال ساخناً .. والخبز والدقيق والسكر والشاي والدخان وحتى الخميرة . سيارات محملة بالمؤن من كل لون وزعنا منها على من حضر من سكان دير البلح . وظل بعضها تموينا لنا أكثر من شهر حملناه معنا الى بيت لحم بالاضافة إلى البنادق والمدافع الرشاشة التي كنا لا نملك منها شيئاً يذكر من قبل ، والآن تسلح جميعنا بسلاح جديد .

ومما وجدناه في إحدى المصفحات جندي صهيوني ميت . ولم نجد سبباً لموته قط . ولا زلنا حائرين في سبب موته ، لأنه لم يصب بأي أثر في جسمه .. ولا زلنا نرجح بأنه مات بالرعب أو بسكتة قلبية ..

وطبخنا من مؤونتهم غذاء ليومنا ذاك مضربين عن تموين الجيش .. كان لذيذاً حقاً .

وظلت المصفحات بأيدينا أياماً بعد ذلك رغم محاولة القيادة ضمها إلى نقلياتها

ومصفحاتها ، وظلت معنا في بيت لحم وإن لم نستخدمها في معركة بعد رامات راحيل .

## ٣

أرأيت هذه البطولة التي صنعناها بأيد ليبية ١٠٠ ٪ إذا استثنينا مدفعي الميدان ... هذه البطولة يدرسها طلاب المدارس الاعدادية الليبية جميعها. يدرسونها الآن وهم يشعرون ببطولة أصحابها النادرة ولكنهم لا يعلمـــون ان الليبيين هم اصحابها الحقيقيون ، لأن المؤلفين يسندون هذه البطولة إلى غيرنا ، يسندونها إلى أبناء قطرهم بإلحاح ولا يشيرون الى ليبيا من قريب ولا من بعيد .

والطالب الليبي لا يشعر ببطولات قطره ، وماذا عساهم يشعرون لو علموا الحقيقة ؟ على الأقل سيشعرون بشعور مؤلفي الجزء الثالث من كتاب القـراءة الاعدادية ، الذين يقصون هذه القصة محرّفة ... باعتزاز وفخر ببطولات قطرهم ، وعنونوا لها بأنها « من ذكريات فدائي » ويزعمون أنهم نقلوها عن مذكرات السيد كال الدين حسين ..

ما ضرّ المؤلفين لو أسندوا البطولات الى أصحابها الحقيقيين .. وكلنا عرب .. ولعل القارىء لا يعلم ان هذه المصفحات الثماني عشرة هي أكبر غنيمة غنمتهـــا جيوش الدول العربية الستة ، وأن قيادة الفدائيين لم تكن لها مصفحات غير هذه التي ظلت ترافقنا هنالك في بيت لحم ، إلى أن انتهت الحرب وعدنا بها الى رفح ، وهنالك ودعناها في طريقنـا إلى الوطن ..

## ٤

لا علينا ، كلنا أخوة ؛ نصر أيّ منّا نصر لنا جميعاً تهزنا مسرته ، وهزيمة أيّ منا هزيمة لنا جميعاً تسوؤنا نكستها . ولم ننم هذه الليلة لفرحة النصر .. ولفرحة أخرى جاءت من مصر ، هزت مشاعرنا بالسرور . لقد أعلن الليلة بأن الجيش المصري سيشترك في غزوة فلسطين أيضاً ، مع جيوش الدول العربية الأخرى . خبر لا بد أنه سر جميع العرب وبخاصة اولئك الذين كانوا مستائين من موقف الحكومة المصرية ، ومنع جيشها من المساهمة في حرب تحرير فلسطين.

●

الآن خاب فأل إخواننا الفدائيين المصريين المنافسين لحزب رئيس الوزارة المصرية السيد محمود فهمي النقراشي .

لقد كانوا يقولون : ان النقراشي لن يدخل الحرب في فلسطين إلا اذا أذن له الانجليز بذلك.. والآن لست أدري ما عسى يقول منافسوه الحزبيون، ولكنهم بلا شك سوف تهزهم الفرحة التي ملكت علينا مشاعرنا ، كما تهز أرجاء العالم العربي والإسلامي جميعه .

## ٥

ومن غد ١٤ مايو أصبحنا في معسكرنا والفرحة المزدوجة تغمر قلوبنا .. وربما شعر بعضنا بالأسى لشعوره بأن مهمتنا قد تنتهي غداً بدخول الجيوش

العربية ،وفي مقدمتها الجيش المصري، دون ان نكون قد بذلنا مجهوداً يذكر.. لا بأس ان تنتهي ، ما دامت قد انتهت بنصر العرب ..

سبع جيوش لدول عربية .. كم تظنون أن جيوشنا هذه سوف تستغرق في احتلال المستعمرات والمدن الصهيونية ؟كنا نستكثر عليها ثلاثة أيام ، وحقاً لقد كان التقدير صادقاً من حيث القوة والقدرة التي تملكها هذه الجيـوش إلى جانب قوات الصهاينة المشتتة في مستعمرات متباعدة من أرجاء فلسطين ..

●

وأما الجانب السياسي فلم نكن نحسب له حساباً ، وهو جـــانب ملتو .. تكتنفه ظروف غامضة .. وأحوال قاهرة .. وأمور واقعة .. ولم نقـدر أن جميع السلاح الذي في يد هذه الجيوش العربية محتكر لبريطانيا .. ولم نكن نعلم أن بعض الوزراء في بعض بلادنا يتطلعون إلى اشارة السفراء الانجليز . ولم نقدر شيئاً آخر ، غير ان الحكام العرب قد أعدوا لكل أمر عدته حين قرروا ان تشترك جيوشهم في تحرير فلسطين ، والفضل في هذا الاقتراح والتصميم على تنفيذه يرجع للملك عبدالله على ماسمعنا..وغداً سنفرح بدخول الجيوش العربية، وسنشهد الجيش المصري على هذا الطريق أمام معسكرنا .

## ٦

وبينا نحن نفكر فيما عسى ان يكون مصير اليهود ... إذا بالإنباء تحمل إلينا اجتماع اليهود اليوم وإعلان دولة لهم في فلسطين أرض العرب. أعلنوا دولة شعب الله المختار كما يرون انفسهم .. يرون انفسهم أفضل من كل الورى وسـادة خلق

الله جميعهم . ساعدهم الاستعمار الانجليزي والنفوذ الأميريكي ، وجمعوهم اخيراً في بلادنا ..

ليشردوا أهلها الحقيقيين ..

وليعلن الصهاينة لهم دولة ..

يا للمهزلة ..

اليهود أخيراً يعلنون لهم دولة في أرضنا .. وأية دولة ؟ دويلة عصـــابات مهددة غداً بسبعة جيوش عربية . يا لها من مهزلة ... تعلن اليوم لتسقط غداً . ومن ذا المغفل الذي سيعترف بها ؟ من ذا الذي سيعترف بدويلة وليد ، حكم عليها بالموت قبل ان تولد ؟ ومن ذا الذي يجرؤ على معاداة سبع دول عربية في سبيل الاعتراف بعصابات أعلنت نفسها دولة ؟

ولكن بعد دقائق من إعلان العصابات لدولتهم جاء الرد من وشنطن . أعلنه ترومان رئيس الولايات الاميريكية . أعلن اعتراف بلاده بدولة إسرائيل .. ولم يعد خافياً الآن ان ولايات امريكا كانت تعمل بكل قواهـــا لاغتصاب أرض العرب ، لإقامة دولة للصهاينة عليها . وأنها اصبحت تدس أنفها في وحل العداوة للشعوب . والقوة تغري بالظلم ، والظلم سيدمرها في النهاية . وهذه بداية النهاية ، علاوة على ما ينخر في مجتمعها من امتياز عنصري وامتياز طبقي وانهيار خلقي .

●

... وترومان هذا ، لعله كان يحلم بحلم عزيز عليه مثل ما كان الحلم ذاته أمنية آمال هتلر ، وهو نفس الحلم الذي يتمناه أبناء العروبة أجمعين .

ولعل ترومان لم يكن يتصور ، قبل ان يتولى رئاسة بـــلاده ، ان مخالب الصهيونية تمتد الى كل هذه الشعاب والوجوه في حياة أميريكا كلها ، يتسلطون على شرايينها .. حتى لمس مخالب الاخطبوط بنفسه . وقد اصبح من أمنيـــاته

العزيزة أن يخلص شعبه من هذا الكابوس . وكان يخيل إليه أنه بمجرد إعلان دولة لإسرائيل سيفر جميع الصهاينة من بلاده الى دولتهم الموعودة . ولكن خاب ظنه ، سيبقى الكابوس يستنزف حياة بلاده .. ويحيطه هو نفسه بأغلال لا يستطيع منها فكاكاً ، حتى يدمروا الحضارة الامريكية الوليدة تدميراً . ولما كان ترومان لا يستطيع أن يجاهر بأحاسيسه ـ مثله في ذلك مثل غيره من رجال بلاده ـ خشية بطش الصهاينة ، فإنه لن يجد مناصاً من تملقهم ومداجاتهم.

هذا ما نظنه . ولعل ما نظن حقيقة أو هو دون الحقيقة .

## ٧

ثم اشرقت شمس اليوم الفاصل ١٥ مايو ... في هذا اليوم ينتهي الانتداب الانجليزي على فلسطين ، وفي هذا اليوم ستدخل فلسطين الجيوش الرسمية لسبع دول عربية . أما قبل هذا اليوم فقد كان القتال مقصوراً على بعض فرق المواطنين من أهل فلسطين وفرق المتطوعين من البلاد العربية من أمثالنا .

نهضت اليوم مبكراً ، مثل كثير من اخواني في المعسكر ، لنشهد زحف الجيش الباسل ، الذي نتوقع منه ان يدك كل ما يقع أمامه . ولم يكن في العالم العربي احد يتخيل ان تكون هنالك حرب إلا ان يقوم الصهاينة بمناوشات هزيلة لا تقوم في وجه بعض جيوش الدول العربية . ومع الفجر كنت أقف على جانب الطريق مع جماعة من الشباب الفدائي ، لأشهد مدى ضخامة وقوة الجيش المصري لعلي أطمئن لمصير قومي ، وكأني أرى فيه صورة للجيش العراقي والأردني والسوري واللبناني. وأشرقت الشمس ولم يمر الجيش بعد ، ونحن نترقبه بين لحظة وأخرى ، حتى ارتفع النهار .

●

وبعد حين ترامى الى أسماعنا عن بعد هدير وضجيج سلاسل الدبابات ، مقبلة من خان يونس . ودهشنا للمشهد الضخم ، ومظهر القوة الجبارة للجيش العظيم .. وامتلأت نفسي بالزهو والخيلاء لهذه الدبابات الضخمة ، والمدرعات المنيعة ... لو كنت قائدها لما توقفت دون احتلال تل أبيب . وأي جيش يجرؤ على الوقوف في وجه هذه القوة الضاربة ؟ إذا كانت لها ذخيرة كافية ، وظل سيلها متواصلاً ساعات متابعة ؟.. وعلمنا أن زحفاً آخر وقوة أخرى مثل هذه أو أشد قد تزحف عن طريق العوجا – حفير وبئر السبع .

●

وكان هذا اليوم في نظر الفلسطينيين المتجمعين على جانبي الطريق يوماً مشهوداً .. يوم عيد وفرح وسرور .. ويكفيهم ان يروا جيشاً عربياً بلغ من العظمة هذا الحد .

وكان الرجال والشباب قد قطعوا عشرات الأكيال ليستمتعوا بهذا المشهد . وربما جرى الأطفال إلى جانب الدبابات أكيالاً واكيالاً من مدينة خان يونس الى ان وصلوا دير البلح ، يهرولون وراء الدبابات والمدرعات . ولعل منهم من وصل الى مدينة غزة ..؟ ولاطفال العرب الحق في ان يفرحوا بجيشهم ومظهر قوة قومهم ، وعنوان مجدهم .

●

وبعد حين أقبلت طائرات مصرية ألقت علينا مناشير بلغات مختلفة .. تدعو سكان فلسطين الى الاستسلام والطاعة .. وتنذر أي فرد أو عصابة تسوّل لها نفسها ان تعبث بالأمن أو النظام . والجيش المصري كفيل بإتباب الأمن والضرب على أيدي الجناة ...

وظل سيل الجيش طافحاً يغمر الطريق يكر على هذا النحو ، حتى انتهى النهار ؛ وعدنا الى معسكرنا ، وتركنا قواته لا تزال تسعى إلى قلب فلسطين .. فكان اليوم عيداً من أجمل الأيام وأسعدها . وأي عربي يشهد هذه القوات العظيمة إلا ويسر سروراً ما بعده من سرور !..

لقد شهدنا في الحرب العالمية الثانية قوات المحور والحلفاء : الألمان بدباباتهم وسياراتهم ومدافعهم وطائراتهم ، والطليان الذين التجأوا الى حميرنا وبغالنا وافتكوها من أيدينا قسراً ، ليحملوا عليها ميرتهم وذخيرتهم .. وشهدنا قوات الحلفاء وهم يتناوبون بلادنا كرّاً وفرّاً . وها نحن ولأول مرة نشهد قوات عربية لا تقل في مظهرها عن قوات دول الحرب العالمية ..

مشهد لم نكن نحلم بمثله .. لم نكن نحلم بأن لنا دولة عربية تملك كل هذا .. مشهد عظيم نسينا معه أننا وقوف هاهنا من الفجر حتى انتهى النهار ، ولم نشعر بعتب ولا جوع من فرط ما ألم بنا من سرور ..

●

وكم تساءلنا : ما الحاجة إلينا نحن المتطوعين بعد هذا الجيش الجرار .؟ وأين قوتنا الهزيلة مما رأينا؟ ونحن بضعة مئات من الرجال يحملون بضعة عشرات من بنادق خربة ، ونسمي أنفسنا قوة ؟ هذه القوة حقاً التي رأيناها اليوم ، وما عداها فعبث ...

ولكن هل ستصدق الأيام مشاعرنا ؟ نحن جئنا لنستشهد ، أو بعبارة صحفية : جئنا لننتحر في مذابح الله ، رغبة في رضاء الله وجنته .. ولا ننوي ان نعود للوطن ، فهل جاء هذا الجيش بنفس الشعور ؟

# ٨

ومرّ الجيش المصري من جانب مستعمرة كفارداروم المجاورة لنا دون أن يتعرض لها ، وتساءلنا لماذا ؟ وكم تمنينا أن يكتسحهـــا أول ما يكتسح بهذه المدافع والدبابات . ولكن ماذا تستطيع مستعمرة صغيرة ان تفعل ؟ يكفي أن يحاصرها بضعة أسابيع لتستسلم من تلقاء نفسها ، فالجيش ذاهب لاحتلال المدن ومواطن التجمعات الكبيرة ..

وعدنا الى معسكرنا نبحث عن نشرات الأخبار وكيف اكتسح الجيش المصري مستعمرات الصهاينة الأخرى التي صادفها في طريقه ؟ وكيف دخلت الجيوش العربية الأخرى .. واقتحمت ما يليها من مدن الصهيونيين ومستعمراتهم؟ وما كنا نتصور الجيش يمر على مستعمرة إلا وتستسلم أو يدكها دكاً ، حتى ما يبقي لها على أثر .

•

وطالعتنا نشرات الأخبار ويا لسخافة ما طالعتنا به . من تمويـه زائف .. وخداع رخيص .. عناوين يحسبها السامع حقائق ، مثل : الجيش المصري يحتل مدينة خان يونس .. يحتل مدينة دير البلح .. يحتل مدينة غزة .. يحتل مدينة .. يحتل مدينة .. حتى كدنا نصدق بأن كل قرية عاصمة ، وكل بيت في الصحـــراء مدينة ، وكل واد خال مملكة عظيمة ..

وانتظرنا أن يكون بين المدن والممالك التي يحتلها الجيش مستعمرة يهودية واحدة .. وطال الانتظار بلا جدوى ، لم يحتل شبراً واحداً من المستعمرات

الصهيونية التي لا يحصيها العد ، وقد مر الجيش بجانبها أو قريباً منها . وكل ما في الأمر أن يمر الجيش بالقرى العربية فيخرج أهلها لمشاهدته فرحين مستبشرين كما فعلنا نحن ، فإذا الإذاعة واذا الصحافة تهلل وتطبل وتزمر .. الجيش يحتل مدينة كذا ... ويخيل للسامع أنها كانت في حوزة الصهاينة. ويتساءل : إذن، ماذا بقي في فلسطين ؟ لقد استخلصت جميعهامن أيدي الأعداء. وهكذا سدرت وسائل الإعلام في تغرير الشعوب العربية وتوريط الحكومات بناء على بلاغات عسكرية كتبها المحررون في غلواء نشوة سكرة كاذبة ..

وكنت أرى لو أن البلاغات تحرت الحقيقة ، وأدرك الشعب العربي أن الجيش لم يكسب أي انتصار .. لأدرك قدره الحقيقي ، وقدّر جيشه وقوته ، ولما سدر في وهم مغرور .. وورط حكوماته في اندفاعات طائشة .

## ٩

وما هي الجيوش العربية ؟

هي الجيش المصري ، وتعداد الذين دخلوا منه فلسطين حتى الآن نحو ستة آلاف ، ونحو ثلاثة آلاف من المتطوعين المصريين والليبيين .

ثم الجيش العراقي وتعداد الذين دخلوا إلىفلسطين منه ١٥٠٠ ،على ما يقال ، ثم الجيش الأردني ، وعدد الموجودين منه في فلسطين نحو الأربعة آلاف .

وأما الجيش السوري فهو حديث العهد ، ولم يشرع في تكوينه إلا منذ سنتين فقط .. بعد تخلصه من سيطرة المستعمرين الفرنسيين .. ولم تهتم بـــه الحكومة اهتماماً جاداً إلا أخيراً ، لانشغالها بمشاكل أخرى عميقة الجذور .. وعدد الذين دخلوا إلى فلسطين من الجيش السوري لا يصل بأي حال الى ألفين .

والجيش اللبناني دخل منه إلى فلسطين الف جندي ، ومعظم هـذا الألف

وقف حيث تنتهي حدود لبنان بفلسطين .

ودخل من الجيش السعودي نحو خمسمئة رجل .

وربما يوجد أربعة آلاف رجـــل من جيش التحرير الذي يقوده فوزي القاوقجي .

فعدد الجيوش العربية المشتركة الآن في القتال فعلاً ، أو بعبارة أصح : الذين جاءوا للقتال ، لا يصل عددهم الى خمسة وعشرين ألف مقاتل ، وهي تتزايد كل يوم ولكنها بعدد ضئيل. وإذا صدق سلامة في تقديره للجيش العبري فمعنى ذلك أن جيوش الدول العربية الستة لا تساوي نصف جيش اسرائيل ، هذا باستثناء ما لدى اليهود من احتياطي يساوي هذا العدد أيضاً .

واننا لنأمل أن يكون ذلك الجاسوس واهماً في تقديره ، أو مبالغـاً فيه . وحتى لو صدق ، فإن هذا الجيش الصهيوني موزع في مستعمرات متباعـــدة ويسهل تحطمه ، لو أخذت كل مستعمرة على حدة ، حتى ولو كان التقرير صادقـاً ..

## ١٠

واستمرت وسائل الإعلام العربية في التغرير بالشعوب العربية . فقد قالت إذاعة القاهرة : إن الجيش المصري نجح في التغلب على مستعمرة ( الدنقور ) ، قرب غزة ، ونحن لم نشهد هذا النجاح .. إنها لا تزال صهيونية .. وقالت إنه لم يبق على الجيش المصري الا بضعة عشر كيلا على تل ابيب وهو في طريقه الى احتلالها . وان الجيش العراقي بات على أبوابها من الجانب المقابل ...

ويخيل للشعوب العربية ان مـــا دون تل ابيب أصبح خالصاً بيد العرب ، لا سلطان للصهاينة على شبر واحد منه ...

●

والحقيقة ان الجيوش العربية تقدمت في الممتلكات العربية بحذر ... وكاد الفلسطينيون يتنفسون الصعداء بمجيء الجيوش العربية ، لولا أنه في اليوم الثاني من غزو الجيوش العربية كانت مدينة عكا العربيـة التاريخية الشهيرة ـ كانت تتداعى تحت ضربات الصهاينة. وجيش التحرير ينحدر عنهـا حتى سقطت في نفس اليوم .

ولا نعلم جيشاً عربياً اشتبك بالصهاينة بعد ، الا الجيش السوري الذي هاجم مستعمرة ( سمخ ) منذ أول ساعة من دخوله وسقطت بيده فعلاً يوم ١٨ . وفي ذات اليوم الذي سقطت فيه مستعمرة ( سمخ ) كان اليهـود يحتلون حي النبي داود العربي من مدينة القدس ، الواقع في منطقة الجيش الاردني .

وما عدا ذلك فقد كانت جيوش الدول العربية تتقدم في الأراضي العربيـة الصرفة وحدها ولم تتعرض لمستعمرة صهيونية إلا تلك التي تقف منها في طريقها عقبة كأداء. وحتى الجيش السوري الذي احتل مستعمرة ( سمخ ) عاد فانسحب منها بعد ثلاثة أيام .. وها هو الجيش المصري بعـد بضعة وعشرين يوماً من غزو فلسطين يحتل مدينة عراق سويدان ووصفتها جريدة الأهرام بالمدينة الكبيرة..

والتفت بعضنا إلى بعض!...حتى عراق سويدان القرية الصغيرة ، اصبحت بعد عودتنا منها مدينة ..؟

والمشاهد لجيوشنا بعد بضعة أيام ، وهي ساكنة ولم تقم بأي عمل ، يعجب .!! يتساءل بينه وبين نفسه : فيمَ وقوفها ساكنة ؟ ولماذا جاءت إذن ؟ لا بد وأن يكون هنالك سر وراء الأكمة .!

# رَامَات رَاحِيْل

# ١

ولنترك الجيوش وشأنها ونعد الى وصف حالتنا ... ذكرنا أن إخواننا المصريين ، الذين هاجموا مستعمرة كفار داروم ، عسكروا في اليوم الثاني في معسكر النصيرات البحري ، وعدنا نحن فعسكرنا بالمعسكر القبلي حتى كان يوم ١٧ من الشهر نفسه مروا بنا راحلين الى بئر السبع ومعهم الليبيون المنشقون عنا في العريش ، وكان عدد الليبيين معهم يزيد على مائة وخمسين ، وليس بينهم ضابط ليبي واحد ، اذ هم جميع تحت قيادة ضباط مصريين ، قليلي الخبرة بشئون الحروب ، ومعظم رجالنا اشتركوا في أكثر من حرب ، أما نحن فليس بيننا ضابط واحد غير ليبي سوى القائد محمد سرور السوداني ..

●

وهم في طريقهم الى بئر السبع عادوا الى خان يونس ، ثم إلى رفح فإلى عصلوج. وفي الطريق تعرضوا لمستعمرة صهيونية ضربوها للإرهاب، وفي صحبتهم قائدنا الأعلى أحمد عبد العزيز الذي أُبلغ بأنه أصبح تابعاً للجيش المصري . وبعد بضعة أيام جاءنا نبأ بانهم هاجموا مستعمرة تقع شرقي مدينة بئر السبع تسمى ( بيت إيشل ) وضربوها بالمدافع ، وكنا نتوجس أن تتكرر لهم نكبة كفار داروم . ولكننا علمنا أنهم لم يفقدوا سوى شهيد واحد : ضابط مصري من مجموع الضباط الاثني عشر .

ثم تركوا حاميـة في بئر السبع وأخرى في عصلوج ، ورحلوا إلى الشمال في اليوم الثاني من مهاجمة مستعمرة ( بيت إيشل ) .

## ٢

وفي يوم معركة مستعمرة ( بيت إيشل ) أمرنا بالاستعداد للرحيل غداً إلى جهة ما ..؟

ثم اتضح أن وجهتنا الى القدس . القدس العربية بعد بضعة عشر يومـــاً من إقامتنا في معسكر النصيرات . وفي يوم ٢٤ / ٥ سارت القافلة متجهة إلى القدس في ضحى سماؤه زرقاء ، وظلاله ندية، ونسيمه جميل ، والسيارات تطوي طرقاً تحفها بساتين تعبق برائحة طيبة من شجر البرتقال .. وهنالك في السماء قطع من سحاب تعبر السماء وتحجب الشمس وكأن اليوم من أيام الخريف .

●

سار ركب الليبيين الى أن وصل دير سنيد، فإذا العلم المصري يخفق على خزان مستعمرة ( يدمر دخاي ) هنالك ولا يزال الدخان يصاعد من بعض أطرافها من آثار معركة انتهت أمس فحسب ، بعد صراع دام خمسة أيام .

مررنا بهذه المستعمرة الملاصقة للطريق مرتين قبـل هذا اليوم ، ولم نتعرض لها ولم تتعرض لنا . ولما جاء الجيش المصري دير سنيد بعد أربعة ايام من دخوله فلسطين ، وجد المستعمرة العتيدة الحصينة تقف في وجهه دون مفترق طرق بئر السبع والمجدل والخليل . وكان عليه إما أن يقف عند هذا الحـــد أو يقتحم المستعمرة التي تقطع طريقه .. ولذا اقتحمها يوم ١٩ ورفعت المستعمرة الأعلام

البيضاء علامة التسليم .

ولما تقدم الجيش وانكشف ، فاجأه العدو بالرصاص فقُتِل منه خلق كثير.. ولذا قذفوا المستعمرة بكمية من القنابل تكفي لاحتلال تل أبيب .. انتقاماً . وبالأمس فقط سحقت المستعمرة وفتحت الطريق ودفع العرب مئتي شهيد على أقل تقدير ..

●

حينما يحدُّ الجيش يدمر المستعمرات الحصينة العتيدة ، وتساقط بين أقدامه واحدة واحدة ، حتى تسحق أشلاء الجيش الاسرائيلي أخيراً ، وتخر إسرائيل إلى الجحيم ...

لو حمل العرب حملات صادقة مثـــل حملة ( يدمردخاي ) لانتهت إسرائيل ..

●

وقبل أن يصل الليبيون إلى الخليل في أثناء الطريق اجتمعوا بقافلة الكتيبة المصرية التي رحلت إلى بئر السبع ومعها معظم الليبيين المنشقين،ولم يبق منهم إلا قليل جداً في بئر السبع وعصلوج وكانوا هم أيضاً ذاهبين للقدس . كنا وحدنا في هذه القافلة نركب سيارات ومصفحات خاصة بنا ، انتزعناها من أيدي الصهاينة في يوم رهيب . وذلك ما يضفي على ركبنا روعـة تشع في أعطافنا بالبأس والزهو .

سار الليبيون جميعاً في اتجاه القدس ، إلا حامية صغيرة منهم دون الخمسين رجلاً ، بقيت في معسكر النصيرات تتولى حصار مستعمرة ( كفار داروم )بدير البلح ، وحراسة المعسكر .

ووصلت القافلة مدينـــة رسول الله سيدنا إبراهيم الخليل ، وطلعت عليهم المدينة الخالدة بأنفاس ريحانها الطيب ، متألقة تحفها الجبال الخضراء ، وقـــد تسلقها الزيتون والعنب واللوز ، متدرجة إلى بيوت جميلة ، تتربع على ذرى التلال والربى . هنالك توقف الركب هنيهة إلى جانب بساتين الكروم ، ونزل بعض الرجال يتطيبون بروح الخليل ، وشذا البلد الطاهر الذي اشتهر أهله بكرم العنصر ، وشدة البأس ، الذين يخشى اليهود بطشهم . وها هم قد أقبل كثير منهم يرحبون بالجيش ترحيباً حاراً . ويلفون حول المصفحات الصهيونية يتفرجون ويتفرسون ..

وبعدها سار الركب متعرجاً بين الجبال حتى بلغ مدينة وسطاً ما بين الخليل والقدس تسمى مدينة بيت لحم ، وفي طرفها الشمالي إلى جانب طريق القدس نزل الرجال .

وضرب الليبيون خيامهم قريباً من قبـــة راحيل ، الى جانب المصفحات والسيارات .. وأمسوا يتساءلون : لماذا جيء بنا إلى هنا ولم نجيء لحرب ؟ أهي عملية احتلال لأكبر مساحة من الأراضي العربية ولا أكثر .؟

●

وها هو الجيش المصري أيضاً وسائر الجيوش العربية تقف منذ عشرة أيام بلا عمل سوى ما رأينا في دير سنيد .. وأما نحن فإننا حتى الآن لم نواجـه قتالاً للاحتلال .

ولما وصلوا هنالك وجدوا الجيش الأردني وقد سبق لاحتلال جزء من القدس ، واحتـلال دور الحكومة في الخليل وفي بيت لحم ، واستولوا على إدارة القرى والمدن العربية غير متعرضين لمستعمرات اليهود في قليل ولا كثير . اكتفـــاء بالغنيمة أيضاً .

ولم يشعروا بصراع بينهم وبين وحدات الجيش الأردني غير أنه لا بد وأن يكون هنالك لون من الصراع الخفي بين القاهرة وعمان . ونحن لا يعنينا أن نمد في سلطان أي منهما إذا كان ذلك يبقي على الأرض عربية . وغايتنا شيء واحد هو سحق إسرائيل .. وإبقاء وطن العروبة للعروبة .

## ٣

ولما وصل الليبيون سمعوا أن أول هجوم سيكون على تلك المستعمرة ، التي تبدو من بعيد على قمة مرتفعة. ولما انطلق الجنود في مساء ذلك اليوم يتمشون ، كانوا يلقون عليها نظرات استطلاعية من بعيد ، وهم بين الاشجار المتناثرة في الهضاب الصخرية . ولو أنك ألقيت عليها نظرة من يظن أنه سيلقى مصيره فيها ، لطالعك من بعد أول ما يطالعك مبان كالحصون ، تشعشعها أشعة شمس هذا المساء . وحين يقترب منها المتطلعون يدركون أنها بنيت بعناية لتكون قلعة حصينة في خطة صهيونية بعيدة المدى. مبانيها تبدو أنها اقيمت من حجارة صلدة متينة ، على قمم عالية تتوسط المستعمرة المسورة بالأسلاك .

كان ذلك المساء جميلاً طيباً ، والأرض والأشجار والجو يشع منها نور مبارك يملأ العين والقلب بسلامه وعبيره وشذاه ، وظلال الاشجار تكسو الوهاد مسحة من الشعر السماوي ، ينبض به قلب المتأمل وتنشده الروح لصفائه وبهائه .. ولا يحتاج المتأمل لمن يعلمه بأن هذه البقاع حباها الله حقاً ببركاته ..

ولكم يتمنى المرء ان يختار مثواه الأخير ... ولو كان في الأمر خيرة لما اختار مثوى غير هذا التراب الشذي ، بين هذه الاشجار . وما الحياة ؟ وما الموت ؟ وما الدهر ؟. وما الساعة ؟ وإذا كانت الحياة الهانئة حلوة ، فالموت البطولي أيضاً جميل . وهو نهاية الإنسان ، طال العمر أو قصر ، فلا خير من

موت بطولي وفي سبيل الله.. وتلك لعمري غاية يغبطنا عليها الحكماء والأنبياء. وعيشة دهر بعد الوفاة كعيشة يوم .. ولكن موتاً بطولياً وعمراً قصيراً خير ألف مرة من عمر طويل وآخره موت هزيل . فلا خير أكثر من ان أسفح دمي في سبيل الله . في سبيل الله ... ألا تدرك المغزى البعيـــد لمعنى في سبيل الله ؟

كانت علائم هذه المشاعر تبدو على أسارير الوجوه. وحين يتطلع الجندي منهم الى المستعمرة يتطلع إليها بنظرات فيها بريق مزيج من الغبطة للقاء الله في أطهر بقعة مع النبيين ، والشعور بالبطولة في سبيل النصر .. وقد عرفت كثيرين من رفاقي تطهروا وتطيبوا يوم اللقاء.. ذلك المساء كان رائعاً ، وادعاً ، طيبـاً ، كأنه يريد أن يسهم بروعته وأشعته الصفراء على الهضاب والاشجار الخضراء ، يريد أن يسهم في الأثر الجميل الذي يتركه في النفوس يوم اللقاء ، ولسنا ندري متى يكون .؟ أهو الليلة ؟ أو في صباح الغد .؟ وهل حقاً سيكون الهجوم أول ما يكون على هذه القرية ؟

هذا ما يشاع ، ولكنه لم يتأكد بعد .

●

يشاع أن قائدنا الأعلى أحمد عبد العزيز يناقش الموضوع ويدرسه مع أركان حربه ، وربما أشركوا بعض الضباط الأردنيين . وإشراك هؤلاء يقلقنـا ، ولا نرتاح إلى اشتراك الضباط الأردنيين في خططنا . لسنا ندري لمـــاذا ؟ الأن رؤساءهم بريطانيون ؟؟ ربما . وأما الجنود فمن خير جند العرب خلقاً وشهامة وشجاعة .

ونعود إلى المخيم نتبادل الأحاديث ، معظمها حول القتال المرتقب غـداً أو بعد غد ، وعلى هذه المستعمرة بالذات واسمها ( رامات راحيل ) ، إذ علم أن القيادة أرسلت جماعة الليلة لدراسة وضع المستعمرة ومـا يبدو من استحكاماتها

والمنطقة حولها . والسبب في البدء بها وجيه ، لأنها تقـــع على الطريق الوحيد الذي يفصل بين القدس وما وراءها ، وبين بيت لحم وما وراءها . وهو الطريق الوحيد الباقي بأيدي العرب الذي يصل بين الشمال والجنوب ، وبـــين الجيوش والمناطق العربيـــة . تشرف المستعمرة على هذا الطريق وتتحكم فيه ، وهي باستيلائها عليه قطعت الصلة فيما بين مدينتي القدس وبيت لحم . وتقـــع هذه المستعمرة داخل المنطقة العربية بين قريتين عربيتين هما قريةصور باهر من الشرق، وقرية بيت صفافا من الغرب . فهي بارزة داخل الأراضي التي بأيدي العرب من وجهها ،ومتصلة بالأراضي المحتلةمن خلفها. وبالقرب منها مستعمرتان هما تل بيوت ورانونا . والإبقاء عليها يهدد قريتي صور باهر وبيت صفافا ، ويقطع الصلة بين الجيوش العربية ، ولا بد أن اليهود قد وضعوا فيهـــا امكانات عسكرية تليق بمركزها المرموق .. وكان العرب قد هاجموها في السابق أكثر من مرة ولكنهم لم يوفقوا .

●

وجاء الليل بظلامه في هدوء وسلام .

كانت أول ليلة لنا انتقلنا فيها إلى المخافر على أطراف مستعمرة ( رامات راحيل)من جهاتها الثلاث ، والليل في هـــذه البقاع الصخرية أبرد منه على ساحل غزة .

ويجلس ثلاثة جنود في شبه خندق أو وراء صخرة على ظهر ربوة تشرف على ما يقع بينهم وبين العدو .يتحدث ثلاثتهم في مخفرهم حديثاً رقيقاً أدنى ما يكون إلى الهمس ، وأحد الثلاثة يتولى الحراسة : يحـــد النظر ، ويسترق السمع ، لاكتشاف كل ما يحدث حوله . وفي ذات الوقت يشاركهم بعض الأحاديث إلى أن ينام رفيقاه ويتركاه . وإذا انتهت فترته نبه زميلا له ليأخذ مكانه ، وينام

هو ، ثم يأخذ ثالثهم دوره في الحراسة إلى مطلع النهار ، ومن ورائهم الامباشي والجاويش والضابط يتفقدون المخافر من انتهاء النهار إلى مطلع يوم آخر .

●

مضت تلك الليلة على النحو الذي وصفت ، وأصبحوا من غدٍ يتجولون على مشارف المستعمرة والمناطق التي يستعمرها الصهاينـــة حول القدس . وكانوا يستطيعون أن يشهدوا كثيراً من المستعمرات بالمنظار وبالعين المجردة .

وتشعر أن الانجليز قد أحسنوا صنعاً لربيبتهم اسرائيل ، فهم لم ينسحبوا حتى اطمأنوا لسيطرتها على معظم الأراضي العربية حسب التقسيم المتفق عليه . وساعدوا اليهود مساعدات سرية وسافرة أحياناً كما حدث في يافا وحيفا ..

## ٤

وقبيل منتصف الليلة الثانية كانت كل كتيبة تستمع للأوامر الحربية : كيف ستجري المعركة بعد ساعة واحدة ؟ سنهاجم المستعمرة من ثلاث جهات : من الغرب والشرق والجنوب ..

وتلقت كل سرية أوامرها ، وعلمت واجبها ، وعرف كل فرد ما يجب أن يعمل . وساروا من فورهم تجاه المستعمرة ( رامات راحيل ) ، واجتمع حولها المقاتلون من الليبيين والمصريين والفلسطينيين من كتيبة الجهاد المقدس والأردنيين والسوريين ، إذ كانت جماعة من الإخوان المسلمين السوريين معسكرة هنالك . وجاءت مصفحاتنا لأول معركة .. تلك المصفحات التي غنمناها في دير البلح ،

ومعها مصفحتان أردنيتان . ولما أحدق الجميع بالمستعمرة ، وبعيد منتصف الليل ، طفقت مدافع الميدان المصرية المتمركزة شمال بيت لحم تقصف حصون المستعمرة قصفاً عنيفاً ، طيلة ثلاث ساعات متوالية . ورد عليها اليهود يضربوننا بمدفهم الوحيد من رامات راحيل ..

ومدافع الهاون العربية تصب حممها أيضاً على المستعمرة ، ثم مئات من الرشاشات وأضعافها من البنادق يتبادل بها الطرفان سيلاً من الجحيم ، أتى على الأخضر واليابس .

وأصابت مدافعنا الثقيلة أهدافها في الصميم ، تدك الأبراج العالية والبيتين الكبيرين ، أو بالأحرى الحصنين الضخمين والاستحكامات والخنادق .

وقد أعجب المدفعيون الليبيون الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية ، اعجبوا بدقة المصريين في اصابة الأهداف . ولما كانت القنبلة تنفجر وسط الاستحكام المطلوب قال أحد المدفعيين الليبيين : لم أر مثل هذا قبل اليوم . أشهد أن المصريين مدفعيون لا يبارون . . وأصابت القذيفة مدفع اليهود فدمرته . . وخرس صوته إلى الأبد . . .

عندئذ تقدمت أربع من مصفحاتنا والمصفحتان الاردنيتان ومعها الرجال يزحفون نحو الخندق المضروب حول المستعمرة . ولما سكن مدفع الصهاينة استعاضوا عنه بمزيد من سيل الرصاص يرسلونه في حالة من الجنون والرعب ، يريدون بإصرار عنيف أن يردوا المغيرين العرب لئلا يقتحموا خنادق مستعمرتهم أو يقتربوا منها . .

والعرب مستميتون ومصرون إصراراً لا تراجع فيه ، لا يردهم عن المستعمرة حديد ولا نار ، ولا أي بلاء ، كائناً ما كان . . وهكذا يدور الصراع عنيفاً . لقد كانت جديرة أن توصف بالمعركة . يتمنى المرء أن يخوض أمثالها في غير هوادة ولا راحة . . وخوض عشرات من أمثالها يشعرك حقاً بأنك تحارب . .

وأين هذه من ذلك الخمول الذي ترقده هذه الجيوش التي دخلت فلسطين .

●

وقرب بزوغ الفجر اشتد القتال إذ ظن الصهاينة أنهم إن نجحوا في رد العرب هذه الساعة فلن يستطيع هؤلاء بعدها التقدم في وضح النهار .

والتهب السلاح ، وانفجرت الأرض كالبركان تتفجر من كل بقعة ومن كل شبر . ولكن ، وحتى بعد تجلي النهار ، فقد كان المغيرون لا يزالون يتقدمون .

وفوجىء الفدائيون بتيار من سيل عنيف جارف من مخلوقات ضخمة تنطلق من أعلى القرية منحدرة في هجوم جنوني نحوهم .. كانت أشبه ما تكون بأفيال تسحق كل ما يقسع أمامها من أحياء . ودافع عن نفسه كل من كادت الحملة تصيبه . وقتل منها عدد قليل . ولكن معظمها ذهب يعدو متحدراً وراء خطوط الهجوم . كانت هذه المخلوقات عشرات من أبقار الجاموس الهولندي الضخم ، انطلقت مذعورة من هول ما ألم بالقرية من بلاء . وظن المجاهدون أول الأمر أنه لون من تدبير اليهود في الدفاع عن أنفسهم ، وانتهت هذه العاصفة كزوبعة هاجت ثم سكنت في ذروة من الجحيم لا تزال مشتعلة .

●

وزحف المجاهدون على بطونهم تحت سيل ملتهب من رصاص الأعداء ، يتقيه كل امرىء بما يستطيع وما لا يستطيع .. يزحفون على شوك وصبار واحجار حادة ، وكانت الاعشاب كثيفة أحياناً ، بعضها قد جف وقليل منها لا يزال طرياً .. ولكن لا أحد يحس شوكها أو يشعر به . وهم يتصاعدون إلى ظهر الهضبة رويداً رويداً . ويصوبون نيرانهم إلى الأهداف في غير هوادة. ولا أرى

ان أحداً من هؤلاء المئات المهاجمين لا يشعر بدوره البطولي المغامر في هـذه اللحظات ، وهو يزحف في خفة تجاه مخابىء أعدائه .. مما يثير الحماسة البطولية والتضحية في غير مبالاة ، شعوراً بأن عملية التحرير قد بدأت حقاً .

لقد أثار الهجوم العنيف حماس الفدائيين . ولا يستطيع كثير من الإخوان أن ينسوا ذلك الشيخ التونسي الذي يدعونه بعمي الحاج ، إذ لم يستطع أن يضبط حماسته ؛ ورغم تأنيب رفاقه وكبتهم له ، وقف وسط المعركة يصيح بأعلى صوته ، يعير رفاقه ، بالجبن ، ويصيح : اهجموا عليهم !

والوقوف في مثل هذه الحالات انتحار أكيد ؛ لأن العدو متحصن في علو كاشف مسيطر على الميدان . والفدائيون يزحفون صعداً من انخفاض ، وحاول رفاقه أن يشدوه إلى الأرض بالقوة ، ولكنه أخيراً ، وفي سورة من حماسة الجميع ، انطلق يجري ويقذف الرصاص من سلاحه ، حتى خرّ صريعاً هنالك ، داخل القرية ، وهو يصيح : اهجموا ، اهجموا !

ولعله أول شهيد يخر في هذه المعركة .

●

ولما أحدقنا بالخنادق من جهات المستعمرة الثلاث اشتد رعب اليهود واستماتوا يدافعون .. وقد قدرنا عددهم في تلك الحال بخمسمئة مقاتل أو يزيدون ، ولقد تبينا فيما بعد صحة هذا التقدير . ولما أحدق البلاء بالصهاينة استدعوا النجدات. ولاحظنا هذه النجدات تتسلل من مستعمرة رافونا . كانوا يتهافتون لنجدة زملائهم ، ولكن أحداً منهم لم يصل إلى المستعمرة . لقد أبيدوا جميعاً . ضربناهم من تل صور باهر الذي سقط بأيدينا، والذي كان يشرف على المستعمرات الثلاث ، وفي مثل هذا الحال لا بد وأن تأتيهم نجدات من مستعمرة تل بيوت أيضاً ، ولكن أي طريق سلكت؟ لسنا ندري ...رغم أننا كنا نشعر بازدياد قوتهم حقاً .

●

وحول الخندق ، دار أعنف قتال ، والقنـــابل اليدوية لم تفعل شيئاً في الطرفين،ولكنها استطاعت أن تخلي ثغرات يتسلل منها فدائيون باعوا أرواحهم لله ويرجون أن يلحقوا بالرفيق الأعلى . تسللوا منها الى بعض الابراج العـــالية المسيطرة على الميدان .. وإن كان بعضها وقف في وجه الغارة حصيناً ، فلم يأت سيل القنابل بنتائجه المرجوة .. رغم الفجوات التي خلفهـــا في خط دفاعهم عموماً ، أو هذا ما كنا نشعر به .

وعلى أولئك الذين تسللوا أن يتقـــدموا لنسف الأبراج . وتلك مغامرة رهيبة .. لا يأتيها إلا ذو قلب صخري ، لأن الموت فيهـا أكيد وشبحه ماثل للعيان ، ولكن الذي يبدو أن الحياة رخصت .. ولم يعد لها في قلوب الشباب ثمن ، وتقدموا لنسفها تحت ستار من الدخان . وكانت المفاجأة التي لم يكن اليهود يتوقعونها ، اذ انفجر أحد أبراجهم وضاع في الجو رماداً منثوراً تذروه الرياح. وما كاد يستقر صدى دويه الذي تزعزعت منه القرى ، وزلزلت به الأرض ، وارتجت له الجبال ، حتى دوى انفجار استحكام آخر .

انه لضحى رهيب حقاً ، صب فيه البلاء صباً ، وما بقاء الصهاينة في بقية الاستحكامات والخنادق المضروبة حول القرية وقد سقط بعضها ؟... سيتسرب خلالها المهاجمون إلى قلب المستعمرة ، ولا مفر من انسحابهم او ينتحرون .

وسكت خط الدفاع الذي كان مضروباً حول المستعمرة ،والذي كان مقدراً له أن يكون أهم خطوط الدفاع، وبذلت فيه جهود جبارة ليستحيل اختراقه . ولكن ها هو الآن في أيدي العرب ، يحتمون بسراديبه واستحكاماته لمهاجمة قلب المستعمرة وقد قتل فيه من اليهود عشرات .

●

وأما المستعمرة ذاتها فهي مجموعة من المباني قليلة ، تتوسطها بنايتان اثنتان

كبيرتان بارزتان مكونتان من ثلاثة أدوار ، هيئتها هيئة المنازل ، ولكنها في الحقيقة قلعتان محصنتان ، أسستا لتكونا درعاً قوياً من الدروع الحاميـــة للقدس التي يتشبث بها اليهود كأغلى شيء في الوجود .

وهؤلاء اليهود قد انتقلوا الآن إلى القلعتين يصوبون إلينا الرصاص من الطابق الثاني والثالث فيها. والمستعمرة جميعها تقع تحتها مكشوفة لمن في هذين الحصنين.. وقد أصبح من المتعذر على المجاهدين أن يتقدموا شبراً آخر، والرصاص لن يكون له أثر، لأن الصهاينة يضربون من وراء حصن خلال كوى صغيرة لا ينال الرصاص مَن وراءها، وقنابل الهاون لا أثر لها فيها، ولذا أعيد ضربها بمدافع الميدان الثقيلة.. ورغم ما أحدثته من فجوات استمرت مقاومة الصهاينة عنيفة، لم يستطع معها الجيش أن يتقدم ... ونجاح رجال المفرقعات بنسف الابراج أغراهم بالمخاطرة مرة أخرى . ولكنهم في هذه المرة يقدمون أنفسهم للمذابح انتحاراً ميؤوساً منه . ورفضت القيادة هذه المغامرة الطائشة ، ولكن لاشيء غيرها يغني ، ومع ذلك لم تسمح القيادة بهذا الانتحار .

ولما يئس الفدائيون وأدركوا أن الوقوف سيطول ، لم يجدوا إلا أن يطبقوا الدرس الذي انتهجه الشيخ التونسي ، عمي الحاج ، منذ ساعتين مضتا : يتقدمون للموت ويداهمون هذا البيت وقوفـاً ومكشوفين.. ولكن من الذي يجرؤ على انتحار طائش لا غناء منه ؟ ومع ذلك فهذا الذي حدث .. كلهم كانوا يرغبون في الانتحار . بل في الحقيقة معظمهم ، لأن بعضهم لم يكن راغبـــاً في موت طائش .. كان هذا البعض يصف الفكرة بالجنون ، قائلاً :

– أنا لا أوافق على الانتحار انتحاراً باطلاً لنفسي ، ولا لأحد غيري ، ولا يأتي هذا الرأي إلا من مجنون يلقي بشباب بلاده إلى التهلكة ...

●

وزاد قذف الرصاص من رشاشات الصهاينة وكأنهم اطمأنوا الى أن العرب

لن يصلوا إليهم .. ولو أنك كنت في هذه المعركة بين هؤلاء الذين يريدون أن يهاجموا هذا المبنى القريب الذي يتحصن به اليهود ، وانت موقن بأن كل مائة مهاجم سيصرع منهم تسعون صرعاً رخيصاً بلا ثمن وعشرة آخرين ربما يصلون إلى حائط المبنى ومعظمهم جرحى ، ومن يصل منهم سيموت بالباب أو بداخله – وهو الآن مفتوح على اتساعه – لا بد أنك ستنظر في المسافة إلى أقرب مبنى ، وتجدها بعيدة ، وتقول في نفسك مثل ما يقوله كل جندي لنفسه الآن، تقول : ماذا ؟ لا يمكن . لا لا ، لا أحد يستطيع أن ينكشف إلا وتخترقه مئة رصاصة قبل أن يتقدم ثلاث خطوات . فكيف وأمامي مسافة طويلة .؟ لا ، لا ، من أراد من المجاهدين أن يتقدم فليفعل . انظر كيف يتساقط الرصاص علينـــا . كالمطر في مخابئنا هذه .

ولكن دعك من هذا . هيا أقدم .. فالموت ها هنا أفضل من الحياة وأعظم منها بطولة ورجولة . انظر ، أمامك ... الباب مفتوح . هل تستطيع ان تقذف بنفسك كالسهم؟ وتقتحمه على من فيه؟ تموت هنا في هذا العراء المكشوف أو هنالك داخل البيت ؟

ولكن لماذا أموت ؟ دعني أختار طريقة أحسن .. ماذا ؟ . هل ترى أن البطولة أحسن من الحياة ؟ هيا توكل على الله . فإذا عزمت فتوكل على الله ... وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

هذا ما كنت تقوله لنفسك لو كنت فدائياً في هذه المعركة،ولو كان هنالك أحد قريب منك لسمعك تهمس آخر الأمر بينك وبين نفسك ، تقول : اللهـم إني أشهد أن لا إله إلاّ أنت ، وأشهد أن محمداً رسولك حقاً ، اكتب لي السلامة والفوز على أعدائك ، يا ربّ، أو خذني للرفيق الأعلى ، راضياً عنى . ولا يشعر ذلك الذي يجوارك إلا وأنت قد قفزت من مخبئك ، وانطلقت كالسهم الطائش لتلتصق بالجدار المقابل . وهو ما حدث فعلاً . كنت تسمع الفدائي منهم ينطق بالشهادتين ، ثم ينقذف كأنه الجن .ويتبعه آخر ثم آخر..نحو ثلاثين رجلاً تسابقوا

في هذا الصراع مع عزرائيل ...

ولم يحدث ما كان متوقعاً ، فلم يخر منهم سوى أربعة صرعهم الرصاص قبل أن يصلوا .. وجرح منهم ستة جروحاً مختلفة ولكنهم وصلوا الجدار .. ومن يصل الجدار يأمن من الرصاص أن ينوشه . لأن الكوى الضيقة التي يضرب منها اليهود لا تمكن السلاح من ميل شديد ، بحيث يصوب الى أسفل الجدار .

## ٥

وتسربوا نحو الباب .

وهنالك داخل الباب سيحدث أغرب صراع . صراع في ممرات المبنى وحجراته ودهاليزه . سكت الرصاص الذي كان ينطلق من هذا البيت وتحول الى داخله ، وازداد اطلاقه من المبنى المقابل . لم يكن الجنود يقدرون ان يكون للمبنى مخرج غير هذا البـــاب ، ولكنهم سيدهشون ...

دعنا الآن نتابع معركة بدأت في السلالم حـــين أراد الصهاينة أن يخلصوا يهودهم ، وما أعنف قتال من يدافع عن حياته ، لهذا لقي المغيرون دفاعاً عنيفاً في الممرات .. ثم أعنـــف منه من الذين حُشروا في الحجرات ولم يجدوا منها مخرجاً إلا أن يستميتوا في الدفاع عن الحياة .. غير أن أكثر الصهاينة الذين كانوا يدافعون عن هذا البيت الحصين قد اختفوا .. انسحبوا منه ولم يبق منهم الا قليل ... دون الثلث . كيف تم ذلك .؟؟ كيف خرجوا .؟؟ ومن أين ..؟ لا أحد يدري ..

ورغم أن الفدائيين مسيطرون على بابه منذ أول لحظة وقبل اقتحامهم له ، ولم يخرج من بابه أحد ... والذين قتلوا في ممراته وسلالمه وحجراته لا يساوي عشر من كانوا فيه فقد اختفى الباقون . ذلك سر غامض ..

ولما طهروا جيوب البيت وأركانه من الاعداء ، إلا حجرة أرضية لا تزال تقاوم بعنف ، فتشوا كل شبر فيه يبحثون ، عسى ان يكون اليهود قد لجأوا إلى مخبإ خفي .. لكنهم لم يعثروا على شيء .

●

وتأكد لديهم أن السر في هذه الحجرة التي لا تزال تقاوم...وقـذف بعضهم بقنبلة يدوية فيها فسكتت المقاومة إثر ذلك . واقتحمها الفدائيون ، ولكنهم لم يجدوا فيها إلا جنديين ، أحدهما قتل ، والآخر جريح مغمى عليه . فتشوها شبراً شبراً بلا جدوى .

أمر محير هذا .. وتدخل أحد الضباط قائلاً : هذا الجريح سيكشف السر الذي حيرنا ... ضعوه خارج الحجرة ، واختفوا عن نظره وراقبوه ماذا يفعل بعد أن يفيق .. وفي لمحة كان كل شيء قد رتب .. إلى إن استفاق ، فالتفت وبحث عن رشاشه فلم يجده .. وكان الضرب حينذاك متبادلاً بشدة بين العرب واليهود في الطابقين العلويين من البيتين .. ولما بحث الصهيوني عن رشاشه ولم يجده نهض متحاملاً على نفسه يتلصص متجهاً الى جانب السلالم حيث يوجد معظم قتلى الصهاينة . جثث كثيرة ملقية في هـــذا المكان دون غيره ، ودخل تحت السلالم . حسبه الذين يراقبونه اول الأمر أنه يريد أن يختفي هنالك .. ويبدو أنه كان مرهقاً والدم ينزف منه . ومع ذلك كان يصارع الجثث الملقية هنالك ، يحاول أن يسحبها ، لعله يتخذ لنفسه بينها مكاناً يجعله كميت بين الموتى ...

وأفلح أخيراً في سحب بعض الجثث من تحت السلالم . وقد بلغ منه الجهد غايته .. يكاد يعاني سكرات الموت . وحالته تزداد سوءاً .. وسيلقي بنفسه هنالك بين الموتى .

وأسقط في يد الذين يلاحظونه ، إذ قـــد فشلت خطتهم المضروبة لكشف

السر ... ولكن الصهيوني ، بدل أن يستلقي على الأرض يستريح من عنائه المميت ويعالج نزيفه ... بدلاً من ذلك ، شرع ينشب أظفـاره ببلاط الأرض حيث كانت الجثث التي سحبها ، يحاول جهده أن يرفع بلاط الأرض إلى أعـلى ...

ومن المدهش أن البلاط ارتفع له في إحدى المحاولات ، ثم عاد فأطبق على الأرض بصوت مسموع .. عندئذ هجم الملاحظون على الصهيوني - الذي يعاني الرمق الأخير من حياته — وهم يعلنون : لقد انكشف السر ...

ورفعوا البلاط الذي كان يرفع ، فإذا هو قبو مظلم .. طالعتهم منه ريـــح باردة .. ولكنه لا حركة بداخله .. أضاءوا فيه شعلة ، فلم يجدوا سوى سلالم في ممر ضيق ينحدر أسفل البيت .. ويمر تحت الأرض إلى جهات أخرى . ونزل إليه المجاهدون فيما بعد ، وتتبعوه ، فإذا هو سرداب ذو طرقات متفرعة ، ويظن أنـــه يتصل بمستعمرة تل بيوت . عندئذ أدركوا ان مستعمرة رامات راحيل أعدت لتكون رأس حربة يتكسر عليهـــا كل هجوم . لولا أن رأس الحربة تكسر في ثمان ساعات ...

## ٦

والآن لا يزال المبنى الثاني ، ويقع على عشرات قليلة من الأمتار ، لا يزال هذا المبنى يلقي بأثقال من الرصاص وجهت معظمها الى نوافذ المبنى الذي احتله العرب .

واتجه التفكير الى احتلاله وباحتلاله تنتهي رامات راحيل ، ويفتح الطريق لاحتلال القدس ...

ولم لا يتسربون من هذا الممر الخفي الذي يتجه نحوه ؟

وفي أول منعطف في اتجاهه فاجأهم سيل من الرصاص ، كاد يبيد بعضهم ، وحطم الشعلة التي كانت تنير أمامهم السبيل . وتبادلوا النيران بضعة دقائق تحت الأرض إلى أن سكت أخيراً جانب الصهاينة ، لأن موقفهم كان مكشوفاً والعرب يضربونهم من وراء منعطف .

وتطوع بعض المغامرين بالزحف الى جانبهم ذاك ، فوجد هنالك ستة من الصهاينة ، وقد رقدوا رقدتهم الأبدية . ثم تتبعوا السرداب خطوات أخرى . فإذا هو مسدود منهار ، فجّر فيه الصهاينة لغماً ليسدّوا سبيله في وجه العرب .. وهؤلاء الستة يبدو أنهم انحصروا بعد انفجار اللغم .

●

وكان جنودنا قد تسللوا إلى جميع أرجاء المستعمرة وحرروهـــا من جيش الصهاينة بكل ما فيها من مبان واصطبلات وخنادق واستحكامات . والنيران تشتعل في بعض انحائها والدخان يصّاعد منهـا إلى اجواء الفضاء باستثناء هذا البيت الأخير .

وها هم المناضلون الآن يوجهون إليه قنابلهم ورصاصهم من ثلاثة جوانب ، وكان الوقت قد قارب الظهر وتكاد الشمس تتوسط كبد السماء ، حين رفع العلم المصري على هذا البيت الذي احتله العرب .

ولما اطمأنوا إلى احتلال أرجاء المستعمرة ، ولم يبق فيها سوى هذا البيت الذي سيأتيه دوره .. هدأت نفوسهم ، وبدأ الجرحى يشعرون بجروحهم .. وينقون بطونهم وصدورهم وافخاذهم مما أصابها من شوك وحسك ، ويتفقدون رفاقهم في السلاح .. من قتل ؟ ومن جرح ؟ قتل من الليبيين عشرة ، في مقدمتهـــم الشاب البنغازي إبراهيم الزوبي ، والضابـــط عبدالله بن رحيم وصالح الغول ، وأخيراً الضابط بشير الناجح . وجرح نحو ثلاثين ، منهم من كان جرحه خطيراً

مثل الهاشمي أبي خلال، الذي سينقل الى مستشفيات القاهرة. وقتل من المصريين تسعة ، ومن السوريين والاردنيين نحو هذا العدد. وأما من قتل من اليهود فيزيد عن المئتين حسب تقديرنا ولما تنتهِ المعركة بعد ..

●

لم نكن قبل هذه المعركة نعلم مدى شجاعة المصريين ، ولا الأردنيين ، أو الفلسطينيين أو السوريين .

كنا نحسب أننا ننفرد بشجاعة لا مثيل لها دون العرب جميعاً . ولكننا رأينا الجميع على قدر عظيم من الشجاعة . هؤلاء المصريون الأبطال يقتحمون الموت اقتحاماً ، والاردنيون المغاوير لا يهابون البلاء ولا يبالون كيفما كان المصير ، والسوريون يستميتون للموت الأحمر غير آبهين . وكذلك الفلسطينيون : كل أولئك كماة أحرار ، أشداء على العدو ..

## ٧

والعرب قد تمكنوا الآن من المستعمرة وتحصنوا فيها ، فأي قوة تستطيع أن تخرجهم منها مهما كانت .. ولا بد أن اليهود أدركوا هذه الحقيقة من التجربة التي لمسوها. وعند العصر تسربت الأخبار بأن اليهود القاطنين هنالك في المستعمرات الخلفية بدأوا يرحلون عنها، وقد استطاع المتطلعون خلال المنظار أن يشهدوا سكان مستعمرة ( البقعة ) ومستعمرة (تل بيوت) ينزحون عنها، حاملين أمتعتهم ودوابهم أسراباً .. إنها المعركة .. ألقت الرعب في القدس اليهودية وما حواليها ، ولهم

العذر في الجلاء . إنهم لا يستطيعون ان يتقوا هذا البلاء ، ولا بد أن المعارك القادمة ستكون أشد وبالا ..

●

لما ذهب عن الفدائيين الروع ، وعادت اليهم نفوسهم شرعوا يفكرون في احتلال البيت الأخير ..

واستقر الرأي أخيراً على مقامرة أخرى أكثر مغامرة ، وربما تكون أشد مصيبة لو أصابها ما يحملها تنقلب على العرب أنفسهم .. تلك المقامرة هي نسف البيت الباقي ..

واحتمال انقلابها على العرب يكمن في مفعول اللغم الذي قد ينفجر بين حامليه أسفل البيت الذي يحتله العرب ، وقبل أن يصلوا إلى بيت الصهاينة .. فتحدث الكارثة ..

ووافقت القيادة هذه المرة على التضحية ببضعة أرواح في سبيل إعادة فتح طريق القدس وهو مرهون بهذا البيت الأخير . وربما ببعض معارك أخرى غير ذات شأن ..

●

والأرواح التي تحلم أن تبات الليلة في الجنة كثيرة ، كلها متنافسة على التضحية .. واشتد النزاع بين الفرقاء حتى أجريت القرعة ، فوقعت على المصريين . وذهب ثلاثة منهم يحملون اللغم واندفوا نحو البيت بالفتيل والكبسول واللغم ، وقبل أن يقوموا بالتجهيز اللازم قتل أحدهم وجرح الثاني وعاد الثالث دون أن يتمكن من شيء وحده .

ثم جاء دور الأردنيين ، وانطلق أربعة منهم مندفعين نحو البيت المعـــادي فجرح أحدهم ولم يتمكنوا من شيء إذ كانوا سيموتون جميعاً دون أن ينجزوا عمـلا .

ثم ذهب الفلسطينيون ثلاثة فاستشهد أحدهم وجرح الثاني ولم ينجز الثالث شيئاً .. ولا يزال المتنافسون ينتظرون دورهم بإلحاح وإصرار . وكل منهم يزعم أن الذين سبقوه كانوا يخشون الموت أمـــا هو فلا يرهبه ، ويستطيع أن ينجز العمل وحده دون معونة ، وهو وَهْمٌ مبعثه الحماسة والرغبة في التضحية. ولكن القيادة أرجأت العملية إلى ان يسدل الظلام ستره على الكون ..

●

وكان السيد احمد عبد العزيز قائد الفدائيين لا يبرح ميدان المعركة إلا لأمر جلـل ، ويشرف بنفسه على كل صغيرة وكبيرة .. وشاهد إخفاق البعثات الثلاث فأرجأها الى الليل .. وهو عازم على فتح طريق القدس الليلة، وعازم على خوض المعركة الثانية الليلة أيضاً في تل بيوت . ذلك هو العمل الذي كنـــا ننتظره : حرباً إثر حرب ، ومن خطوة الى أختهـــا ، وها هو قائدنا مصر على مواصلة الكفاح لتحرير القدس بأكملها ، وهو يستحث فدائييه ويلهب حماستهم وينفث فيهم من روحه الكبير .. واليهود أنفسهم كانوا في الجـانب اليهودي مستعدين للهزيمة بين يوم وليلة..وإثر معركة واحدة جادة. وأما في الجانب الآخر، الجانب العربي فقد فزع مواطنو بيت لحم والقرى العربية المجاورة لما زلزلت المدافع المنصوبة في بيت لحم زلزالها ، وتوجسوا خيفة بادىء ذي بدء ، ولكنهم خلال هنيهة أدركوا أن القنابل تنطلق نحو الشمال ، وعلموا ان معركة تدور رحاها في ( رامات راحيل ) حين طفق السلاح الخفيف يأخذ دوره . وسرت تباشير مفادها ان عملية تحرير فلسطين قـد بدأت اليوم بعد ١٣ يوماً من دخول الجيوش

العربية إلى فلسطين .

سرت التباشير أول ما سرت بين الرجـــال يهنىء بعضهم بعضاً ، ثم بين الأطفال والنساء بالبشرى والحبور . وسرعان ما انتقلت الأبقار بالأخبار .. الأبقار المذعورة التي فرت من مستعمرة رامات راحيل ذهبت في الجبال مذاهب شتى .. ومنها ما وصل الى بيت لحم ، فكانت دليـــلاً لدى المستبشرين بظهور الصف العربي وتغلبه على عدوه. وربما تخيل المتفائلون أن هذه الأبقار ما انطلقت من مرابطها ووصلت ما وصلت إليه من أماكن إلا لأن العرب قد احتلوا المستعمرة وتجاوزوها الى غيرها .. وبدأوا حتماً يشيعون شائعات البشرى التي وجـــدت سوقها الرائجة بين القلوب العربية الجريحة ، التي كانت تنتظر هـــذا اليوم . وبخاصة بين أولئك المشردين الذين كانوا يذهبون كل مساء الى التلال العالية ليتطلعوا الى بيوتهم ، ويشهدوا قراهم في المنطقة التي استولى عليها هذا الجرم الصهيوني .

●

وسعى الذين حرموا القوت لأطفالهـــم ، كما حرموا البيوت وحرموا أسباب الرزق، سعوا لينتقموا لأنفسهم ولو كانت أيديهم خاليـــة من السلاح ، لعلهم يقدرون على شيء يفعلونه ، ولكنهم لم يجدوا يهودياً إلا أن يكون قتيلاً . ولم يجدوا إلا أن ينتقموا لأرزاقهم التي سلبهم العدو إياها . وقد قدر القائـد أحمد عبد العزيز مسغبة هؤلاء اللاجئين المساكين ، انفارين من حيفا ويافا ودير ياسين وغيرها من القرى العربية المسلوبة وقد اكتظت بهم مدينـــة بيت لحم وغيرها. وهم من كثرتهم ضاقت بهم وسائل الرزق لأسرهم وعدموا أسباب الحياة لأطفالهم ، فربما قضى كثير منهم نحبه جوعاً ومسبغة .

ويقضي أكثرهم الأيام والليالي المتواليات فلا يجـــد غير الماء . وهم في العراء

يفترشون الأرض ويلتحفون السماء . لعل القائد كان شعر بظروفهم هذه فسمح لهم لعلهم يجدون خرقة يلتحفون بها ، أو قطعة خشب يفترشونهـا ، أو آنية يطبخون فيها طعامهم ، أو صحيفة يحملون فيها المـاء ، أو وجبة لحم من هذه الأبقار الباقية يشبعون بها أطفالهم. ومن يدري ،لعل مسغبتهم تطول،وقدكانوا من الفاقة والحاجة الى حد الله وحده به عليم . فهذا الذي يحمل علبة صفيح قديمة كاد الصدأ يفنيها ، ماذا يفعل بها ؟ ولكن لا بد أن له زوجة ستفرح بها فرحة العمر ، لأنها أخيراً وجدت آنية تنقل فيها الماء إلى أطفالهـا في الجبل . وتلك المرأة التي تصر فضل ثوبها على قليل من التبن ، ماذا تفعل به ؟لا بد أن لها زوجاً جريحاً في معركة قريتهم التي انسحبوا منها سيفرح بهـــذا التبن القليل تضعه له زوجته بـــين جسده الطريح وبين تراب الأرض التي ينام عليها بلا حائل منذ أسابيع ، لعلهـا تقيه آلام الروماتزم التي تقدح كالسكاكين في مفاصله وعظامه ..؟

ولهم الحق ألا يتركوا شيئاً في القرية من أثاث ، وملابس ، وحيوان . لهم الحق أن يتركوها قاعاً صفصفاً ، ومنهم من يرغب لو تسمح له القيـادة بنقل أسرته إلى حجرة من دورها ، أو ركن من أركان اصطبلاتها ، وهي حتماً أوفى لأطفاله وأحفظ لهم من العراء ..

هذا كان حال هؤلاء المساكين.. ودعك مما يقوله تجار الكلام ، الذين يعيش أطفالهم منعمين في العواصم البعيدة عن المعركة ، فلم يصبهم من الوبال وابله ولا رذاذه ..

ثم من يدري ، لعل هنالك سراً آخر حدا بقائد المعركة إلى تشجيعهم على ما يصنعون .

# ٨

ولما أظلمت الأرض واقترب موعد النسف المبيت للمبنى الأخير من هـذه المستعمرة ، والجنود يستعدون للحدث المرتقب .. اذا بخبر يروج بين الجنود ، مفاده أن الجنود الأردنيين أمروا بالانسحاب من المعركة إلى مراكزهم في بيت لحم .. خبر لم يتأكد أول الأمر .. ولكنه ترك أثراً سيئاً في النفوس . ويبدو أن الخبر صحيح . وهو على ما يقال أن قائدهم الانجليزي أرسل إليهم أن ينسحبوا وها هم فعلاً ينسحبون ...

وارتسم ألف تساؤل على الشفاه : لماذا ينسحبون ؟؟

فمن قائل يقول : في الأمر سر .. وآخر يقول : كان يجب أن يستمروا في المعركة إلى نهايتها . وثالث يظن أن في الأمر مكيدة دبرها الانجليز مع ضباطهم في الجيش الأردني لصالح الصهاينة .. وكثر اللغط ، والأخذ والرد ، وآخر ما قيل : دعوهم ينسحبون ... سنستمر وحدنا . وعددهم كان دون المئة معظمهم من المتطوعين ، وقليل منهم من الجنود الرسميين وسواء علينا آ نسحبوا أم بقوا .. حقاً لا أثر لانسحابهم من حيث القوة ، ولكن له أثر كبير من حيث السياسة في نظر العارفين .. لأن السياسيين العرب يرقبون كل حركة أردنية بأنهـا تفسر الواقع الذي لا يرد ، المفروض من القوى الخارجية ، الذي لا يستطيع له العرب تحدياً أو تعديلاً ..

●

ومضت فترة من الليل نسي فيها الجنود انسحاب اخوانهـم الأردنيين . واستعدوا لنسف المبنى وكانوا قد هيأوا أنفسهم له ، وهم في انتظار عودة قائدهم

الذي غادر ساحة المعركة الى مقر قيادته في بيت لحم اثر انسحاب الجنـــود الاردنيين . وطال انتظارهم له ... ولما عاد كان وجهه منقلب السحنة ، متغير الملامح ، غير ما عهد. وقال أول ما نطق : سوف ننسفها ولن نبقي فيها حجراً على حجر.. قول غاضب على الرغم مما عهد به من حكمة وحلم ، ووجه متغير على غير عهده من السماحة والبشاشة .

وسرى بين الجيش أن وراء الأكمة أزمة .. وأي أزمة اشد مما ألم بهـــذا الجيش ؟ إنها الأوامر العليا يتلقاها القائد غاضباً ، ثم يطأطىء رأسه كارها ..

ويتردد الصوت في أذنه مرة أخرى .. لا بد من الانسحاب . ويراجع القائد قيادته العليا قائلاً : ولكن كيف يتم هذا بعد أن حققنا نصراً أكيداً في سبيل سقوط مدينة القدس بأكملها في أيدينا ؟

ويكون جواب القيادة له : هذا صحيح ، والقيادة تقدر هذا النصر الباهر . ولكن الأوامر : أوامر عليا .

ثم ليغضب أو لينتحر ! لا بد من الانسحاب ، شاء أو لم يشأ .. وليغضب جيشه الهائج . لا بد من الانسحاب شاءوا أو لم يشاءوا ، فليفرغوا غيظهم إذن في المباني والاستحكامات . ثم لينصرفوا مع الليـــل من حيث أتوا في حالات من الانفعال الشديد ويسلموا المستعمرة لفصائل الجهاد المقدس أهل البلاد الذين لا سلطان لوزارة مصر عليهم .

●

وترك الانسحاب اثراً سيئاً وخيبة أمل شديدين في بعض النفوس ، ثم تحولت خيبة الأمل هذه إلى شك ... وانقلب الشك فيما بعد الى يقين ... لذلك كان هؤلاء المتشككون يهزأون بالجنود الذين لا يزالون بعد كل هذا متشبثين بالأمل.. وما أوسع أحلامهم ! وما أشد تشبثهم بها ! تارة يشيعون بأننا غـــداً سنعود لاحتلال المستعمرة من جديد.. ويجيبهم المتشككون : لماذا اذن انسحبنا منها؟؟

وهل ننسحب اليوم لنعود غداً أو بعده أو حتى بعد سنة ؟ إنه وَهْمُ المغرورين .
ويبدو أن المتشككين كانوا على حق، لأنهم لم يعودوا لاحتلالها في الأيام التالية .

## ٩

سلم القائد المستعمرة الى المناضلين الفلسطينيين تلك الليلة ، وأبقى معهم قليلاً من المصريين ، وانسحبت البقية إلى صورباهر والطنطور ومشارف بيت لحم . وفي اليوم الثاني حومت طيارة يهودية على المستعمرة لتتأكد من انسحاب المصريين كما يسمينا الناس .

وفي اخر الليل لم يستطع حماة المستعمرة ، بذخيرتهم المحدودة وعدتهم الضعيفة ، لم يستطيعوا أن يقاوموا الهجوم الصهيوني الذي أعدوا له الآلاف من قواتهم ، فاسترد هؤلاء المستعمرة ونحن نتفرج ..

●

ولم يكتف الصهاينة باسترداد مستعمرتهم ، بل استمروا في سمتهم يقاتلون الوحدة الأردنية الصغيرة المعسكرة في دير مار الياس ، التي انسحبت بأمر قائدها الانجليزي دون مواجهة اليهود .

واحتل اليهود مار الياس متوغلين في الأراضي العربية ، ولم يجد قائدنا بداً من مواجهتهم . وما كاد الخبر يتطاير حتى هبت الوحدات تزحف في معركة حامية رجحت فيها كفتنا وظهر فيها جانبنا ..

وأحدق الليبيون والمصريون والفلسطينيون بالصهاينة ، وخشي هؤلاء من الحصار الذي كاد يتم بتطويق دير مار الياس، فانسحبوا يجرون قتلاهم . وعاد الليبيون

يحملون شهيدين هما عبيدالله محمد ومحمد عيسي البلطي الباز وبضعة جرحى آخرين. وكنا نستطيع ان نتقدم تجاه رامات راحيل ولكنا وقفنا عند هذا الحد ..

## ١٠

لما عاد الرجال من المعركة .. كانت هنالك أنباء أخرى تنتظرهم ، وجدوا القادمين من بيت لحم يتحدثون بما سمعوا من أحداث عن الصراع الدائر منذ شهور داخل القدس القديمة بين العرب والصهاينة . وكانت الأخبار والشائعات تتوالى علينا من مختلف مناطق القتال في جميع الجبهات... من الجبهة السورية، واللبنانية، والأردنية ، وبخاصة المصرية والعراقية ، لأنها أقوى الجيوش في الميدان. وبالحق لو صدقت النية يكفي أحدهما لاحتلال فلسطين كلها في أيام .

وكانت تأتينا الاشاعات والأنباء سيلاً لا ينتهي، منها ما هو سار يفرحنا ، ونادر منها ما هو محزن يسوؤنا . وترانا نساقط الأخبار ونترقبها باهتمام وتوتر شديد ، رغم أن جميعها كاذب إلا ما ندر . نترقب ما يقول الناس ونتجمع حول الاذاعات والجرائد ، وحول القادمين من المدينة

وها أنت ترى مجموعات من الجند يتجمعون حول القادمين من بيت لحم ، وتسمعهم يهللون بالفرحة . لا بد أنه قد حدثت اليوم أو أمس أخبار سارة في ميدان القتال ، تناقلها المسافرون .

وشاعت الفرحة في أرجاء المعسكر وبدت علائم البشر على كل وجه . لقد انتصرنا . انتصارا آخر

أين ؟ وماذا حدث ؟

في القدس.. في القدس القديمة.. اليهود استسلموا .. الحي اليهودي استسلم ..

هذا خبر سار ان صدق، واذا استسلم اليهود في القدس القديمة فلا بد للقدس الجديدة أيضاً أن تستسلم حين يتحول المناضلون إليها .. كان هذا الحي محاصراً

منذ شهور ، تحاصره سرايا من جيش الجهاد المقدس وجيش الانقاذ ، وكثير من المناضلين الفلسطينيين ، ثم انضم اليهم الجيش الأردني أخيراً . وإذا صح هـــذا فسيكون ضربة قاصمة لدولة اليهود .

●

ولا يزال العرب منذ أيام ينتظرون أن يذبحوا جميع اليهود المحاصرين فيها وعدد نحو ١٥٠ يهودي انتقاماً لمذبحة دير ياسين . واليهود يعرفون ذلك ، ولا يمكن ان يستسلموا للذبح ، لا بد أن يقاوموا حتى الموت .. ولما جاء المساء تحقق الخبر .. و أذيع ..

جاء أن اليهود في القدس القديمة استسلموا جميعاً ، وأسر المحـــاربون منهم وعددهم ما بين الثلاثمئة والأربعمئة ، وسمح للنساء والأطفال أن يذهبوا للقدس الجديدة .. ولكن لماذا يسمحون للأطفال والنساء أن ينضموا للأعداء ؟

يا للعرب ! لم ينتقموا لمذبحتهم الشنيعة !

ليس من شيم العرب أن ينتقموا من الأسير العاني . وليس من شيمهم أن يذبحوا الطفل والمرأة .. وأين هم من ذبح طفل بريء وامرأة عاجزة ؟

يا للعرب ! ويا لشيمهم الكريمة ! ويا لرسولهم العظيم ! الذي أوصاهم بالأطفال والنساء والعجزة ..

وهل تقاس أخلاق العربي وشيمه بأخلاق اليهودي وإسفافه .؟

## ١١

إذن أصبحت كل القدس القديمة عربية خالصة .. وقد حانت الفرصة الآن لتعريب القدس الجديدة وتحققت العودة للهجوم على ( رامات راحيل ) .

وتحمس المناضلون للعودة وراجت بينهم كأنها أمر واقع ، وانقضى اليوم وهم في فورة من الحماس . وخنس أولئك المتشككون وبهتوا ، لأنهم كانوا يقولون ان الانجليز والأميركان متواطئون مع اليهود للإبقاء على المناطق اليهودية بيد اليهود . وكل بقعة يحتلها العسكريون يأتي السياسيون بعد ذلك فيأمرونهم بالانسحاب منها . وأما الملك عبدالله فلا يورط جيشه ثم يعود فينسحب . هذا ما كان يقوله هؤلاء المتشككون .

وقد اشتهر الملك عبدالله هذه الأيام بأنه ثعلب العرب ، وأنه أدهى السياسيين في الشرق ، يعرف متى يَرْبِت على ظهر خصمه بعطف ، ومتى يَتَنَمَّر ويتحرش ، ويعرف متى يذرف دمعة حزن لايعلم أحد غيره أنها مصطنعة . وهو أعلم العرب جميعاً بطبائع الانجليز ومناوراتهم وأخلاقهم ، يسحب منهم ما يريد سحبه بدهاء قد يتطلب مناورات طويلة .. فيقوم بها بصبر ، وقد يتطلب ذلك منه اصطناع مواقف تخلق ظروف الأمر الواقع . ولا يعرف السياسيون إلى يومنا هذا كيف اختلق الملك عبدالله هذه الظروف التي أتاحت لجيشه احتلال الحي اليهودي ؟ وهو يعلم ان المقرر أن يبقى هذا الحي بيد اليهود والمقرر ان تضم أجزاء أخرى من مقدساتهم الى دولة اليهود . وهم يصرون على أن يكون المبكى في حوزتهم وكذلك كنيس قدس الأقداس و... وعلى أي حال فالفضل في الاحتفاظ بمدينة القدس للعرب فيما بعد يرجع الى دهاء الملك عبدالله .

والمتشككون من الليبيين يقرون بأن الملك عبدالله سياسي ، وليس بين سياسيي العرب مثله . لأن السياسيين العرب الآخرين لا يختلفون عن الجماهير . طبعهم جميعاً إذا أحبوا يسرفون في الإخلاص ، وإذا عادوا يتصلبون في العداوة ولا يلينون إلا كرهاً .

أما الملك عبدالله فيسير في الشوط الى آخره ، ويسبر العمق الى غوره ، ولا ينطح الجبل بقرنه ولكنه ينحت فيه بفأسه .

ونحن نعلم أن نوري السعيد على صلة وثيقة بالانجليز ، ولكنه يعود ويقتبس مفاهيم الملك عبدالله لسبر غور السياسة الانجليزية ، ونعلم ان النقراشي باشا

يتصرف في سياسة هذه الحرب بهدي من تصرف الملك عبدالله .

●

وما عسى أن يكون موقف النقراشي الآن من احتلال ( رامات راحيل ) ثم القدس الجديدة ؟ لعله يوافق بعد ان احتل الملك عبدالله الحي اليهودي الآن ؟

لا بد للقيادة العليا المصرية هذه المرة ان تتلقى أوامر عليا بإعادة احتلال المستعمرة . هذا ما يظنه الجميع ويؤكدونه . وأمسى ذلك في حكم المفروغ منه في نظر جميع العساكر الليبيين وغيرهم ... وبيتوا أمورهم لكي يكونوا مستعدين كما حدث من قبل .. ومن كان منهم نائماً ربما استيقظ مرات كثيرة ، يتطلع الى الشرق .. ليحدق ، هل انتصف الليل ؟ وانتصف الليل .. ثم بزغ الفجر بنوره ، وحتى الشمس أشرقت ..

وخاب ظن الجميع ..

# ١٢

وفي الصباح دعي قواد الكتائب للاجتماع في القيادة ، فاستبشر الجند من جديد .. وانتعش الأمل في نفوسهم . ولما عاد قواد الكتائب من اجتماعهم .. عادوا بخيبة الأمل ، لقد أمروا نهائياً ان يتفرقوا . كل كتيبة الى جهة ، ويتركوا المستعمرة هانئة .

لقد تحولت السياسة الحربية من الهجوم الى الدفاع ، ومن الاحتلال الى المحافظة على ما في أيديهم ، وتفرق الشمل ، وتبدد الجمع ، وأمرت الكتيبة المصرية أن يتحول جزء منها الى قرية صورباهر العربية التي تقع شرقي رامات راحيل وهي لا تزال بأيدي العرب ، فتقيم هنالك وتبني خطاً للدفاع يحول دون احتلال اليهود للقرية العربية ! وتحول جزء آخر الى الطنطور .

وانزل أبناء السودان في قرية بيت صفافا العربية الواقعة غربي المستعمرة ، حيث بنوا استحكاماتهم وخطهم الدفاعي في مواجهة مستعمرة ميكورحايم اليهودية . وانتقل الليبيون الى قرية شرفات العربية ، وهنالك بنوا خط دفاعهم في مواجهة قرية المالحة وهي قرية عربية . فلِمَ يبني الليبيون خط دفاعهم في مواجهة قرية عربية ؟ هذا وضع غريب .! هل يخشون من عرب المالحة أن يتحولوا الى صهاينة ؟ أم ماذا ؟ لماذا لايتحولون إلى مواجهة أعدائهم ؟

قال اليوزباشي سرور لليبيين الذين يناقشونه :

– لست أدري لماذا ، وكل ما أعلمه أنه قد طلب منا ألا نتجاوز خط سكة الحديد الذي يمر بين شرفات والمالحة !!

– ومن ذا الذي سيدافع عن المالحة وعين كارم ؟ لماذا لا يتوزع الفدائيون على حدود المناطق اليهودية في المالحة وعين كارم وما بينهما ؟

– هذا صحيح ، ولكن لعل لهم تفسيراً آخر ... سوف نرى ...

وأما أهل المالحة وعين كارم ، فقد بدأوا يشكون ، وبـــدأ بعضهم يتخذ أهبته للرحيل ، وشكوك ، وتساؤلات ، وتخريصات ..

●

ولا تسل عن فرحة الفلسطينيين أول الأمر .. حين شاهدوا العلم المصري يخفق على رامات راحيل ، ثم انتابهم شعور الخيبة عندما رأونا ننسحب منها ، ثم لما تحولت الكتائب الى القرى العربية وحفرت الخنادق وبنت الاستحكامات وتحول هم الجيش الى الدفاع فقدوا الأمل في استرداد ما ضـــاع .. فهل كانت خيبة أملهم في موضعها .؟ وهل ستتحول هذه الكتائب إلى الدفاع فقط منذ هذا اليوم ؟ ولن تتزحزح عن مكانها للهجوم قيد خطوة بعد ؟؟ سوف نرى ..

ولولا ما انتعش من آمال الفلسطينيين باحتلال الحي اليهودي الذى استبشر له

أبناء فلسطين ، لكان انسحابنا مبعث حزن عميق لهم لا يخالطه أي أمـل في المستقبل .

## ١٣

وبتفرق الجند على هذا النحو تنفست المستعمرة الصعداء ... ولا بد أنهـا شعرت بالأمـان .. ولم تتحول الكتائب الى مكان ذي خطورة إلا الكتيبة السودانية في قرية بيت صفافا ، التي تحتل مركزاً خطيراً لأسباب ، منها : أن جزءاً كبيراً من القرية يشكل قرناً داخـل الاراضي اليهودية ، وأنها تقع بين مستعمرتين هما : رامات راحيل وميكورحايم ،وان الطريق الواصل بين هاتين المستعمرتين يمر بقرية بيت صفافا ، وان خط سكة الحديد الذي يحرص اليهود على حوزته يمر وسط بيت صفافا التي عانت كثيراً بسبب مركزها الخطير ، وصدت كثيراً من الهجومات قبل دخول الجيوش العربية الى فلسطين وبعده . والفضل في احتفاظها بعروبتها وانتصاراتها على الاعداء ، يرجع الى زعيمها السيد عبدالله العمري ومواطنيه . لقد استطاع السيد العمري أن يكتل جهود أهل قريته وينظمهم تنظيماً دفاعاً قوياً. وكثيراً ما تحولوا الى الهجوم.. وضحّى المواطنون بالشيء الكثير من أموالهم في سبيل الحصول على السلاح والذخيرة .

كان موقف أهالي بيت صفافا عظيماً في كل أحواله .. عظيماً في الدفاع عن قريتهم ، وعظيماً في نجدة القرى الأخرى ، التي كان يهاجمها الصهاينة بتشجيع من الحكم البريطاني . الذي كان يشجع اليهود على حيازة الأراضي المقـررة لدولتهم قبل رحيله .

ضحّى الرجال بمخزونهم من قوت أطفالهم ،وضحت النسوة بما لديهن من حلى، واشتروا السلاح .. واشتروا الذخائر. واشتروا السلاح ... ولم يكونوا يفرون من قريتهم حين يهاجمهم العدو بأعداد كبيرة كما فعل غيرهم .بل كانوا يتشبثون بمراتع

اجدادهم حيث درجوا ، وملاعب أطفالهم حيث يدرجون ، ويستميتون للقتال المرير ويذيقون العدو آلام القتل ..

●

لقد حضر جماعة من الليبيين أثناء وجودهم في بيت لحم معركة ضارية من المعارك التى دارت في بيت صفافا بين الصفافيين واليهود ، حدثني عنها أحدهم فقال:

أثناء القتال ، دفعني المد والجزر وطوح بي مع زميل ليبي أثنـــاء هجوم اليهود وما اكتنفه من كر وفر ، دفعنا الى طرف القرية ، إلى مبنى صغير أشبه ما يكون بدار مفردة ، أو مخفر من مخافر السكة الحديديـــة . وكنت أنا وزميلي غرباء لم نتعرف الى المنطقة بعد . والحماسة هي التي دفعتنا للاشتراك في المعركة . وهاجمنا الصهاينة في ذلك المخفر .. فدافعنا عنه .. ولما اشتد علينا الضغط انسحبنا مكرهين واحتله اليهود وطفقوا يضربوننا منه .

وخجلنا من أنفسنا .. فأعدنا الكرة نقتحمه في يأس . وفوجئنـا باليهود يتراجعون ويخلون المخفر لنحتله من جديد.. وكانت المعركة على أشدهـــا .. وحاول الصهاينة أن يطردونا منه مرة أخرى ولكننا استمتنا فيه هذه المرة ، وظللنا طوال تلك الليلة وقوفاً في المخفر نضرب كل عدو يقترب من سمتنـا أو يدنو من مخفرنا ثم ركزوا هجومهم مع الفجر وكروا علينا وعلى القريـــة واستولوا على المخفر وعلى أجزاء من القرية .

والصفافيون لا ينهزمون .. بل ثبتوا وثبتنا معهم . وأعـدنا عليهم الكرة الى أن هزم العدو ، وعاد القهقرى من حيث أتى . ولما عدنا جاء بعض الرجال يهنئوننا ويتعرفون علينا . ومنهم من يعلم أن الليبيين أخوة حرب لا يملون ، مما سمعوا عـــن حربهم مع الطليان ... ولكنا في الحقيقة كنـــا أعجب منهم بصبرهم وحسن بلائهم في المعركة .

هؤلاء هم أهل بيت صفافا الذين أقبلوا يرحبون بالسودانيين ، وعلى شباب السودان الآن أن يأخذ دوره في الدفاع عن وطنه .. وهو ثقة وعند حسن الظن فيه ، وكذلك كان ..

وأخلى أهالي بيت صفافا قريتهم للجيش، كخط للقتال، مثل أهالي شرفات وصور باهر ، ولكن الرجال جاءوا ليساعدوا الجيش في حفر الخنادق وبناء الاستحكامات ...

هذا ما حدث في جنوب القدس ..

ولنعد الآن الى ٢٥/٥ لنعيش مع اولئك الليبيين الذين تخلفـــوا هنالك في معسكر النصيرات بعد رحيل الكتيبة إلى بيت لحم ..

# نزاعُ الأخوين

# ١

تخلف عدد قليل جداً في معسكر النصيرات .. كنا فصيلة تعدادها نحـــو خمسين رجلاً تتولى حراسة المعسكر وحصار المستعمرة ( كفار داروم ) . ولم يكن لدينا السلاح الكافي. وكنا نخشى من الاشاعة القائلة بأن لليهود جواسيس من العرب كثيرين ، وقد وجدنا في المعسكر جعب مدافع هاون وبقايا مدافـع هوتشكس فوضعناها على حجارة ونصبناها في شكل المدافع الصالحة .

وذات مساء وبينما أنا في ضيافـة صديق لي من عرب النصيرات ، قريباً من معسكرنا، إذا بطائرات اسرائيلية تهاجم معسكرنا وتلقي عليه القنابل وجنودنا يكافحونها بالرصاص ، وبوصفي قائـداً للمعسكر هرعت مسرعاً لجنودي تاركاً المائدة التي قد وضعت لتوها بين أيدينا، ولم نمسسها بعد، خائفاً أن تكون القنابل التي سمعت انفجاراتها المزلزلة قد دمرت المباني وأتت على بعض الرجال. عدت أهرول مسرعاً وأنا أتصور أشلاء رجـالي وقتلاهم ودماءهم . وضميري يؤنبني بشدة ، خشية أن يقال تغيب عن المعركة مضحياً بجنوده ؛ ولم أكن قد تغيبت قبل ذلك أبداً .

ولما وصلت المعسكر لاهث الانفاس ، كانت الطائرات قـد عادت وألقت قنبلة من قنابلها سقطت أمامي غير بعيدة عني . ولما سمعت صفيرها متهاوياً يمزق أجواء الفضاء ألقيت بنفسي على الأرض تفاديـاً لشظاياها . وبعد أن انفجرت

نهضت وكانت مفاجأة ... إذ لم أجد لها أثراً يزيد عن أثر قنبلة يدوية .

واسرعت نحو ثكنات الرجال اتفقد من مات ومن لا يزال حياً . وكانت فرحتي عظيمة اذ وجدت جميع الرجال لم يمسسهم سوء . والمباني جميعها لم تصب بضرر .

عندئذ اطمأنت نفسي ، وذهبت أتفقد مساقط القنابل ؛ وظننتها أول الأمر قنابل يدوية ألقيت من نوافذ هذه الطائرات الاستكشافية . ولكننا عثرنا على أثر من صفيح العلب الذي صنعت منه ، فإذا هي مثل القنابل التي ألقيت علينا عند عودتنا من عراق سويدان ومنذ هذا اليوم عزمت على ألا أفارق معسكري قط ما لم تكن تبعاته على عاتق رئيسي .

## ٢

في اليوم التالي لضرب الطائرات جاءني بعض الجنود برجل بدوي وقالوا إنه جاسوس ، قبضوا عليه قادماً من جهة غزة .

– وكيف عرفتم أنه جاسوس ؟

قالوا: كنا نتمشي بجانب الطريق وإذا بهذا الرجل قابلنا يسير مع خط السكة الحديدية ، ولما رآنا شعرنا بأنه تردد ، ثم اتجه مبتعداً نحو الجنوب . قلنا لريبة في نفسه تخلى عن طريقه وابتعد ، ولما طلبنا منه أن يقف شرع يجري ، فصوبنا له السلاح .. عندئذ ألقى بنفسه على الأرض ، وهو ما يدل على أنه مدرب تدريباً عسكرياً وليس بدوياً على علّات أهل البادية . وهو يدعي انه بريء ومن أعراب البادية .

ولما سألته : ممن انت يا رجل ؟ قال : إنه من بئر السبع .

– وماذا تفعل هاهنا ؟

– جئت لزيارة بعض أقاربنا .

– أين هم أقاربكم ؟

– في مدينة خان يونس .

– اركب السيارة نوصلك اليهم .

– لست أدري أين ينزلون ؟ ولكن أوصلوني الى خـــان يونس ، وهنالك أسأل أين ينزلون ؟

كدت أوقن أنه جاسوس حقاً ، وذهبنا نفتش فيه علامـات الجاسوسية ، وهي ختم صغير يختم به الصهاينة عملاءهم تحت إبطهم ، أو في أسفـل ألسنتهم . أو في مكان خفي من جسدهم .. وبحثنا عن الختم في أسفل لسان الرجل وتحت إبطه وبين فخذيه فلم نعثر على شيء من ذلك ..

وكان أحد الذين أمسكوا به يقول : أنظر الى وجهه الأحمر : دمه ليس دماً عربياً ... ثم انظر الى اهداب عيونه الصفراء .. أهذا عربي ؟ واسمـه محمد أبو علي ؟ لا تخل سبيله ، إنه جاسوس والله .

قلت في نفسي : أسجنه اليوم حتى يتبين لنا من أمره. وغداً أبعث به للقيادة المصرية أو لشرطة غزة يحققون معه . وبالمساء أقبل صديقنا النصيري وعرضت عليه موضوع الرجل المشتبه فيه وقابله ، وهو في حيرة من أمره مثلنا، لم يصل معه الى نتيجة واضحة . وحسب الجنود أنني سأخلي سبيله ، وهم قد رأوا أنني لم أشتد عليه ، وغاظهم ان يهزأ بنا ويحيز علينا تحايله ويفلت نجياً .

ولم أعلم بما أحدثوه به من ضرب وتعذيب وتهديد بالقتل إلا على وجه الفجر. وكنت نائماً عندما دعوني لسماع أقوال أبي علي. صحبتهم إلى محبس الرجل . قالوا إنه أقر بأن اسمه موشي يعقوب ، وأنه يهودي ولد في فلسطين ، وأنه جاء حقاً

من مستعمرات بئر السبع حيث كان يعيش ، جاء يحوم حول القوات المصرية في غزة ..

ولما حضرت أنكر ذلك ، ثم ضرب . فأقر أمامي ، ثم عـــاد فأنكر ، ولكنه تراجع فأقر بكل شيء. وذكر لنا أن في قطاع بئر السبع نحو ٤٠ مستعمرة يهودية . وأنكر ان يكون عدد الجيش اليهودي ستين ألفاً ، وقال إنه لا يصل حسب علمه إلى عشرة آلاف ..

•

وفي صباح اليوم التالي أرسلته إلى شرطة غزة مع تقرير بوصف حاله وإقراره كما ذكرته لك آنفاً بشيء من الاختصار ..

## ٣

ترامت أنباء المعركة في رامات راحيل الى الجند في النصيرات في حينها ، والشهداء الذين ذهبوا الى ربهم .. فانتابهم قلق شديد . وحـــاولوا ان يتصلوا ببيت لحم ليساهموا في المعركة . ولكن احداً لم يعد يشعر بوجودهم . إذا كانت القيادة في فوضى اختلط فيها الحابل بالنابل ، لا يربط بين أطرافها رابط. ومن في بيت لحم لم تعد تربطه صلة بمن بقي في غزة .. واتصلوا بقيادة الجيش الرسمي في غزة فوجدوها لا علم لها بمن هم ؟ ولا من أين جاءوا ؟ ورفضت ان تعترف بهم أو حتى تقدم لهم بعض المساعدات . ووجدوا أنفسهم لا حول لهم ولا قوة ، اللهم إلا هاتين السيارتين من غنيمتنا ، ووجدتهم لم يطيقوا صبراً على هذا الحال. وبعد أحد عشر يوماً سلمنا معسكرنا وحصار القرية الى الجيش .

وركبنا سيارتينا نريد بيت لحم ..

## ٤

لا بد أنك تتساءل . وماذا حدث لمستعمرة كفـــار داروم التي ذهب على مشارفها أربعة وسبعون شهيداً منا ؟

إليك ما كان من خبرها .

في ٧ يونيو ١٩٤٨ ، جاء الملك فاروق لزيارة جيشه في ميدان القتال ( فلسطين ) ليرفع من روحهم المعنوية ويطلع بنفسه على الأحوال . وكان راكباً سيارته، وعندما مر بدير البلح أطلقت المستعمرة عليه النار، فأمر الملك بتدميرها. وانصب عليها البلاء من الأرض والسماء ، وتركت رماداً . ومنذ يوم ١٠ يونيو لم يعد لها على الخريطة وجود ..

وكم يتمنى المرء لو أن الملك أمر بتدمير كل مستعمرة على انفراد : تتحول لها القوى الجوية والمدفعية ونحن الفدائيين ، ثم نتحول الى غيرهـــا حتى تطهر فلسطين .

ولكن هل للجيش الذخيرة الكافية ؟

وكان الجيش، في اليوم ذاته الذي زار فيه الملك فلسطين، كان يدمر مستعمرة أخرى بعنف لأنها واقعة على الطريق الى أسدود ، تلك هي مستعمرة (نتساليم) التي دمرها ايضاً ، ربما لتوقع مرور الملك من هناك .

ليت الملـــك مر بكل مستعمرة ..

## ٥

مررنا بغزة ، فعراق سويدان التي شدنا الحنين اليها ، فتوقفنـــا هنالك . وسرعان ما أقبل الأهلون يرحبون بأصدقائهم الليبيين . كانوا لا يزالون كعهدنا بهم : أشداء ، ولكنهم ويا للأسف جردوا من السلاح . جردهم الجيش المصري من سلاحهم ، وأسلم كل مسلح وصلا بسلاحه وذخيرته . كما فعل مع أهالي جميع القرى الواقعة في قطاع غزة وبئر السبع والخليل . .

وأسفت أشد الأسف ، وإنك لتأسف معي وأي أسف ! إذا علمت أن عدد المسلحين في هذه القطاعات يزيد على عدد الجيش المصري ضعفين اثنين أو أكثر . .

حبذا لو أن الجيش دربهم على فن القتال وزودهم بالذخـــيرة وأوكل إليهم تحرير هذه المستعمرات . . لرأى عجباً لو فعل . .

كان رجال عراق سويدان يبكون لحرمانهم من حق القتال في سبيل الديار .

## ٦

وعلمنا منهم أن طلائع الجيش المصري وقفت عند ( وادي أبي سويرج ) ولم تتجاوزه .

إذن هذا الجيش المصري نفسه لم يتجاوز ذلك الخط الأحمر الذي كان على الخريطة التي وصلنا بها نحن الى هنا يوم وصلنا عراق سويدان . وهو الحد المقسوم الذي رسمه تقسيم الأمم المتحدة لقيام دولة الصهاينة . .

أين هذا مما يدعيه السياسيون ويتظاهرون به أمام شعوبهم ؟ . من أنهم بعثوا

بجيوشهم لتحرير فلسطين كلها ؟

•

أي جيش من هذه الجيوش لم يتجاوز بعد الحدود التي رسمها مشروع تقسيم الأمم المتحدة لدولة اليهود . لقد تبينا الآن كذب الجرائد والإذاعات التي جعلت العرب على أبواب تل ابيب . ووصف لنا أهالي عراق سويدان كيف أصبحوا عاجزين ، لا يستطيعون أن يقوموا بنجدة اخوانهم في الشمال .. تلك النجدات التي كان لها الفضل في الاحتفاظ بالأراضي العربية وارهاب الصهاينة .. كما حدثتك عنها في فصل عراق سويدان .. وكم كنا نتمنى لو أن الجيوش وزعت السلاح على جميع الرجال ودربتهم على القتال .. لو فعلت لتمت النعمة على فلسطين .

•

وبعد الحديث والذكرى ، والأشجان والأشواق ، ودعنا أحباءنا ها هنا في عراق سويدان ، ولوح لنا الأطفال والشباب بأيديهم ولوحنا لهم ، حتى توارينا في طريقنا الى الخليل .

## ٧

من هنا ، من الخليل استطعنا أن نتصل بقيادة الفدائيين في بيت لحم تليفونياً ، وأعلمناهم بأننا في الطريق إلى كتيبتنا في جنوب القدس . ولكن القيادة طلبت منا أن نبقى في الخليل حتى يؤذن لنا غداً بما نفعل .

وجنحنا الى المدرسة الثانوية في الخليل ، حيث أقمنا ليلتنا مـــع جماعة من الجيش المصري .. وغدونا ننتظر الإذن بمواصلة رحلتنا .. حتى إذا متع الضحى أقبلت علينا ثلة من الجيش الأردني ومعهم ضابط بريطاني ، أظنه قائد الكتيبة البريطانية المعسكرة ها هنا في الخليل منذ زمن بعيد . ولأول مرة نرى جيشاً عربياً يقوده ضباط من أعدائه ، وكنا نعلم أن كبار ضباط الجيش الأردني بريطانيون جميعهم ، الا ما ندر . ولكن ليس الخبر كالعيان ، إذ كان وقع العيان مؤلماً .. موجعاً للنفس العربية .. مهيناً للكرامة . ليس لكرامـــة الأردني وحدها ، بل ولكرامتنا ، بل ولكرامة الأطفال العرب الذين لم يولدوا بعد .. ليت شعري هل يشعر الجيش الأردني بشعورنا الآن ؟!

وكان قد تجمع بضعةعشر رجلاً من رفاقي على الرصيف أمام فصول المدرسة يلاحظون الأعجوبة متوجعين ونفوسنا تتساءل: كيف ينصاع أبناء العرب لقيادة انجليزي ؟

— لا بد أنهم مكرهون .. لا بد أنهم يقتونهم ، قال بعض اخواتي .

— لا ، لا أظن ؛ ما أراهم إلا وقد روّضوا على طاعة ضباطهم حتى ألفوها ..

— انظر إلى ذلك الطويل النحيل .. إنه قادم نحونا ..

وكان يقصدني .

إنني أشعر بتقزز نحوه .. وقال يحدثني بلغة عربية : هل أنتم مصريون؟

— لا .

— من أين ؟

— من ليبيا .

— مرحباً بكم ، هل أنتم مقيمون ها هنا ؟

— نحن مسافرون ، وأنتم ستستقرون ها هنا ؟

— نعم ، نحن مستقرون من قديم .

- ولكن الجيش الأردني صغير ، كيف تتسنى له تغطية هذه الدنيا كلها: من الخليل الى القدس إلى اللد الى الرملة .. إلى نابلس ؟

- ما عندك فكرة يازلما عن جيشنا ..

وانصرف مشيعاً بحقد دفين ونفوس مشمئزة . كان يبحث عن المصريين كأنه يحمل رسالة إليهم . ولم يكن بعض رفاقنا يعلمون أن في الجيش الأردني أو في أي جيش عربي ضباطاً من الإنجليز . ودهشوا ولم يصدقوا بسهولة عندما قيل لهم إن القائد الأعلى للجيش الاردني كله إنجليزي ، وكبار الضباط جميعهم انجليز ..

- إذن كيف يحاربون دولة اسرائيل وهم الذين خلقوها ؟

- لسنا ندري ؟

●

هيا بنا نجول جولة ختامية حول المدينة الى ان يؤذن لنا بمواصلة الرحلة...

ولما دخلنا السوق في ذلك الصباح ، كان أهل الخليل الميامين في شغل شاغل بتجارتهم ومصالحهم ؛ وشعرت كأنهم ليسوا من الحرب في شيء ، ولكن سرعان ما تنبهت إلى أن أهل الخليل هؤلاء ، الذين تراهم اليوم يقفون أمام الدكاكين، أو الذين يحملون على اكتافهم قفاف الخضراوات، أو أولئك الجالسون يتجادلون في شئون الحياة ، وكل هؤلاء الرجال الذين تراهم في هذه المدينة يلقون بكوافيهم خلف أعناقهم ، هؤلاء هم الذين لا يجزعون ولا يرهبون ، ولهم في حساب الموت الأحمر رصيد يعدل رصيدهم المتضخم في حساب الكرامة وعزة النفس ..

هؤلاء هم الذين دمّروا كل ما يحيط بهم من مستعمرات اليهود ، وطهروا المناطق المجاورة من شرورهم. إنهم، سواء منهم الصغير والكبير والأمير والأجير، يرهبهم الصهاينة ويحسبون لهم ألف حساب . فلا يطمعون في الخليل ولا تحدثهم

أنفسهم حتى في المناطق المجاورة للخليل .

والبلاء نفسه يرهبهم ، ويخشى سطوتهم . كانوا ذات يوم يفكرون في هذه المستعمرات المجاورة لهم هل يقصمون ظهرها؟ أو ينتظرون سياسة زعماء العرب وجيوشهم ؟ أو ماذا يفعلون؟ كانوا يتجادلون في الأسواق مثل ما تراهم الآن ، ولا يخشون بينهم دسيساً للصهاينة أو الانجليز. ولهم الحق، لأنهم جميعاً أطهار، لا يدنس أرضهم دسيس ولا خسيس. وكان الاستعمار البريطاني جاثماً على فلسطين، يوم أن كان منهم مسافرون إلى القدس ، وعند مرورهم على مستعمرة دير الشعار اليهودية ، أطلق عليهم الصهاينة الرصاص متناثراً حول سياراتهم . في ذلك اليوم انتهى الجدال بين الرجال في المنازل والأسواق ، وكان آخر يوم في حياة دير الشعار الصهيونية .. إذ اجتمع حولها البلاء قادماً من هـــذه المدينة واقتحمها الرجال وعلى الرغم من محاولات الانجليز امست المستعمرة خبراً يرويه المارون عليها من صفحات بطولة أهل الخليل . يقولون وهم يمرون عليها ويشيرون بأيديهم : هذه كانت مستعمرة للصهاينة .

ثم تساءل الخليليون : متى تطهر مستعمرة كفار عصيون من الصهاينة الذين يدنسونها ؟ فكان الجواب لهذا السؤال ٤٠٠ قتيل من الصهاينة في أكبر مستعمرة وأقربها إلى الخليل، وطهرت تطهيراً لا هوادة فيه . ثم ذهبوا يحاصرون أخواتها المستعمرات الثلاث الأخرى ويصبون عليها البلاء . ولما بلغ سكانها نبأ ما حل بأختهم الكبيرة من فناء والاربعمئة مجندل هنالك، لم يجدوا بداً من الاستسلام قبل ان يحل بهم الوبال . فأخذوا منهم ٣٥٠ رجـــلاً أسيراً . وسلموهم للجيش الأردني وسرحوا النساء والأطفال ، ومنذ ذلك اليوم لم يعد للصهاينة وجود ها هنا ، ولا قريباً من هنا .

حيا الله أهل الخليل ..

# ٨

حين عدنا الى المدرسة علمنا بأن خـــلافاً نشب بين المصريين والأردنيين استمراراً لنزاع سابق حول الدفاع عن الخليل وحكمها الاداري . وبعد نقاش طويل ومحادة وخصومة.. فض النزاع ، ليعود كل طرف إلى قيادته مرة أخرى.. وبعد مشاورة قياداتهم عادوا لنزاعهم وكان في هذه المرة على مشهد منا .

وطال النزاع أخذاً ورداً ...

وكان إلى جانبي الشاب الدرناوي صالحين ، يلاحظ كيف تجري الأمور ، فقـال :

– تحدثني نفسي بأنهم يتنازعون على غنيمة ..

قلت : كنت أفكر في هذا منذ لحظة . ليت هذا النزاع كان منافسة على احتلال تل أبيب ، وليس عن الخليل العربية .. أو حتى منافسةً على استرداد مدينة عربية. يافا أو حيفا.. والغريب أنهم يتنازعون بعد مشاورة قياداتهم..

لا بد أن المصريين استشاروا قيادتهم ، والقيادة عادت لوزير الدفاع محمـد حيدر الذي يتلقى التوجيهـــات من قصر عابدين . فهل ترى للملك فاروق ، الملقب بملك مصر والسودان ، أمل أن يلقب بملك مصر والسودان وفلسطين ؟ والاردنيون لا بد أنهم عرضوا إِشْكَال المصريين على جلوب ، وجلوب يدرك خطته المرسومة فما عساها تكون .؟

أهي عربية ؟ ولصالح حكومة جيشه ؟ أم ...

أمر محير ...

قال صالحين : ألا تذكر ماذا أعلن المستر بيفن ، وزير خارجية بريطانيا في مجلس العموم منذ أيام ؟ ذلك تفسير لحيرتك ..

– هل تقصد تصريحه في مجلس العموم : « بأن الجيش الأردني سوف يقف عند الحدود التي رسمها تقسيم الأمم المتحدة ، ولن يتجاوزها . » ؟..

قال صالحين : ذلك يفسر خطة جلوب المرسومة ..

قلت : من الصعب أن يصدق الانسان ذلك .

قال : ولم ؟ ألم يكن الجيش الأردني موجوداً في الخليل هذه منذ وقت قديم .. مع وجود الانتداب البريطاني ؟ ألم تكن له معسكرات في معظم المدن الفلسطينية ثم انسحب إلى المدن المخصصة للعرب حسب التقسيم دون غيرها ؟ وكان الجيش الأردني حراً في التحرك حيث يشاء . كان يعسكر في منطقة الخليل ونابلس ورام الله وأريحـــا وغزة ورفح .. ولِمَ لَمْ يبق مُعَسكِراً في يافا وحيفا ؟ لِمَ انسحب من القسم المخصص لليهود قبل ١٥ مايو ؟

ثم ألا ترى أن نصف الجيش الأردني موجود في الأردن ونصفـــه الآخر موجود في فلسطين ( فيما سمي فيما بعد بالضفة الشرقية والضفة الغربية . )؟ وإنك لتعجب لِم سمحت الحكومة البريطانية لجيش دولة عربية أن يقيم له معسكرات وقيادات في أرض ليست هي أرضه ؟

قلت : لا ، لا أوافقك يا صالحين ، حسّنْ ظنك... الجيش الأردني معسكر في فلسطين منذ الحرب العالمية الثانية .

●

قال : دعنا من هذا وقل لي : ماذا نفعل لو نشب بين الفريقين قتال الآن ؟

– نحاول أن نصلح بين الطرفين .

– وان لم نفلح ؟

– ماذا نفعل ؟ إن لم نفلح ، لا شيء .

قال صالحين : كيف لا شيء ؟

قلت : وماذا نفعل ؟ ليست لنا مملكة نطمع في ضم الخليل إليها

ـ وان نشب قتال فهل تظن الأردنيين العرب يقاتلون إخوتهم المصريين ؟

ـ انني لا أتوقع هذا ..

وحاولنا أن نصلح بينهما ولكن النزاع كان أكبر منا ، فالانجليزي يدعي أنهم أصحاب الحق في الدفاع عن الخليل ، والمصريون لا يعترفون به ، ولا بحقه ويقولون لهم : أبناء العرب هم أصحاب الحق في الكلام . وكانوا يتفادون توجيه الحديث الى الانجليزي بل يوجهونه إلى الضباط الاردنيين ، ولكن هؤلاء لا يتدخلون ..

ومن بين المصريين ضابط رشيق شاب يأكل الغيظ قلبه ، أشد رفاقه غيظاً وتقززاً من الإنجليزي ، يشتمه جهاراً. كنت أرى في عينيه ألسنة لهيب الغيظ. كان يقول : « اذهبوا لبلادكم واعملوا انفسكم ضباطاً هنالك ولكنكم في بلادكم لستم أكثر من صعاليك ...» ، وكلام من هذا النوع لم أسمع بعضه ، ولم أتمالك حين رأيته يثب اليه ويصفعه على وجهه .

عندئذ قفز قلبي في جوفي الى ما انتهت اليه المشادة من حال خطيرة أيقنت الآن أنها انتهت الى قتال محقق . وانتظر الانجليزي أن يثور جنوده .. ان يبطشوا بالضابط المصري .. أو حتى أن يهددوا .. ولكن سواكن أحد منهم لم تتحرك ... خاب ظنه ، فهم مستعدون جميعاً إذا حزب الأمر أن يقتلوا مع ابن اختهم المصرية . لن يروعوا العجوز المصرية في ولدها ، لن يقتلوا أبا أطفال عرب ... أطفال يدعون كل عربي عماً لهم ... هكذا قال لنا ضابط منهم فيما بعد .

ولا تسلني عن شعور ملأ قلبي وفاض ..عن جنود عرب لا يروعون أختهم في ولدها رغم أنف قائدهم الانجليزي.. ولا تسلني عن إعجابي بحمية عربية تصفع متطفلاً دخيلاً. لن أنسى هذا اليوم ... ولا تسلني عن أحاسيسي المتباينة عن المسرحية التي شهدت أحد فصولها .

# ٩

وتخاذلت إرادتنا ازاء هذه الأحاسيس ، ولذا لم نمانع ، حين جاءتنا أوامر القيادة ، بالانثناء عن بيت لحم والذهاب الى عصلوج .

ولن نمانع في التوجه الى أي مكان بعد هذا الفصل الذي شهدناه .

وكانت نفوسنا تختلج بالمشهد الذي وقع في مدرسة الخليل والسيارات تخضّنا وتهدهدنا في طريق صحراوي الى بئر السبع .

وفي الطريق كنا نقف عند الحواجز التي نصبها الجيش المصري عند مفترق الطرق ، وملتقى القرى والمدن . وقد وقفنا أكثر من مرة قبل أن نصل بئر السبع . . وفي كل مرة كنا نجد سرية من الفدائيين الليبيين من الكتيبة الثانية الذين خلفناهم يتدربون في مرسى مطروح ، وكانوا يفرحون بلقائنا ، ويتساءلون عن أخبار كتيبتنا الأولى . ويشكون مر الشكوى لأن القيادة تحول بينهم وبين الالتحام باليهود في معارك حقيقية . . ويكتفون بحراسة الكباري والطرق وينابيع المياه ، وتطويق المستعمرات اليهودية عن بعد .

كانوا جميعاً يتذمرون ويحدثون أنفسهم انهم لو كانوا يعلمون أن الحرب ستجري على هذا النحو ما جاءوا إلى فلسطين ، إذ كانوا يظنون أن الحرب ستكون حرباً حقاً .

وأشد ما يكون تذمرهم من السلاح الذي بأيديهم ، قالوا : إنه فاسد ، وغير صالح للاستعمال ، وقد خذلهم في عدة مواقف . وكثيراً ما أضرّ بهم ولم يضر بعدوهم . وهم لا يتوقعون القدرة حتى على مقاومة الأعداء طالما كان هذا سلاحهم . وأما نحن فلم نكن نشعر بخيبة تجاه ما بأيدينا من سلاح بعد موقعة

دير البلح .. سلاحنا جيد وذخيرتنا جيدة .

●

كانت الكتيبة الليبية الثانية موزعة إلى وحدات صغيرة موزعة في مناطق متباعدة جداً شرقي بئر السبع وشمالها .

وتوقفنا بعض الوقت لنتحدث الى الموجودين منهم في المدينة ويتحدثوا إلينا ، وعلمنا منهم أخبار الليبيين الذين يتدربون في مرسى مطروح ، فقد زاد الشباب الليبي الموجود فيه ، ولا يزالون يتقاطرون بالمئات كل صباح. وضاق بهم المعسكر حتى بعد ترحيل الكتيبة الثانية إلى الميدان في بئر السبع ، والثالثة إلى بربرة في منطقة غزة ، والرابعة إلى القاهرة في طريقها إلى لبنان ، والخامسة وتعدادها نحو ألف رجل – في طريقها إلى سوريا ، أو هي الآن في الميدان فعلاً .

ولسنا ندري ماذا فعلت الجامعة العربية ؟ وما وضعت من حلول لهذا الطوفان من الشباب الليبي الذي أقبل بحماسة يريد التدرب والسلاح ... ؟ ولو كانوا يعلمون الحقيقة التي لمسناها هاهنا لوفّروا على أنفسهم التعب ، وعلى بلادهم المشاكل .. فليست هنالك حرب . وماذا ستفعل الجامعة العربية ؟ التي لم تكن يوماً ، حتى في قضية فلسطين ، لم تكن في مستوى المسئولية إلا مستوى التصريحات النارية حيث نالت إعجابنا حقاً ...

وظللنا في مثل هذه الأحاديث من التذمر إلى أن تنادت قافلتنا الصغيرة للرحيل من بئر السبع في طريقنا الى مدينة عصلوج ، على بعد أربع وثلاثين كيلا قضيناها في حديث وتسقّط أخبار الميدان من الإذاعات العربية .

# ١٠

وكان الراديو يتحدث عن الهدنة المرتقبة بين العرب واليهود . والسبب في هذه الهدنة كان الوضع الذي يسود الجيوش العربية في فلسطين .

كانت هذه الجيوش قد احتشدت في فلسطين .. وكان الجيش المصري يحاصر جميع المستعمرات في جنوب فلسطين . والجيوش العربيـــة الأخرى تحاصر المستعمرات الواقعة في شمال فلسطين. والجيش الأردني والمجاهدون الفلسطينيون احتلوا الحي اليهودي في القدس القديمة ، ويحاصرون مئة ألف يهودي في القدس الجديدة . والعاصمة الصهيونية مهددة بالسقوط بين لحظـة وأخرى ، ويتوقف سقوطها على هجوم صادق من أي الجيوش .. ودولة اسرائيل وصلت إلى حالة ميئوس منها ، إذ وجدوا السلاح الذي سلمـه لهم الانجليز حين انسحب ، لا يدفع عنهم كتيبة واحدة من كتائب الجيوش العربية ، بعد أسبوع واحد من انسحابه .

وضح هزالهم وانكشف ضعفهم خـــلال أسبوع واحد .. ورق لهم قلب الأميركان ، وعطف على ضعفهم .. وذرفت بريطانيا دمعة اشفاق حارة ، وخفت لنجدتهم .. فتقدمت إلى مجلس الأمن بإيعاز من أمريكا باقتراح محتواه إيقاف القتال لمدة أربعة أسابيع ، وتعيين وسيط للتوفيق بين الطرفين لإيجاد حل لقضية فلسطين ..

وقد علمنا ان مجلس الأمن أقر الاقتراح البريطاني يوم ٢٩ مايو ، بعد أقل من أسبوعين من إعلان دولة الصهاينة ، وقبله العرب ، ولو تظاهروا بأنهم لا يريدونه رغم أنف الصحفيين والخطباء ، ولسبب بسيط يتضح بإلقاء نظرة على ما في أيدي الجيوش العربية من سلاح يحاربون به إسرائيل . سلاح



شبكة الطريق الى السنة www.way2sunnah.com/books للمزيد من الكتب

الجيش المصري الجليزي ، وذخيرته وقطع غياره الجليزية ، والجيش العراقي والجيش الأردني كذلك.. وأما المتنطعون فهم يهرجون لأنهم يجهلون الحقيقة ، ولم نسمع بأحد منهم قط يجرؤ على القول بشراء الاسلحة من دولة غير موالية لإسرائيل ... ولو همس أحدهم بلمح بشيء من هذا لانقلبت الدنيا وسقطت حكومات .

للمزيد من الكتب www.way2sunnah.com/books شبكة الطريق الى السنّة

# صراع في عضلوج

للمزيد من الكتب www.way2sunnah.com/books شبكة الطريق الى السنّة

## ١

وأخيراً ألقى بنا الطريق الصحراوي إلى قرية على جانب الطريق . هذه هي مدينة عصلوج العربية التي تحفها تلال أقيمت على قننها مجموعة من المستعمرات اليهودية ، أعدت في مركز حربي حصين ، حتى لكأن عصلوج العربية أقيمت في واد تحت أقدام تلك المستعمرات... ها هنا سنقيم .. ونرجو أن يكتب لناحظ تحرير هذه الهضاب من المستعمرات المعادية .

وهنالك وجدنا حاميتها على خلاف شديد مع قائدهم اليوزباشي عبد المنعم عبد الرؤوف ، وقد ظهر علينا هذا اليوزباشي منتفخ الصدر والأوداج ، معتداً بنفسه أكثر من الطبيعي .. متعالياً إلى حد الغرور . وتبدو الجرأة والإقدام في سلوكه كأنه أسد .. أو هو مستأسد ... لست أدرى . يحيط نفسه بهالة من الأبهة والشموخ ، ويحيط مكتبه بشباب يقومون على خدمته وتلبية طلباته .. والسير في ركابه إذا سار .. يذكرك بعصر أمراء الخدم والغلمان .

أعجب بعض جماعتنا بمظهر جبروته . ولكنه لم يعجب بعضهم الآخر ، وفسروا مظهره بأنه يشعر بنقص ، ومن يشعر بالنقص في داخله يكمل وجوده في مظهره الخارجي ..

●

وهنالك وجدنا حامية مزيجاً من المصريين وزملائنا الليبيين المنضمين إليهم



شبكة الطريق الى السنة www.way2sunnah.com/books للمزيد من الكتب

حينما كنا في العريش . تتألف هذه الحامية من نحو مائـــة رجل بينهم ثمانية عشر ليبياً .

كان ذلك اليوم ٧ / ٦ / ٤٨ يوم توقفت سيارتانا بعصلوج . ورحب بنـــا إخواننا ، وتحدثنا عن الهدنة الآتية بعد ثلاثة أيام ، ابتداء من ١١ / ٦ / ٤٨ . وفهمنا أن الحامية على خلاف مع قائدها ... فهو يريد أن يجردهم من سلاحهم ، لأن الهدنة قادمة بعد ثلاث ليال ، ويخشى ألا يلتزم هؤلاء الفـــدائيون بحقوق الهدنة ، فيخرقونها . ويسببون للقيادة حرجاً .. وليس هو وحده الذي فعل ذلك .. بل ان قيادات القطاعات الاخرى فعلت ذلك . ولعله مأمور بذلك ، ولكن الجنود لا يرون ضرورة لتجريدهم من أسباب الدفـاع عن أنفسهم .. وأخـــيراً أقنع بعضهم فسلموه سلاحهم ، ومنهم عشرة من الليبيين . وامتنع الآخرون ومنهم ثمانية من الليبيين .

●

ولما استفحل بينهم الخلاف ، وتعرضت هيبته للمساومة .. لم يجـد بداً من استقدام سرية من الفـــدائيين السودانيين الموجودين في بئر السبع ، ليقوموا بانتزاع سلاح جنوده . وكان السودانيون قد وصلوا قبلنا بقليل ... ولما وصلنا بعيدهم ، ونحن نحمل سلاحنا ، حسبوا أننا جئنا لنفس الغاية .. لتجريدهم من سلاحهم .. وكان الأمباشي الليبي أبو دبوس هو الذي يتزعم المتمردين ..

ولمـــا لم يستطع الإخوة السودانيون أن يحققوا له شيئاً ، طلب ان تسلم له الذخيرة فحسب ، ولكنهم رفضوا أيضاً . وماذا يفعلون بسلاح من غير ذخيرة؟. بل ان عثمان ابا دبوس وبعض المتمردين كانوا يطالبون بمزيد على ما في حوزتهم من ذخيرة ونحن نرى أنهم محقون .

ذلك أن المستعمرات اليهودية متمكنة في مركز عسكري حصين ، متسلط



للمزيد من الكتب www.way2sunnah.com/books شبكة الطريق الى السنة

على القرية العربية ومحيط بها. وعدد الحامية قليل ، حتى بعد انضمامنا اليهم الآن . بالإضافة إلى أن اليهود ها هنا يملكون سلاحاً مدرعاً لا يملك منه الفدائيون شيئاً. وبالإضافة إلى ان اليهود أهل غدر ولا ميثاق لهم ..

## ٢

كنا نتحدث في هذا ، ونحن ننزل أحمالنا من السيارتين حين قدم علينا اليوزباشي بعد تجريد جنده من سلاحهم وحفظه في المخزن قائلاً :

– ماذا تفعلون ؟

قلنا : إننا وصلنا لتونا من الخليل. أمرتنا قيادة الفدائيين في بيت لحم بالتوجه إلى عصلوج ، وها نحن طوع إشارتكم ...

– ماذا ؟ لا ، لا ، لا أريد أحداً منكم يقيم معي ها هنا .

وبعد نقاش من جانبنا ، وإصرار وحرص شديد على ترحيلنا من جانبه واتصالات بالقيادة ، ومراجعات لبئر السبع وعوجا ـ الحفير ، وجدنا أنفسنا حائرين لا ندري ماذا نفعل ؟ فلا قيادة عصلوج تقبلنا ولا قيادة بئر السبع تعرفنا أو تعترف بنا ..

وظللنا هنالك نفكر فيما نفعل .؟؟ وأي متجه نسلك ازاء هذه الفوضى المتناهية ..

●

وتساءلنا عن البنباشي الورداني ، القائد الذي يعرفنا ونعرفه ، إن كان يوجد



للمزيد من الكتب www.way2sunnah.com/books شبكة الطريق الى السنة

في بئر السبع؟ ولكنه كان في عوجا ـ الحفير فاتصلنا به ، وطلب منا بقوله :

ـ تعالوا الى عوجا ـ الحفير .

ودعنا رفاقنا وسرنا ثلاثة واربعين كيلا. ولما وقفنا كان هنالك على قارعة الطريق رجل مؤمن ، طيب القلب، منشرح الأسارير ، يستقبلنا في بلدصحراوي صغير ، ليس به من العمران إلا بقيـة دور خربة ، وأثر لقلعة تركية ، وسوق تعقد مرة في الاسبوع . وما عدا ذلك فأرض قفر .. هذه قرية عوجا ـ الحفير ، التي لا تبعد كثيراً عن حدود الأراضي المصرية وهي تقع على أحد سبيلين يصل مصر بفلسطين. ولما أشرقت شمس اليوم التالي إذا البلاد أرض منبسطة على امتداد الأفق ما وليت وجهك ..

●

وتبحث فيها عن آكام ليكن الرجال خلفها ويتخذوها منزلاً وثكنات ، فلا تجد إلا هذا الجبل الذي يحرسها من الغرب ، مرت عليه أحقاب ودهور وهو شامخ كؤود ، معمور بخرائب الأولين ...بطاحٌ تملأ النفس بوجيب العبر وصليل الدهور ، قبل عاد وثمود .

وانتثرت جماعات الجند يعدون ثكنات لهم حول العوجاء من كل جانب ..

وتشارف الشمس على الغروب ، فاذا هي محراب للجمال الفسيح ولروعـة السكون والخلاء ، محراب طاهر للمتبتلين العابدين وليست ميـداناً للفدائيين . لذلك بات الرجال ليلتهم يتململون : ما لهذا جئنا ؛ إنما جئنا لنخوض المعارك ونحرر الارض ؛ أنظل ها هنا قعوداً والقرى العربية تتساقط بـين يدي اليهود كاوراق الخريف ؟

ونحادث القائد .. والقائد يطمئننا بكلمات حلوة ولكنها جوفاء .



شبكة الطريق الى السنّة www.way2sunnah.com/books للمزيد من الكتب

# ٣

وتزداد موجة التذمر ؛ وأثناء هذه الفترة تمر بنا قوافل الجيش الأردني تشق عباب الرمال قادمة من خليج العقبة أو من معان ، وذاهبة الى مدينة رفح حيث تعسكر وحدات من جيشهم هنالك. وكل قافلة أردنية تقف عندنا بضعة ساعات في الذهاب وفي الإياب يتحدثون إلينا ونتحدث إليهم ، وأعجب جنودنا بمدرعاتهم وسلاحهم وظنوا أن الجيش الأردني ربما يخوض معارك لا تنتهي بعد هذه الهدنة القادمة ، كما قال لهم الجنود الأردنيون المتشوقون هم أيضاً للقتال .

وفكر بعض جنودنا في الهروب من قيادة الجيش المصري الى الجيش الأردني. وشجعهم الجنود الأردنيون ، وزينوا لهم أن يفعلوا ذلك .

●

حسبنا أننا سنقيم ها هنا مدة طويلة ، حتى ينتهي تحرير فلسطين ونحن لا نفعل شيئاً ، وتحرير فلسطين مرهون بهجوم صادق من الجيوش العربية على غرار الهجوم الذي قام به الجيش المصري البطل في دير سنيد . وما هي الا أيام حتى تحرر فلسطين ونحن ها هنا رقود وهذا ما يغيظنا غيظاً يائساً لا رجاء فيه ..

لذلك ، في ليلة الهدنة ذاتها ، اجتمع سبعة رجال وجمعوا متاعهم وسلاحهم وفروا تحت جناح الظلام يريدون مدينة معان سيراً على الاقدام .. وهم يحلمون بالانضواء تحت لواء الجيش الأردني ، وبخوض المعامع في مدرعات مثل هذه التي تمر بهم في عوجا ـ الحفير .

ولما طلعت عليهم الشمس كانوا قد افتقدوا المسرب الذي تسلكه القوافل



شبكة الطريق الى السنة www.way2sunnah.com/books للمزيد من الكتب

الأردنية . ووجدوا أنفسهم في تيه من الرمال لا مَعْلَمَ فيه ، ولا أول له ولا آخر .. ولكنهم قد تعودوا على المهامه وخوض الرمال .

●

أمضوا يومهم ذاك يخرون بحراً من رمال هشة ، حتى انتصف الليل وأرهقهم السير وانهكهم خوض الرمال ، فنام ستة منهم وبقي سابعهم يحرسهم من الذئاب وحيوانات الخلاء ، وهم لا يعلمون بأي أرض ناموا . ولما كان الصباح وجدوا انفسهم في منخفض تحيط به تلال من الرمال شاهقة يرابط عليها رجال من تلك البادية يحاصرون الهاربين التائهين .

ولم يصدق أهل البادية أنهم يحاصرون عرباً اخواناً لهم ، بل حسبوهم صهاينة الى ان تبادلوا إطلاق النار .. وأخيراً كان الأعراب نعمة للهاربين إذ هدوهم السبيل إلى معان .

●

هنالك استقبلهم الجيش الأردني وضمهم إلى وحداته ، ونقلهم إلى معسكر في المفرق وظلوا هنالك في الأردن بعيداً عن الميدان إلى انتهت حرب فلسطين ، وطلبوا أن يعودا الى ديار الوطن . فودعهم الجيش بمثل الحفاوة التي استقبلهم بها .

أما نحن فقد بقينا ها هنا في عوجا - الحفير مرتابين نخشى أن تنتهي الحرب ونحن هنا نيام .

## ٤

ونتابع أخبار هذه الهدنة . ماذا يعني قيامها بين العرب واليهود ؟ وما عسى



شبكة الطريق الى السنة www.way2sunnah.com/books للمزيد من الكتب

أن يكون وراءها ؟ إنني كثيراً ما أتساءل وأتابع الظنون وأنا اتفقد الثكنات المتباعدة في هذه المنطقة والأرض فيها خلاء ، والأيام متشابهة ، والطعام بشماط وسردين ، والماء نادر لا يكاد يفي بالشراب .. وذات يوم قال صالحين : اشترينا دجاجاً اليوم ، وطبخنا طعاماً . هلا جئتنا لتنعش نفسك بطعام ساخن ... صاخت نفوسنا من الطعام المحفوظ البارد ..

قلت : سآتيكم عند الظهر .

وعند الظهر انحدرت مع الوادي ثم صعدت الجبل إلى الثكنة رقم ٦ ، حيث يعسكر ستة رجال قد وضعوا علبة صفيح قديمة على ثلاثة أحجار ومن تحتها نار وحطب ودخان. وحولها ثلاثة رجال يتحدثون وهي تفوح برائحة طبيخ شهي. وجاء رابع يحمل كؤوساً صغيرة وإبريق الشاهي وهو يسائلني :

– ما خبر هذه الهدنة يا سي محمد ؟

– علمي علمك . يا سي أبا عجيلة ، ولكن اسأل عنها صالحين ، فعنده الخبر اليقين .

– إنها لا تحتاج لتفسير ، هل العرب يبتغونها ؟

– لا ، ولكنهم قبلوها .

– ومن ذا الذي سعى لإقرار هذه الهدنة ؟

– سمعنا أنهم الانجليز والولايات الامريكية المتحدة سعت لإقرار الهدنة عن طريق مجلس الأمن .

– الذين خلقوا اسرائيل والذين اغتبطوا بإعلان دولة اسرائيل ، والذين يمدونها بالسلاح هم الذين سعوا للهدنة ... إنها هدنة واضحة المعالم ... إنها فرصة اليهود للتسلح بالسلاح ...

●



شبكة الطريق الى السنة www.way2sunnah.com/books للمزيد من الكتب

وكان صالحين قد أقبل وهو يقول قبل ان يجلس :

– واغمّي من زعماء العرب !. . هؤلاء ساستهم وحكامهم، لا هم يتحدون ترومان وشلته ، ويحاربون بحق .. ولا هم يصارحون شعوبهم ويعلنون بأنهم لا يملكون قوة يعارضون بها رغبات أمريكا وبريطانيا في إقامة دولة العصابات .

قلت : يا صالحين ، إنك امرؤ قنوط . ألا تظن أن لقبول الهدنة وجهاً آخر غير الوجه الكالح الذي ينسجه خيالك المشبوب .؟

ثم ألا يجوز أن تكون للحرب أسرار غير التي نراهـا ؟ وهل لو كنت أنت أحد هؤلاء الحكام تستطيع أن تفعل غير ما يفعلون الآن ؟

ثم هل تريد أن تعرف ماذا سيحدث لو لم يقبل حكام العرب هذه الهدنـة المفروضة ؟

قال صالحين : دلني ما عسى أن يحدث ؟

قلت : أؤكد لك إذا استمر العرب في الحرب وعملوا في ميدانها بإخلاص ونية صادقة ، فلن تقف أمريكا مكتوفة الأيـدي ومن ورائها بريطانيا تدس السم في الدسم..سوف تسوق أمريكا عتادها ورجلها لحماية ربيبتهم اسرائيل .. وسيلبس المستر ترومان حينئذ وجهاً جديداً يبدو فيه من أبطال نصرة الأمم المتحدة الغيورين على إقرار السلام ..

إنهم إلى الآن لم يضطروا الى هذا التدخل السافر ، ويرون ان التدخـــل السياسي أفضل وأستر لهم أمام العـالم من التدخل العسكري ، ولن يتدخلوا عسكرياً ما لم يركب العرب رؤوسهم .. والعرب كل العرب يعرفون هـــذا . ويحذرون مواجهة أمريكا بالعداء .. أو لست ترى ذلك ؟

قال صالحين : إنه من الأشرف لنا أن نواجه عدونا الذي لا بد من مواجهته يوماً ما .. ومن الأشرف لنا أن تهزمنا أقوى دولة في العالم ، بدلاً من هزيمتنا على أيدي شرذمة من حثالات البشر .

قلت : يا صالحين . ألا يجوز أن تنعكس الأوضاع ساعة ما ؟



للمزيد من الكتب www.way2sunnah.com/books شبكة الطريق الى السنة

ثم ألا يجوز أن تؤول هذه الحرب إلى حال آخر أكرم للعرب .؟

●

قال صالحين : بلى ... حقاً آلت الحرب إلى حال آخر . وكشفت لنا هذه الهدنة عن ذلك الحال الأليم . ألا ترى ما نقلته الصحف من خلاف بين زعماء العرب وملوكهم .. ؟ ألا ترى تلك الخصومة السياسية الحادة التي تجري وراء مسرح الأحداث ؟

قلت : بل هو خلاف وهمي ضخّمه الصحافيون .

قال بجدة : بل هو خلاف حقيقي وجوهري .. جعل من الجبهة جبهتين ، ومن الجامعة العربية جامعتين، ومن الوحدة معسكرين.. ألا ترى ان النقراشي حين أبلغ وسيط الأمم المتحدة بقبول الهدنة، أبلغه باسم حكومة مصر ولبنان وسوريا والسعودية ؟ ولم يأت بذكر الأردن ولا العراق ؟

هذا هو الوجه الذي كشفت عنه الهدنة ... إن العرب انقسموا إلى معسكرين : معسكر مصر والسعودية ، ومعسكر الهاشميين ..

ثم اسأل نفسك يا سي محمد: لماذا انقسموا ؟ وما وراء هذا الانقسام .؟

تحاسد .. تباغض .. مطامع .. وبالتالي : انقسام .. هزيمة .. هل فهمت ؟

قلت له : لا أريد أن أفهم .

## ٥

ولم أتناول الطعام الساخن معهم .. فقد جاءت سبع سيارات ووقفت أمام مخازننا . أقبلت من طريق مصر . وجاء جندي من حراسة القيادة يقول لي :

— الورداني بك يدعوك ..



شبكة الطريق الى السنة www.way2sunnah.com/books للمزيد من الكتب

وقال لي الرفاق : هل ننتظرك للغداء ؟

قلت : لا تفعلوا . قد يطول انتظاركم ..

وانحدر بي الجبل الى بطن الوادي ذي الاشجار القليلة المتناثرة وكأنها في هذه الصحراء غيضة لفتاء . ودلفت إلى القيـــادة في البيت الصغير القائم على حفافي الوادي ، وشددت جسمي في سمت عمودي ، وشددت يـدي إلى قرن جبيني بالتحيـة :

– لبيك حضرة القائد ! هل دعوتني ؟

– نعم ، هل لك في كأس شاهي ؟

– شكراً ، كلا يا سيدي .

– لدينا في المخازن بعض السلاح والذخيرة ، نريد شحنها على هذه السيارات القادمة من العريش . ادع بعض رجالك .. لا بد أن يتم ذلك قبـل الليل . ولا بد أن تصل السيارات الليلة، لأن الهدنة تبدأ غداً الساعة العاشرة صباحاً ،وقبل هذا الميعاد يجب أن تكون السيارات في بئر السبع ..

– أمرك ..

●

وكان له ما أراد . شحنت السيارات بصناديق الذخيرة والقنابل ، بالاضافة إلى ما شحنت به في العريش من سلاح ومفرقعات ،وانسحبت الشمس تجر وراءها يوماً من شبابنا وآمالنا .. واختبأ الليل بـــين خرائب عوجا الحفير ، وأذنت السيارات بالمسير إلى وجهتها ، وبعد حين امعنت في الصحراء وخَفَت هديرها ، ثم اختفت أشعة مصابيحها تجـاه عصلوج فبئر السبع .. وهنالك في عصلوج افرجت لها البوابات ودخلت تتهادى ثم توقفت هنيهـة لإنزال بعض حمولتها .



شبكة الطريق الى السنّة www.way2sunnah.com/books للمزيد من الكتب

وكادت تأخذ طريقها حين استبقاهم حضرة قائد عصلوج وطلب منهم ألا يرحلوا إلا غداً صباحاً .

كان ذلك القائد قـــد خلع نعله ، ومد رجله ، وألقى بقبعته على المنضدة ضاحك الأسارير ، منبسط النفس ، ينقر بأصابعه ، ويميد برأسه ذات اليمين وذات الشمال على ألحان أم كلثوم وصوتها الشدي المنبعث من الراديو فوق المنضـدة ، مشاركة منه في الليلة الساهرة التي تحييها أم كلثوم في القاهرة هذه الليلة ، وهي تغني في القاهرة وصاحبنا يميد هائماً في عصلوج .

●

واقبل جندي ليبي حينذاك يقول له :

— سيدي القائد سمعنا حركة مريبة لليهود ، فهم يتقدمون نحونا الآن . أعطنا سلاحنا .

— لا يا شيخ ؟

— إن حركتهم غير طبيعية ، تعال الى ثكنتنا وانظر .

— اذهب الى ثكنتكم ، ودعني من أوهامك .

ودخل فدائي مصري يقول :

— صحيح يا بك . ونحن شعرنا أيضاً . انهم يطوقوننا من كل جهة ، والمنطقة محاصرة الآن .. أنني جئت انبىء سيادتك .

— وحضرتك أيضاً تتوهم ؟ قتلكم الخوف ! .. استريحوا . لم تبق سوى ساعات قلائل وتنتهي الحرب . لا ترتاعوا . عودوا الى ثكناتكم مطمئنين.

— تفضل سيادتك شاهـــد بنفسك وسوف تقتنع ، لقد سمعتهم بنفسي يتخاطبون ..

وجاء آخرون يبلغون حضرة القائد نفس الخبر ويؤكدونه .. بينما الاشمئزار



للمزيد من الكتب www.way2sunnah.com/books شبكة الطريق الى السنة

بادٍ على وجهه من هؤلاء المتطفلين الجهلاء الذين أفسدوا عليه متعة الهيام .. ثم صرفهم جميعاً متبرماً .. وحذرهم من اطلاق رصاصة واحدة ، لأن الهدنة باتت على الأبواب .. فانصرفوا وتركوه وهو لا يزال ماداً رجله مخلوع النعل ، بعد ان أعاد صوت الراديو الى ارتفاعه .. وعاد يميد مع أم كلثوم في هيام .. وبعد ساعة عادوا إليه ليخبروه أن سلك التليفون الى بئر السبع قطع .

●

كانت أرجلهم لم تبرح مقصورته بعد ، حين انقلبت رشاشات الصهاينة تنفث شواظاً متتابعاً ، مجلجلاً في سكون القرية بالموت الرهيب ؛ ودوت مدافعهم تصم الآذان ، عندئذ خرج حضرة القائد منخلع الفؤاد عاري الرأس ، حافي إحدى القدمين . يصيح في جنده لئلا يخرقوا الهدنة .. وفوجيء بالرصاص ينهال عليه من كل صوب . وكانت عصلوج محاصرة من كل جهاتها .. والتقى بأبي دبوس زعيم المتمردين ، فهدد قائده واتهمه بالخيانة ، واختلط جدالهم بدوي السلاح ..

●

وصاح أبو دبوس في رفاقه الحاضرين : هلموا معي نكسر المخزن .

وخرج القائد مذعوراً الى سيارة الجيب ، وترك كل شيء خلفه حتى فردة حذائه ؛ واعترض حراسُ المخزن الثلاثة طريق أبي دبوس ورفاقه فدفعهم هؤلاء بعيداً وحطموا المخزن في ذعر وانتهبوا قليلاً من الذخيرة على عجل .. وانصرفوا متسللين يَتَوَقَّوْن الرصاص المساقط عليهم .

وأما أولئك المجردون من السلاح فقد كانوا يبحثون عن المفر مثلهم مثل نساء عصلوج وأطفالهـــا . ونودي عليهم : هلموا إلى سلاحكم ! .. ولكن النداءات اخفقت في ضجيج الرشاشات اليهودية وانفجار قنابلهم ..



شبكة الطريق الى السنة www.way2sunnah.com/books للمزيد من الكتب

# ٦

ولشد ما دهش المناضلون من سيل القنابل ، وسرعان ما وجـدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع الصهاينة في قلب القرية وثبت. المسلحون منهم واستبسلوا في وجه الزحف ، واتخذوا لهم مواقف استبسالية حتى اضطروا عـــدوهم للتراجع في هجومه الكاسح .

ومرت ساعات عسيرة .. ولا أحد يدري عن مصير المعركة .. ومصير القائد شيئاً . وأين هو ؟ ليته كان ها هنا يدير معركة الذود عن العرين ويشجع جنده ويشد من أزرهم .. اين ذهب ؟ لا أحد يعرف .

وظلوا ساعات يقاتلون في صبر مستميت حتى نفدت الذخيرة من أكـــثرهم وكادت القرية تسكن من رصاص المدافعين الذين اقتصروا أخـــيراً على اقتناص الدخلاء واختراع حياة المغيرين .

●

وكان الثمانية الليبيون المسلحون يقتصدون في ذخيرتهـــم ما أمكنهم ، ولا يزال القتال جارياً . وأخيراً لم يبق إلا هؤلاء الثمانية شوكة تخترم أرواح المغيرين كلما اقتربوا منهم . ونفدت الذخيرة من أحدهم وهو عبد الحميد الحضيري ، فقال لرفاقه :

— هلموا ننسحب . قد انتهت ذخيرتي .

— نحن لا تز ال معنا ذخيرة ... ابحث عن ذخيرة لعلك تجد .. أو حاول أن تصل للمخزن .

وزحف على بطنه يلتمس الذخيرة ثم سرعان ما عاد يائساً قائلاً :



شبكة الطريق الى السنة www.way2sunnah.com/books للمزيد من الكتب

– لم أجد شهيداً آخذ ذخيرته ، هلموا ننسحب من هـــذا المكان. لم يبق في البلاد أحدغيرنا .

– اذهب انت ، انسحب ، أما نحن فباقون ها هنا .

جفت أحلاقهم وتقطعت أصواتهم والقنابل تتخطفهم يميناً وشمالاً ، ووقع الرصاص يقذف في وجوههم التراب . وأعاد عبد الحميد القول على رفاقه :

– هلموا يا رفاق .. لم يبق غـيرنا في البلاد .

–ولكننا لن نتركها مثل الآخرين ..

– نفدت ذخيرتي وسوف تنفد ذخيرتكم أيضاً ، وماذا ستفعلون بعدئذ..؟

## ٧

قال له أبو دبوس :

– أنا سأظل أدافع حتى الصباح .. سأحمي هـذه المنطقة إلى وضح النهار ، وإذا أضاءت الدنيا وهي بأيدينا سينسحبون مرغمين . ابحث عن ذخـــيرة يا عبد الحميد ، اسقني ماء .. أليس لديك ماء ؟ حلقي قد تيبس ..

– نفد مائي فقد شربت أكثر من ست مرات .. إنني ظامىء مثلك . هيا بنا نبحث عن الماء وندافع عن انسحابنا بما بقي لديكم من ذخيرة ..

– لا لن أنسحب . اذهب أنت . لم يعد لوجودك سبب ، سامحني يا أخي . حرستك يد الله .. بلغ تحياتي الى اخواني وبلغ تحياتي إلى أهلي في بنغازي إن كتبت لك السلامة وعدت إلى ليبيا ..

ويئس عبد الحميد من رفاقه ... فانسحب مكلوم الخاطر يتلصص ويتلمس طريقه لا يدري أي شعب يسلك ولا أيها يدع ، حيث يترصد له الاسرائيليون .

●



شبكة الطريق الى السنة www.way2sunnah.com/books للمزيد من الكتب

ترك رفاقه السبعة بقيادة أبي دبوس يزحفون في شبه خندق من مكان إلى مكان ومن كل مكان يرسلون الموت الراصد وكأنهم كانوا جيشاً يترصد في ثكنات .

وسلك عبد الحميد شعباظنه خالياً من الصهاينة .. ولكنة سمع الموت الراصد بأذنه في ثنايا الشعب الذي سلك ، وأيقن ألا مفر ولا بد من العودة إلى حماية سلاح رفاقه . لا ، لا .. فليبحث عن مسلك آخر وسلك مسلكاً ثانياً ولكن هنالك طلقات نارية قادمة من الاتجاه ذاته فليمض فيه وليتحر مخرجاً له ...

## - ٨ -

ولكن ماذا يرى ؟ يرى أكواماً كبيرة يغشاها الظلام . ما هذه الأشباح التي لا عهد له في هذا الطريق ؟ آه .. إلآن تذكر . إنه يلمح تلك السيارات المحملة التي جاءت الليلة من عوجا - الحفير .. لا تزال واقفة هنالك ، واحدة إثر الأخرى . قرب المخزن . يحتويها الظلام فتبدو كشبح ضخم .. إذن قد أخطأ طريقه ولهذا غير مسلكه . وولى السيارات ظهره ومضى يتلمس وجهة أخرى ...

ثم تذكر فجأة ... تذكر . لماذا لا يفتش في هذه السيارات لعله يجد فيها ذخيرة ؟ وزحف نحوها ولم يمض بعيداً فقد تسمرت بطنه الزاحفة فجأة على الرمال ، ولم يستطع حراكاً .. فقد ترامى إلى سمعه لغط بين عدد من الصهاينة حول السيارات ..

وشعر بالغيظ لسلاحنا يقع في أيدي أعدائنا غنيمة باردة ، وقرر أن يفعل شيئاً ، ولكنه ماذا يملك لها؟ وظل هنالك منفعلاً انفعالاً شديداً يدفعه لاقتحام السيارات عنوة ، والبحث فيها عن أي شيء ينفجر ليفجرها .. لولا أنه يخشى

أن يموت قبل أن يصلها .. ولكن لا بد من المحاولة .. وأي جريمة أكبر من أن يترك سلاحه غنيمة لأعدائه و ...

★

واخيراً يئس .. ما باليد حيلة . وماذا يستطيع ان يفعل ؟

يئس وانصرف يطلب النجاة لرأسه .. ولكن أنى له النجاة في هذه الليلة الحالكة ؟ مثله مثل أولئك الكثيرين المجردين من السلاح ، أو الذين نفدت ذخيرتهم وحصروا داخل القرية . فلا هم بمسلك يخلصون يجلودهم ، ولا هم بسلاح يدفعون عن أنفسهم . ومضى عبد الحميد مثلهم يبحث عن المسلك متلصصاً تارة ، وزاحفاً على بطنه تارة أخرى .. وها هو يزحف الآن ، ولكنه تسمر في مكانه .. تذكر شيئاً فتلمس نطاقه يبحث عنه بأصابع مرتعشة .. تذكر قنبلة يدوية كانت معلقة في خصره . تذكرها الآن . وقاطعته النجدة من السماء ، وانتشلته من عنف الانفعال .. أخيراً تنفس الصعداء .. وغمرته فرحة ممزوجة بالانفعال . لقد وجدها .. فليعد إلى مكان السيارات فهو يستطيع الآن أن يفعل شيئاً .

★

وعاد إلى حيث كان .

وقدّر أن يقذفها على أقرب سيارة من مكانه هذا . ولكن لا ، فليتقدم إلى مكان أنسب . إنها الآن ستصيب السيارة حتماً وسيصاب هو أيضاً بما في السيارة من متفجرات ..

وعزم على أمره .. إنه مقتول على أي حال . فليلق ربه شهيداً في سبيل

الله . وليكن لنهايته ثمن هذه المرة . أي ثمن ..

وسحب مسمار الأمن ، وضغط على قضيب الترجيع وهو يرتجف لأجله المحتوم .. ثم قذفها أخيراً بإحكام ودفن رأسه في التراب مذعوراً . وانفجر الدوي الهائل .. وأضاءت الدنيا وزلزلت الأرض زلزالاً تكاد تنشق له الجبال وتبعه زلزال ثان أشد منه .

وتتابع الدوي ، ثم تبع الزلزالين الأولين أعنف انفجار ، ضغطه على الأرض ضغطاً ثم نفضه في الفضاء نحو شبرين وعاد فألصقه بالأرض ، وألقى عليه أحمالاً من التراب . وتلته انفجارات صغيرة متلاحقة متداخلة . ولما ذهب عنه الروع ، حرك رأسه تحت أحمال التراب ليتأكد ان كان لا يزال حياً . ثم رفع رأسه ، ودارت عيناه في محجريها . فلم ير شيئاً .. كأنه في حلم يحملق عينيه ولا يرى غير هذا الخليط من اللهب يخيم عليه غبار يظله عن النظر ..

وحرك يديه ورجليه . وتحسس جوانبه ليتأكد أنه كان لا يزال سليماً ولم يصب .. ثم نهض متوكئاً على يديه ورجليه وهو لا يشعر أنه يقوم بمثل هذه الحركة . وتذكر أنه ترك بندقيته فعاد يتحسسها في التراب. وبعد هنيهة أدرك أن هذا العماء ليس في عينيه ولم يفقد بصره كما حسب .. بل هو أطنان من الغبار ، من أثر الانفجار تسد الأفق ، وتحجب الرؤية ، وتجعلك لا تكاد ترى ما بين حاجبيك ..

فليسرع إذن بالانسحاب في هذه الفرصة تحت جناح هذا الغبار . لقد انفجرت السيارات السبع واشتعلت فيها النيران وانفجر مخزن السلاح وذهب ضحيته حراسه الثلاثة المحتبئين فيه ، و زلزل معظم مباني القرية ولعله دمر بعضها.

أما أولئك المجردون من السلاح الذين لم يجدوا من اليهود غرة للتسلل ، حتى كان هذا الغبار يعم الآفاق فانسحب جماعه منهم سالمين تحت لوائه .

وانسحب عبد الحميد يحمل بندقية جوفاء ، حتى كان خارج عصلوج. والتفت

وراءه فإذا للنار ألسنة من اللهب لا تزال تومض ..

★

ومضى في سبيله .. وبينا هو في طريقه سمع طلقات متبادلة خلفه في القرية. فخجل من نفسه . أينصرف ويترك رفاقه ؟ وصورت له أوهامه المرهفة أن يعود لعل إخوانه انسحبوا إثر الإنفجار ومنهم الجرحى الذين يحتاجون لمعونته؟ ولعل الصهاينة ينسحبون إثر الإنفجار . ؟؟

وها هو قد انثنى وعاد حقاً ، يتفرس ويتحسس ، وقد بدا نور الفجر في الأفق جلياً .. ولم ينسحب الصهاينة .

وقد استطاع على حواشي القرية أن يسمع حديثاً ، لعله حديث صهاينة ؟؟ وكانت الطلقات لا تزال تتبادل هنالك في قلب القرية .

ووجد الحديث عربياً ، فاذا هو بين رجال من أهل القرية يحملون سلاحاً أجوف بعد أن دافعوا عن قريتهم حتى نفدت ذخيرتهم .. وانتظر هنالك معهم. يترقبون عما تسفر الأحداث ؟ حتى أسفرت الشمس ، ولا يزال قتال فاتر يدور هنا وهناك . ويئسوا من استرداد قريتهم فانصرفوا ، وانصرف عبد الحميد بخاطر مكلوم . انه يترك رفاقه .. وهو لا يزال يسمع طلقات بنادقهم تدافع بحرارة . ويسكن صدى سلاحهم حيناً ثم يعود .. وهو على بعد أكيال منهم .. ويترامى إليه صدى الرشاشات من بعيد ، هنالك ، حيث رفاقه يلقون مصيرهم .

ثم بضع طلقات .. إلى أن يسكن في النهاية .. ويسود الجو سكون الأبدية الخاشعة ..

●

مضى عبد الحميد يضرب في تيه الرمال وبنفسه غاشيتان : غاشية من الخبط على غير هدى ، وغاشية من تباريح الأحداث الموجعة . والذي لا ينساه أنه سمع بأذنه أرواح رفاقه تنطفىء هنالك بين الأعداء أَوْدَى بها حَتْفُ القضاء .. ولو كان بينهم لكان ذلك على نفسه أَهْوَن .

## ٩

وقد علمنا من لجنة الهدنة فيما بعد أن اليهود أسرو نحو ثلاثين فدائياً مصرياً ، بينهم ضابطان وليس من بينهم قائد المنطقة .

وقال المتحدث : ليس بين الأسرى ليبي واحد ، وربما قتل بعضهم في الانفجارات التي جرت مع الفجر ..

وقال : إن ستة من الليبيين السبعة قاتلوا حتى فقدت ذخيرتهم . ثم ركبوا الخناجر في بنادقها واشتبكوا مع اليهود بالسلاح الأبيض ، حتى سقطوا واحداً إثر آخر . ثم جمع اليهود جثثهم وأحرقوها .

وبقي السابع يساور ويصاول حتى أحاط به اليهود من كل جانب ، ولم يستطيعوا أن ينالوا منه إلا في وضح النهار إذ أصابته رصاصة من خلفه فخر صريعاً .

وأحرق اليهود جثته بعيداً عن اخوانه الستة ..

●

وهكذا صعدت أرواحهم الى بارئها .. ترفل مع الأبرار والصديقين ،

وظلت أجسادهم ملقية هنالك . حتى كان يوم عاد رفاقهم ووارروا بقية عظامهم التراب ..

●

شهد عبد الحميد هزيمة قومه وبلاده تنتزع منه قسراً . ما أوجعها رؤية في النفس .. ويحه ما أشد غمه ، فالأرض تميد به والدنيا محتلكة في عينيه ، وهو لا يكاد من سكرته يشعر بنفسه ..

وهكذا أخيراً لفظتهم عصلوج ، وتركوا بها قبعـــة وفردة حذاء وراديو يترنم مع أم كلثوم . ومن وراء ذلك دُورٌ هرب منها النساء والأطفال يرتجفون من خوف ..

مضى عبد الحميد بحبيس الغصص وآلام المواجع ، يطوي الفلاة على غير هدى ، حتى قادته الرمال الى الجادة المعبدة ، التي تصله بعوجا ـ الحفير ؛ وفي الوقت ذاته كان هنالك خمسة وخمسون فدائياً ، بينهم ثمانية ليبيون ، وفُقِد ثلاثة ليبيين آخرين إلى الأبد ... خمسة وخمسون قذفت بهم عصلوج إلى الفلاة ، وتفرق بهم البين المشتت .. فذهبوا يخيطون الرمال في كل اتجاه . وكان هنالك أيضاً قائد لا يعلم أحد مصيره . والفدائيون العرب في العوجا وفي بئر السبع يضحكون ، لاهين ، في غيب عما جرى بجوارهم في عصلوج .. لأن بها قائداً غِرّاً ترك المعركة وهام على وجهه في سيارة جيب فكان أول المنهزمين ، ولو ثبت وأدار المعركة وفتح مخزنه مبكراً لانقلبت رحاها على اليهود ، ولو انه استنجد بالعوجا أو ببئر السبع لتغير مجرى الأمور . ولكنه آثر الهزيمة ... وإلى يومنا هـــذا لا زلتُ في حيرة من أمره كلما تذكرته !...

●

ولنعد إلى عبد الحميد يطوي الجادة مطرقـاً مهموماً ، مكسور النفس والخاطر ، محزون الفؤاد والعين .. وقد تجلى ذلك النهار عن أشأم حادث مؤلم في حياة عبد الحميد وارتفعت شمسه وهو يعاني رهقاً وعطشاً شديداً وألماً ممضاً .

●

وكانت الشمس قد برحت كبد السماء حين تطلع الحارس من ثكنة القنطرة البحرية في العوجا ... تطلع إلى شبح بعيد يبدو كأنه يتحرك . وتطلع رفاق الحارس الى حيث أشار . ودار الحوار :

– أظنه يهودي ؟

– بل هو جندي مصري .

– اخبروا القيادة ، لعل في الأفق ما يريب ..

– ولكننا في هدنة .

– اليهود لا ميثاق لهم .. قوم غدارون .

ثم اتضح الأمر فإذا الجنـدي الضال هو أول فدائي يحمل نبـأ الهزيمة في عصلوج . وانطلقت إثر وصوله سيارة تجوب الرمـال ، تبحث عن فلول المنهزمين ...

إذن لقد احتل اليهود عصلوج ، وقطعوا المواصلات بين العوجا وبئر السبع ، وأحد الطريقين بين مصر وبين جيشها في فلسطين ..

ثارت ثائرة الفدائيين في العوجا .. كيف يحتلونها ونحن ها هنا نائمون ؟ لا بد من استردادها حالاً ..

ولكن القيادة لا تخرق الهدنة ..

وأما اليهود فيخرقونها ويحتلون عصلوج بعد قيامها .. والعرب لا يردون عليهم بالمثل .!!

ومضت الساعات ، والسيارة تعود بالرجل والرجلـين من فلول السرية

المهزومة .. إلى أن عادت بعبد الحميد رامض الوجه ، رخي الأعصاب ، حزيناً لا ينبس .. ومرت أيام وهو صامت .. وفي عينيه سهوم ، وفي قلبه حزن مكتوم .. وحين يذكر رفاقه يلفت قلبه عن الذكرى الموجعة ، لا يريد ان يتذكرها ، ولم يتحدث .. ولم يشر إلى قائد فرط ..

وذهبت شمس يومها للغرب وتولت . ثم انثنت بيوم جديد ولا أثر للقائد المهزوم .

●

حتى كان ذلك الأعرابي على الكثيب الرملي يلوح بعصاه قبيل غروب شمس اليوم الثاني وأشار بطرف ردائه الى السيارة فصعدت .. وهنالك دلّهم على صاحبهم المفقود .. فإذا هو منذ الأمس في نجع من نجوع البادية ، مختبىء في خدر مع النساء والولدان .. وسيارته الجيب التي فر بها غائصة في الرمل في ذلك الوادي خلف النجع . وحملته سيارة الانقاذ إلى العوجا خالي الوفاض إلا من مسدس محشو مليء . ولمخسارتاه ..

ونزع من رجله فردة حذاء أختها في عصلوج . وعلى رأسه كوفية من هبات أهل البادية .. لأن قبعته ارتداها ضابط يهودي للنكاية والذكرى ..

عاد المسكين كسير الخاطر مهيض الجناح ، مطرق الرأس ذليل النفس ، وقد افتش من انتفاخة ، وأسبل من انتفاشه ، وولت عنه تلك الصولة والشجاعة المصطنعة ، ونزل من السيارة بعين ثرة تكاد تطفر بالدمع . واستنجد الاسد .. ياحسرتاه ! نزل والجنود يشيعونه بنظرات مختلفة ..

لعمري ما أشد وقع الهزيمة والاتهام على النفس الحرة . لو كنت مكانه لآثرت الموت على هذه المهانة . ليته مات فرثيناه ، أو عاد محمولاً على محفة الجرحى فبللنا وجنتيه بالدموع ..

# ١٠

ليس كل ذي بزة في الاستعراض جندياً يصلح للصراع في خطوط النار . وما أكثر هؤلاء في الجيوش العربية .. كليات حربية مقصورة على أبناء السراة وأهل الرفاهية المنعمين . زينة النوادي والمتنزهات ، فخر الخطيبات .. ولكنهم ليسوا إخوة عناء ، ولا هم أنداد حرب وصبر للبلاء . الى أن تأفل هذه الأوضاع البالية ، وتفتح الكليات أبوابها لشباب من أبناء الشعب الميامين الذين يبتغون الجوهر دون المظهر ، وتعتدل المناهج ، وتخرج الضابط جندياً كسائر الجند ، إذا افتقد الماء آثر جنده على نفسه ، وإذا طالت شقة السفر على الأقدام حمل على ظهره متاعه ومتاع بعض جنده ، ولا يحمّل أحداً من متاعه شيئاً . وإذا افتقروا للطعام صابر نفسه على الجوع ليشبع رجاله ، وإذا تقدم للقتال حمى جنده بنفسه وكان أشدهم اقداماً ، لا يستخدمهم في حوائج بيته ولا في تنظيف مكتبه ولا في قيادة سيارته ، واذا دعت الحاجة للعمل كان في طليعة جنده يحمل التراب ويحفر الخندق ويحر المدافع ويبذل اوفر الجهد ، ويرى لجنده من الحرمة مثل ما يرى لنفسه . وليس له عليهم إلا طاعة أمره وتنفيذ خططه .

رأيت ضباطاً كثيرين من هذا النوع العظيم ، ولكنهم في البحر الزاخر قليل ...

أما الباقون ، فكلهم أبهة وأثرة ، لا يخجل احدهم أن يستخدم الجندي استخدام الرقيق يخدم بيته ، بل ويلاعب أطفاله ، أو ينظف مكتبه ، ويقدم له حاجته ، ويقود له سيارته . يقتل في جنوده العزة ، ويميت في انفسهم الكرامة ، ويخنق معنوياتهم العالية ، حتى يصبح الجندي موطئاً للذلة ، معداً للهزيمة ، ولم لا وقد خلقه قائده لها خَلْقاً . وما ضر ذلك القائد لو قام بخدمة نفسه وقيادة سيارته

وذلك من تمام الروح العسكرية المعتدة ..

●

لقد رأينا في الحرب العالمية الثانية مفارقـات عجيبة بين الضابط الإيطالي وحليفه الألماني، وأثر تربية هذا في جندية الألماني ، وأثر ذلك في مثيله الإيطالي. أحدهما ينهار إذا هبت الريح ويفتقد نفسه كأن لم يكن ... والآخر لا تزحزحه الصواعق الرواعد والدواهي السواحق ، تساقط أطرافه قطعاً ، ويظل قلبه من حديد يدق باب القدر ..

## ١١

لو آل إليّ أمر مثل ذلك القائد المهزوم لحاكمته بتهمة الخيانة العظمى ... وكل ضابط ينهزم عن قوة يجب أن يحاكم بتهمة الخيانـــة ، ومن ينسحب عن ضعف واضطرار يجب أن يجرد من كل الرتب ويصف في مصاف الجنود إلا إذا كان انسحابه انسحاباً طوعاً لأوامر قواده ..

وكان هذا رأي السيد الورداني ، الذي قابل عبد المنعـــم عبد الرؤوف بالسلامات والتحيات ساعة وصوله حين عثروا عليه في البادية ... ولكنه بعـد ذلك قدمه للمحاكمة بتهمتين :

١ – عدم تسليم جنده السلاح المناسب في الوقت المناسب .

٢ – تغيبه عن القتال وهروبه من الميدان .

واستدعي المتهم للقيادة في غزة ، ولكنه أنكر التهم الموجهة إليه ، وعاد يبحث عن شهود له لينكر أهم تهمة منها ، وهي تغيبه تلك الليلة عن عصلوج واستصحب معه إلى غزة شاهدين ، أحدهما عبد الحميـــد الحضيري . ولما سألت عبد الحميد عن الشهادة التي سيشهدها ، قال : أشهد أنه كان موجوداً في عصلوج تلك الليلة إلى أن بدأت المعركة . ثم لا أدري ..

ولكن السيد الورداني أيضاً استصحب معه شاهدين ليبيين ، أحدهما علي كشوخ .. ولما سألته: بمَ ستشهد ؟ قال : حين بدأت المعركة بحثت عنه بنفسي في مبنى القيادة وفي القرية كلها أريد السلاح فلم أجد له أثراً .

●

وادعى قائد عصلوج بأن اليهود لا يستطيعون أن يدخلوا عصلوج لولا أن المناضلين الفلسطينيين انسحبوا من مراكزهم وأخلوها، فوجدها اليهود ثغرة تسللوا منها . ولما سألت إخواني عن صحة دعواه أثبتوا لي أنها افتراء عليهم ، لأنهم مسلحون ومخلصون ومن أشجع أهل تلك البادية، وقد دافعوا بأقصى ما وجدوا للدفاع سبيلاً ، وفر هو قبل المعركة .

●

وظل هنالك في غزة أياماً يبالغ في إكرام الشاهدين ويتخذ الوسطاء والوجهاء لدى المسئولين حتى أفلح .

وبعدها عاد الشهود الأربعة بشهاداتهم ، وانصرف هو أيضاً عن غزة .. وقد سمعت بانه استعاد روحه في غزة نفساً فنفساً . وطفق يتنصل من هزيمته في صفاقة وافتراء جريء .

وعلى أية حال لم أعد أسمع له في فلسطين ذكراً ، فقد فرغ من تبعات القيادة وفرغت منه .

# طائرات وعتاد انجليزي أميركي

# ١

وبعد بضة أيام جاء شيخ القرية السليبة عصلوج . جـــاء إلى العوجاء يبكي موطناً ، له فيه دار ومولد ومرتع ومراح ، وقرية من خير ما طلعت عليـــه الشمس... يبكيها بأسراب من الدموع سفوح ، واستمع إليه البنباشي الورداني حتى فرغ ... واستمعت مع البنباشي موجدة الرجل المكلوم ، ثم اطمأن لمـــا سمع كلمات الورداني وهو يقول له :

– يا شيخ اطمئن ، أول عمل نقوم به بعد الهدنة هو تحرير عصلوج . لدينا وحدة ليبية ها هنا الآن ، وسندعو وحدة أخرى أثناء هذه الهدنة ، وبانتهائها نجول جولتنا في عصلوج ، عد مطمئنا ..

وارتشف الشيخ ثمالة كأس الشاهي وعاد مطمئنا ...

●

بعث الورداني في طلب فصيلة من الليبيـــين المعسكرين في شرفات فحضر خمسة وعشرون رجلاً يقودهم إدريس العيساوي . وبعد مضي سبعـة أيام من الهدنة غادر الجميع العوجاء يرابطون على مشارف عصلوج على ثمانية أكيال منها بانتظار انتهاء أيام الهدنة ... وما كان أطولها من أيام ، واثقلها على النفس ! .. ورغم أنها كانت مملة ، فقد كانت طافحة بمشاعر فياضة بالبطولة المرجوة.

●

حسُن إلى الصديق صالحين أن نقضي أواخر هذه الهدنة في إجازة .. ورأيتها فرصة نرى فيها دمشق وعمان . ذهبنا معاً إلى غزة فالخليل فنابلس وعمـــان . وعمان مدينة حديثة وصغيرة ، عامرة باللاجئين .

كانت جموع اللاجئين محتشدة بصورة غير متوقعة. ومن عمان دلفنا في طريق صحراوي الى حدود سوريا ، حيث يستقبلك السوريون بالترحيب والتكريم ، ثم الى دمشق العزيزة عاصمة الامويين ومدينة المخلصين . وأنت في كل بلاد تشعر بغربة ما ، إلا في دمشق فهي بلدي وبلدك وبلد كل عربي ، وأهلها أهلي وأهلك وأهل كل عربي .

## ٢

بتنا تلك الليلة ، ولما أصبحنا من غد لاحظنا جماعـــات من جيش الإنقاذ يتجولون في المدينة ... ويبدون وكأنهم عائدون من الميدان . ولكن عددهم كبير . ماذا يفعلون ها هنا ؟

وسألت أحدهم : ماذا تفعلون ها هنا ؟

ولما كنت مثله أرتدي البدلة العسكرية ، وعلم أنني ليبي ، رحب بي كدأب جميع السوريين الأبرار . ومن هذا الشاب علمت أنه من فوج لجيش الإنقاذ يسمى فوج الحسين ، كان مرابطاً في القدس ، اشترك في معظم المعـــارك التي دارت هنالك ، وكان له دور طيب في استسلام الحي اليهودي .. وبينا نحن نتحدث أقبل زميل له شاطرنا الحديث .

قال الشاب : لقد طلبت منا القيادة الأردنية أثنـاء الهدنة أن نغادر القدس ونبتعد عن المناطق التي يحتلها الجيش الأردني . هذا غريب يا أخي .

وعلق الشاب الآخر : هذه ألاعيب الانجليزي جلوب ..

ما أغرب الأوضاع ! عدد الجيش الأردني كله لا يستطيع أن يدافع عن جزء

من القدس .. ولولا جيشنا ، جيش الإنقاذ ، وجيش الجهاد المقدس الفلسطيني والمناضلون الفلسطينيون لذهبت القدس وما حواليها في نعال الصهاينة . ولكن ها هو الانجليزي اليوم يتحكم فينا ، ويقول : اخرجوا !

وكان حديث الشابين مشبعاً بالتشاؤم والغضب ، وقد ترك طردهم من ميدان القتال جرحاً بالغاً في نفسيهما على ما يبدو .

قال الشاب الأول : اننا لا ندري ما يخبىء هـــذا الانجليزي من شر إلى فلسطين . إننا عدنا إلى بلادنا الآن ، ولكننا سنرجع الى فلسطين ونقاتل في صفوف الجيش السوري .

كان جلوب يريد أن يصفي كل الفئات المحاربة في المنطقـة لأمر في نفسه . أولاً ، صفى المتطوعين الأردنيين وحملهم الى الأردن وهنالك جردهم من السلاح .. ثم شرع في تصفية جيشنا وجيش الجهاد المقدس ..

## ٣

قضينا أياماً في دمشق الأبية العربية ، حصن الأحرار وملاذ الثوار ، وملجأ الليبيين الذين قاتلوا الطليان . ومن دمشق عدنا إلى عمان فإلى نابلس . وهنالك شاهدنا الجيش العراقي العظيم ، وكم تمنيت لو كنت قـــائداً لهذا الجيش ، أحارب الصهاينة به وحده ، وبسلاحه هذا ، ومدافعه هذه التي نراها ومدرعاته ، اذن لجعلت دولة اسرائيل تذكر في الاساطير قبل شهرين اثنين .

ومر بنا أحد الضباط على وحدة من وحدات الدفاع ، وأشار إلى مستعمرة صهيونية راقدة على البحر واسمها ناثانيا ، لا تبعد عن مواقع الجيش العراقي سوى عشرة اكيال وقال : في استطاعة الجيش العراقي أن يحتلها في ليلة .. وباحتلالها

نصل البحر ونفصم إسرائيل إلى قسمين. وبذلك نشتت قواها ونحطمها في مدى أيـــام ..

وقلت : ما يمنعكم من تنفيذ خطة ناجحة مثل هذه .؟

فأجاب بلهجة تقطر غيظاً : أعطني سياسة وطنية أعطك فلسطين عربية .. لماذا لا نتحرر من ضغط الغرب واحتكاره ؛ إنه سلبنا الحرية . وها هو أخيراً يسلبنا حتى شرفنا العسكري .. لماذا لا نتحرر يا ناس ؟

قلت في نفسي : ماله ثائر على هـــذا النحو . ؟

وكأنه أدرك ما يجول في خاطري .. فاستطرد يقول :

– والله ما أنا شيوعي ، ولكن يجب أن نضرب العـــدو المستعمر بأي سلاح .

●

وكان الناس في منطقة نابلس مستبشرين هذه الأيام وهم يشهدون القوات العراقية يتوالى مددها ويتزايد عددها في الهدنة ، ويؤملون أن يقوم الجيش العراقي بهجومه الكبير بعد الهدنة . وطالما انتظر العرب منه هذا الهجوم .

## ٤

ومن رام الله ركبنا نريد القدس ، ولكننا لم نتمكن من زيارتها . وحملنا قائد السيارة إلى قرية أبو ديس التي تقـــع شرقي القدس إكراماً لنا، ولأننا لن نجد سيارات تحملنا اليها. ومنها اكترينا حمارين لي ولرفيقي ليحملانا الى قرية صور باهر ، القريبة من مستعمرة ( رامات راحيل ) التي تحدثنا عنها . ولم نجد

وسائل أخرى تمكننا من العودة إلى وحدتنا في العوجا – حفير عن طريق بيت لحم ، لأن طريق القدس بيت لحم في يد الصهاينة . ونحن في الطريق وجدنا جموعاً من الفلسطينيين تعمل في شق طريق في الجبال والوديان بدلاً من الطريق المعبدة المحتلة . ولست أدري كيف كان الجيش الأردني ينقل تموينه وذخيرته إلى وحدته في بيت لحم والخليل قبل ذلك .

وقد علمنا من حديث صاحبي الحمارين، وهما يخوضان في شئون البلاد ، علمنا باستغراب ان الجيش الأردني طفق منذ أيام يشتري السلاح والذخيرة من الوطنيين .. وهما أيضاً مندهشان . وكنت أصغي لما يقولان ولا أريد ان أتدخل لنعرف كيف يريان الأمور ويقدرانها من خلال مناقشتها .

ومما قال أحدهما : هذا غريب حقاً .. تصور أن الجيش كلف كثيراً من السماسرة بشراء السلاح والذخيرة من المواطنين !...

– ماذا يفعل الجيش بالسلاح ؟ ولعل الذخيرة نقصت في مخازنه فراح يشتريها للاحتياط ... ولكن السلاح ..؟؟

– لا بد أنهم يبيعونه ويربحون فيه ..

وضحكا معاً وضحكنا معهم .

– ما رأيك يا أبا حامد ؟ والله فكرة جيدة رابحة تغرقنا في الكسب ، نشتريه بثمن ونبيعه للجيس بضعفه ، ألا ترى فلاناً قد بدت عليه النعمة هذه الأيام منذ أن تولى شراء الاسلحة للجيش ؟

– معاذا الله !... أترضى يا أبا مازن .؟

– لا سمح الله ؛ هذه غاية قائد الجيش الاردني . والله ما ندري ما يسوّي هذا الانجليزي .

– ماذا يسوي ؟ لا شيء ؛ غايته أن يجرد جميع الفلسطينين من السلاح .

وذهب رفيقانا في الحديث مذاهب شتى، وتحدث صالحين معهم في السياسة .. والسلاح .. والجيوش .. والقتال .. ومستقبل دولة العصابات . والحمارات

يتلمسان طريقهما في المسارب بين الصخور ، تارة نتسلق الجبـــال والوديان ، وأخرى ننحدر انحداراً عميقـــاً . وربما قطعنا معظم الطريق مشياً إشفاقاً على الدواب ،فضلاً عن تعذر ركوبها أحياناً .

ورفيقي صالحين من أبناء درنة . وأهـــل درنة لا يملون من السياسة .. وهم أقدر أهل ليبيا على النقد ، ولا يجوز عليهم الزيف . وقطعنـا كل الطريق وهو يحاور الرجلين ويناقشهما ، وذهب معهما في تفسير الأحـــداث تفسيراً سياسياً متشائماً لا أوافقهم عليه .ولذلك انصرفت للتأمل في حقب الدهر وأدوار التاريخ التي مرت بهذه الأرض وهذه التلال الصخرية التي تبدو في هذا المساء بين أشعة الشمس والظلال تتحدث عن العبر وأحقاب التاريخ . وربما سألت نفسي : أي طريق سلكها سيدنا عمر بن الخطاب في طريقه حين جاء يصالح أهل القدس ؟

وقطعوا عني التأمل لما عادت المناقشة ، واحتدت في تفسير : لماذا كلفت قيادة الجيش الأردني رؤساء وحـــدات جيشها بشراء الأسلحة من المواطنين ؟ واختلفوا في التفسير : صالحين وأبو حامد في صف ، وأبو مازن وحده في صف ؛ وسألوني رأيي .. ولكني كنت في حالة نفسية صوفية بعيدة عما يخوضان فيه .

وظل الخلاف قائماً ، وارتفعت الأصوات يتجاوب صداها في المهـــاوي والكهوف ، ولم يفتروا .. حتى انقلب الموضوع الى ندرة الطعام وغلائه ،وانعدام العمل وحاجة أطفال سماسرة السلاح الى الطعام .وكانت دارة الشمس قد اختفى معظمها حين بدت قرية صور باهر للعيان ، حيث استقبلنا الاخوان المصريون وقضينا ليلتنا معهم .

وفي صباح الغد ركبنا سيارة لم تقف إلا في غزة ، وهي طريقنا الوحيد الى وحدتنا بعد احتلال اليهود لعصلوج . وهنالك في غزة أيضاً وجدنا عدوى بيع السلاح والذخيرة قد انتشرت من الشمال إلى الجنوب ،وقد لحق فئة من السماسرة بكل قرية ينقلون السلاح الى قيادات الجيش الاردني في الشمال .

# ٥

وعدنا الى جبلنا قرب عصلوج ، وتصرّمت بقية أيام الهدنة متلكئة يوماً بعد يوم ، ونحن نرقب ما وراءها باهتمام متزايد مع الليالي ، حتى كان غروب آخر يوم .. ليت شعري ماذا فعل العرب اثناءها ؟

إننا نحن هنا لم نلحظ تغيراً في الميدان العربي .. السلاح هو السلاح ، والأحوال هي الاحوال .. ونعلم أن الحكومة المصرية أخفقت في شراء سلاح جديد . مثلها مثل الحكومات العربية الأخرى .. وذلك أمر طبيعي .. فهم لا يشترون السلاح إلا من بريطانيا أو أميركا أو فرنسا .. وهذه لن تبيعه للعرب لقتل ربيبتهم إسرائيل ولو كانت في ذات الوقت تهبه لإسرائيل مجاناً.

●

أما الصهاينة فيشترونه من أي مكان ويستطيعونه من كل دولة من الغرب أو من الشرق ... ويشاع أنها اشترت أكداساً من السلاح من تشيكوسلوفاكيا . وأن اميركا أمدتها بالسلاح ، وبالطائرات ، وبالرجال أيضاً . وكذلك بريطانيا وألمانيا وفرنسا . وقد حملت الينا الأنباء بأن مطاراً في أمريكا وآخر في تشيكوسلوفاكيا أقفلا في وجه الأعمال الأخرى مدة طويلة من هذا الشهر ، وخصصا لنقل الأسلحة والطائرات لإسرائيل .

هذا على الرغم من أن الأمم المتحدة قد طلبت من أعضائها ألا يمدوا أحد الفريقين بالسلاح . وبسبب قرار الأمم المتحدة هذا ، تتذرع بريطانيا بالامتناع عن مد العرب بذخيرة لسلاحهم الانجليزي الصنع . في الوقت الذي تخصص فيه

أمريكا مطارات لنقل السلاح والذخيرة الى إسرائيل ضاربة بأمر الأمم المتحدة عرض الحائط علناً .

أمريكا هذه ، التي كانت في عهد المستر ولسن تصدر للعالم المبادىء الإنسانية ، أضحت في عهد المستر ترومان ، تضرب بالقيم الإنسانية وبالأمم المتحدة وجه الأرض ، في سبيل أصوات اليهود الأميريكيين .

وأما بريطانيا فتمد اسرائيل بالسلاح سراً .. ونحن نتوقع ان نجابه غداً سلاحاً من أحدث ما أنتجت أوروبا وأميريكا .. ونجابه محاربين امريكيين وبريطانيين وألمانيين واستراليين ، ومن جنوب أفريقيا .

الحق أننا متخوفون من حدوث انقلاب شديد في ميزان القوى ... نخشى أن نواجه رجالاً غير الرجال ، وسلاحاً غير السلاح .

وقد قال مستر برنادوت ، وسيط الأمم المتحدة العليم بأحوال العرب واسرائيل ، قال فيما بعد في كتابه ( إلى القدس ) : « إن المعلومات التي تصلني تدل على أن موقف العرب قد أخذ يضعف ، وان العرب اذا لم يتلقوا سلاحاً من بريطانيا أو من أية جهة أخرى ، فان أملهم بالنصر ميئوس منه .. »

والآن تروج بيننا شائعات كثيرة حول هذا الموضوع خوفاً من ان تدور علينا الدائرة . وعلى أي حال فاننا عازمون على قتال الأميركيين والأستراليين والانجليز الى جانب اليهود .. ونخشى فقط من نقص في الذخيرة ، وتقصير في السلاح .

●

ونحن أنفسنا قد لاحظنا أحوال اليهود تتحسن يوماً بيوم . لاحظنا ذلك من مدرعاتهم التي تفد علينا في هذا الجبل تناوشنا ، لتستطلع أحوالنا . كانت تفد علينا ما بين يوم وآخر ، وأعلمنا القيادة بأنه لا يبعد أن يهاجمونا ذات ليلة

ويحاصروننا في هذه التلال . ولكن القيادة رفضت ان نتعرض لها إلا إذا اقتربت منا . لأن الجيش المصري لا يتعرض الآن لقوافل اليهود التي تمر بين ظهرانيه ، غادية آيبة ، تحمل المئونة والمعدات الى مستعمراتهم المترامية . لقد اعترض عليها في بداية الأمر ومنعها ولكنه عاد فسمح لها .

وذلك خطأ نراه جسيماً. وأي خطإ أكبر من فك حصار هذه المستعمرات؟ ومدها بمخزون كبير من السلاح والعتاد والمؤونة ؟ وبالرجال المحاربين القادمين من أوروبا وأميركا واستراليا ؟

ونحن بدورنا لم نتعرض في بداية الأمر لهذه المدرعات التي تحوم حولنا ، بين كل حين وحين ، وتناوشنا كل مرة بسلاح جديد . ولما أزعجتنا قررنا ان نكمن لها بعيداً عن مواقعنا دون علم القيادة . وكمن لها ثلاث جماعات منا على مواقع متباعدة . ومعهم مدافع البوز المضادة للمدرعات .. وجاءت المدرعات تتهادى ومرت بمكمنين لم يتعرضا لها .. وانفجر الثالث في وجهها فتراجعت متقهقرة .. ولما سامتت المكمن الثاني فاجاءها بضربات قوية جعلها تسرع إلى موقعها ، ثم إذا هي أمام المكمن الثالث على حواشي عصلوج الذي أصاب احدى المدرعات إصابة مباشرة ، ولم تمض بعيداً حتى توقفت وأسرع من فيها الى المدرعتين الأخريين .. ومنذ ذلك اليوم لم يعاود الصهاينة فعلتهم .

وكان السيد الورداني يتساءل كل يوم عن مجيء مدرعات الأعداء . ولم يكن يعلم بأن لانقطاعها سبباً وأن جنوده خرقوا الهدنة ، وكمنوا لعدوهم . ولما أخبر بالقصة قال : لا يفل الحديد إلا الحديد ..

●

في تلك الأيام كان سلاح اليهود يتجدد .. وهو برهان على ما تصير اليه أحوالهم في هذه الهدنة .

وأما الجيش المصري فلم نلحظ أي تغيير على أحواله أثناء الهدنة ، وإن كان عدده قد ارتفع قبل الهدنة من ستة آلاف إلى ثمانية عشر الفاً .. ولما كنا في الشرق علمنا ان كل الجيوش العربية لا تزال على حالها باستثناء الجيش العراقي الذي وصله مدد من الرجال وقد يصل عدده من ألف وخمسمئة إلى خمسة عشر ألفاً أو يزيد .. ولكن العرب في حاجة الى السلاح أكثر من حاجتهم الى الرجال . ولذلك كان يشاع بأن الحرب لن تعود طالما ان العرب لم يحصلوا على سلاح جديد ، وان ما لديهم من مخزون الذخائر ، بعض أنواعه قد نفدت فعلاً ، وبعضها الآخر أوشك على النفاد . وهو ما يحز في نفوسنا .

وقد طلب برنادوت من الطرفين مدّ أجل الهدنة ، واجتمع أعضاء الجامعة العربية في القاهرة يناقشون قضية القتال .. ولذلك كان مفاجأة لهم ان يجمع الاعضاء على استئناف القتال ..

وسررنا نحن طبعاً لقرار الجامعة العربية ، ونحن على ثقة بأن الجامعة العربية لم تجمع على هذا القرار إلا بعد العثور على مصدر للسلاح والعتاد الحربي ..

وأين عسى ان يكون ذلك المصدر ؟

وقبل اليهود اقتراح برنادوت..ولكن العرب أصروا على استئناف القتال..

# غَدًا تعُود الحَرب

## ١

غداً الجمعة ٧/٩ سينتهي أجل الهدنة بنهاية الساعة السابعة صباحاً ، وتبتدىء حالة الحرب في الساعة الثامنة .

وسيعود القتال حتماً ..

وها نحن نترقبه .. ونترقب سلاحاً أحدث ونترقب حرباً جادة .. بدلاً من ذلك الخمول الذي سبق الهدنة .. وها هو السيد الورداني قد أقبل ونزل هنالك من سيارة الجيب . وسرعان ما تجمع حوله الرجال بأعناق مشرئبة ، يحسبون أنه سيأذن لهم في الهجوم فجر غد ، أو في الليلة القادمة ، ولكن ما لأسارير وجهه منقبضة هكذا على غير عهده ؟ ويستخرج صوته متئداً متراخياً من عمق نفسه؟ وبادروه : غداً نبدأ القتال يا بيه ؟ وأجابهم بصوت متهدج : كنت آمل ذلك ، كنت آمل ان أشاركم الفرحة ، ولكن تجري الأمور بما لا نشتهي .

— ماذا حدث .؟

— سيتولى الجيش الرسمي استرداد عصلوج ، ولن يكون لنا معشر الفدائيين نصيب في هذا الشرف .

- ألا يسمحون لنا حتى بالمشاركة ؟

— ما أظنهم يقبلون .

ومضى كاسف البال .. وانصرف الرجال الى ثكناتهم واجمين ..

●

اليوم الجمعة . وبدأت الآن ساعة الحرب .. ولكن الجيش الذي سيحـــرر عصلوج لم يحضر بعد . ولسنا ندري ماذا ينتظر ..؟؟

وقد سمعنا من إذاعة اسرائيل ، والاذاعات الأخرى ، أن اليهود قاموا اليوم بهجوم على بعض القرى القريبة من مدينتي اللد والرملة ، وان الطائرات اليهودية واصلت ضرب المدينتين بالقنابل طوال اليوم ..

ووصفت إذاعات الشرق السلاح الجديد الذي ظهر لدى اسرائيل بعـد هذه الهدنة ، ولم تكن قبل ذلك تملك منه شيئاً ، كالمدافع الثقيلة والطائرات . وأما الطائرات التي ضربت المدينتين فلا مثيل لها عند العرب، فهي طائرات اميريكية من نوع ( ب ٤٦ ) ذات الأربعة محركات ، وهي من طائرات الجيش الاميريكي الخاصة .. بينما لم يكن لليهود طائرات مقاتلة قبل الهدنة ..

## ٢

لم يسمع بجيش عربي بادر اليوم بالهجوم. حتى الجيش العراقي .. أماالصهاينة فقد بادروا بالهجوم منذ أول ساعة على أكثر مواقع الجيش المصري ، وهاجموا الجيش الاردني في القدس وفي منطقة اللد والرمـــلة . ومن غد في صباح يوم ١٠ زارنا السيد الورداني في الصباح .. وهو يترقب مجيء الجيش اليـوم ... ثم عاد مرة أخرى في المساء ، ولم يجيء الجيش .. ولما عاد ، أخبرنا بأن اليهود يهاجمون الآن مدينتي اللد والرملة وقد احتلوا اليوم قرى عربية كما احتلوا مطار اللد .

فقال بعضنا : هل تنوون ان ترسلونا نجدة للمدينتين ؟

قال : إنهما يقعان في منطقة الجيش الأردني .

– ولماذا لا يستنجد الجيش الأردني بإخواننا الفدائيين في بيت لحم ؟

ضحك الورداني وسكت .

– لماذا ضحكت يا بيه ؟

– الجيش الاردني كان يعسكر في بعض القرى التي احتلها اليهود اليوم ، كان هنالك للدفاع عن المدينتين ، وفي أثناء الهدنة تغيرت الخطة وانسحب الجيش الاردني من المنطقة كلها ، وايضاً جرد المواطنين من السلاح .. اشتراه منهم . والآن يستطيع الجيش الاردني ان يسارع للدفاع عن المنطقة ، ولكن يبدو أنه لا يرغب ... وهنالك ايضاً آلاف من الجيش العراقي يستطيعون أن ينجـــدوا المدينتين وعلى أي حال فالجيش الاردني هو المسئول وحـده عما يحدث وهو يستطيع ان ينقذ الموقف لو شاء ..

ولعله لايستطيع ...لسنا ندري ، ونخشى أن تنتهي المدينتان إلى أيدي اليهود ، لأن حكومة الأردن سبقت وعينت حاكماً عسكرياً لكل منطقة من المناطق التي تحت أيديهم ، ما عدا منطقة اللد والرملة فانهم لم يعينوا لها حاكماً عسكرياً.

لا بد أنهم يائسون منها منذ البداية ، ولسنا ندري .
هذه أمور سياسية أكثر منها عسكرية .

●

ومضى السيد الورداني .

وعدنا نحن نتجمع حول المذياع نفتش عن محطات الانباء العربية والاجنبية.

قالت إذاعة الصهاينة : إنهم احتلوا المطار وقرى أخرى . وذكرت الاذاعات الغربية بأن مدينتي اللد والرملة مهددتان بالسقوط ، وقالت إن اليهود لم يلقوا أية مقاومة في طريقهم الى المدينتين . وعلمنا ان اليهود كانوا من قبل يطالبون بالمنطقة لسببين :

اولا – لأن المدينتين لا تبعدان عن تل أبيب أكثر من خمسة عشر كيلا .

وثانياً – لأنهم يريدونهما طريقاً سهلاً ومضموناً إلى القدس .

وقالت بعض الاذاعات الأجنبية : يبدو أن قيادة الجيش الاردني لا تعترض على تسليم المنطقة .. لوجاهة مطالب إسرائيل . لذا فهي لا تبدي أية معارضة للجيش الغازي ..

وفي يوم الأحـد ٧/١١ سقط بيد اليهود عشر قرى عربية حول اللد والرملة دفعة واحدة .. وسقطت مدينة اللد أيضاً . وقد بدا الجو يتلبد في وجوهنا .. وهذا الجيش المطلوب منه تحرير عصلوج لم يحضر .

وفي يوم الاثنين أذيع أن مدينة الرملة سلمت للصهاينة فعلاً ، وتلك النكبة والكارثة ... مدينتان كبيرتان وأكبر مطار ، تقع في يد اليهود بلا حرب ..

وقالت الاذاعات الاجنبية : إنهما سقطتا بدون حرب ... ولم يبد العرب أية مقاومة باستثناء أحداث لا تذكر ، أحدثها القناصة المتحمسون ..

وحتى الجيش العراقي انسحب من كثير من المناطق بدلاً من نجدة المدينتين.

وأما إذاعة إسرائيل فقد ادعت بأن الجيش الاردني قاتلهم بعنف. واعترفت إذاعة إسرائيل بأنها لم تفقد سوى جندي قتيل واحد وجرح جنديان .

والاذاعات الأخرى تقول : قتل جندي أردني واحـــد من بوليس اللد ، وقتل جنديان يهوديان وجرح ثلاثة . واستولى اليهود على المدينتين وعلى نحو مائة قرية مجاورة مجاناً .

والعسكريون يدركون أن المدينتين سلمتا مجاناً . وأية حرب هـــذه التي يموت فيها ثلاثة جنود ؟ في احتلال مدينتين وعشرات القرى ؟؟

خبر محزن ، وغيظ مكظوم ، وأسف شديد يستولي علينا جميعاً . أشأم ليلة نقضيها في فلسطين ... أصبحنا جميعاً نغلي غيظاً وحقداً ، ولسنا ندري على من نصب جام حقدنا ، ولا نريد ان ندري ، ولا نستطيع ان نبتلع الهزيمة أو ننساها وقد فتت في عضدنا وأصابتنا في الصميم .

ولم نعد يومها نبالي بشيء . وقالت اليوم إذاعة إسرائيل : ان المقاتلين الاسرائيليين ماضون في احتلال القرى المتاخمة لمدينتي اللد والرملة .. الخ .

بالأمس الاثنين ١٢/٧ استولوا على المدينتين ، واليوم الثلاثاء هم ماضون في احتلال ما حواليهما من قرى ... وأين الجيش الاردني ؟؟ وأين الجيش العراقي ؟؟ احتل اليهود المدينتين بألف جندي . ولو دافع عنهما أربعمئة جندي لما استطاع اليهود الاقتراب منهما ..وهذا ما يحز في نفوسنا ،ولسنا ندري ماذا يجري وراء هذا التهاون الخطير ..

وأخبرنا السيد الورداني في هذا الصباح بأن اليهود يشنون الآن هجوماً عنيفاً على قرية ( صوبا ) ويشتبكون مع القريتين المجاورتين عين كارم والمالحة .

وسرنا هذا الخبر لأنهم في هذه المرة حتماً سيضربون ضربات تؤدبهم ، سيضربهم إخواننا الفدائيون الليبيون والسودانيون والمصريون والفلسطينيون المعسكرون هناك في جنوب القدس قريباً من هذه القرى ، فقرية المالحة مواجهة لليبيين ومجاورة للسودانيين ، وصوبا وعين كارم قريبتان تقعان في خط عربي غربي مدينة القدس .

●

ولما جاء الورداني كان متأثراً تأثراً شديداً أكثر منه في أي يوم آخر . وظللنا نحاول تفسير أسباب كدره بعد ان انصرف . لعله عدم مجيء الجيش الذي

سيحرر عصلوج ؟ وكنت أنا ايضاً متأثراً كسائر الناس .

قال لي صالحين : ما لي أراك مهموماً ؟

ـ ألا ترى بنفسك الأحوال ؟

ـ أتعني احتلال منطقة اللد ؟ وما يحدث اليوم غربي القدس ؟

ـ لا أعني إلا منطقة اللد . أما الذي يحدث اليوم فالفدائيون سيتولون أمره ويكيلون لهم الضربات .

ضحك صالحين وقال : حسبتك أكثر إلماماً بالأحوال وإدراكاً للأحداث . قال هذا وانصرف ..

ـ مالك انصرفت يا صالحين ؟ تعال ... كيف إدراكك أنت للأحداث ؟

ـ إدراكي أنا أن أستنبط تفسيراً لما يحدث . بماذا تفسر أوامر الانسحاب من مستعمرة ( رامات راحيل ) بعد استوائها على حافة السقوط ؟ وهي أهم نقطة للصهاينة في جبهة القدس ؟ ثم بماذا تفسر إقامة خط دفاع الليبيين في شرفات في مواجهة قرية المالحة ، وهي عربية ، كأنهم سيحاربون أهل المالحة العرب !! لماذا لم يقيموه في المالحة أو عين كارم في مواجهة الصهاينة ؟ أنت بنفسك رأيت المنافسة بين جيشين عربيين في مدرسة الخليل ؟ فلِمَ يا ترى لم يحدث بينهما تنافس على احتلال ما بين عين كارم وشرفات ؟ فسّر أنت .. خمّن ..

لماذا تركت هذه المسافة بلا جيش لإحدى الدولتين يدافع عنها ؟ أليست قرية عين كارم من أحسن القرى الفلسطينية ؟ وموقعها أليس موقعاً ممتازاً ؟؟ مالك ساكت .. اعترض .. تكلم ..

إني أوكد لك أن كل هذه القرى ستسقط بيد اليهود ، ولن يتقدم أي من

الجيشين لنجدتها إلا بما يذر الرماد في العيون . هل فهمت .؟ كما حدث هنالك في اللد والرملة .

قلت له : أنت متشائم ، وتفكيرك مزعج ..

قال صالحين : أزيدك أنه لو أمكن شق طريق تصل بين وحدات الجيش المصري بعيداً عن عصلوج لتركت وشأنها . وإلا ، فبماذا تفسر تردد الجيش في الحضور إلى الآن وقد مضت أربعة أيام على بدء الحرب وهذا الخامس ..؟

ـ إنني أعرف أفكارك يا صالحين .. لو أخذنا بها لما حاربنا . ونترك الأمر كله للقوى الاستعمارية تفعل ما تشاء ؟..

قال صالحين : لا ، يجب أن نحارب ، وليس لنا من اختيار .. إما أن نؤدي دورنا في الصراع من أجل الحياة أو نندثر .. والحرب هي سبيلنا لاستكمال مجدنا .. إننا لسنا نحارب عصابات الصهاينة بل نحن نقاوم الاستعمار الغربي . ويجب أن نقاومه في أهم ميدان .. وهو هذا ..

## ٣

وما كادت مناقشة صالحين تنتهي حتى ترامى إلينا دوي وضجيج .. يدنو قادماً من عوجا الحفير . ثم إذا هي دبابات ومدرعات تتلوها مدافع وسيارات تطفح بجند بواسل . هذا الجيش المصري الذي كنا ننتظره منذ أربعة أيام . ومر بنا سيل يعجب الأحباء وقوة يخشى بأسها الأعداء . لواء يتكون من نحو الف واربعمئة جندي يقوده القائمقام سيف اليزل ..

قال بعض المعلقين الذين يشهدون هذه القوات : لقد انتهى أمر الصهاينة في

●

ولما مررت بالليل على الاستحكام حيث يتمركز صالحين . قال لي :

– لقد حضر الجيش أخيراً . ولكن ما رأيك ، لقد صدق حدسي في غرب القدس ؟

– أنت شامت يا صالحين .

– لست شامتاً ...إنني حزين مثلك .

كان يقصد سقوط قرية صوبا . لقد سقطت بيد اليهود على الرغم من وجود الفدائيين قربها . ولسنا ندري كيف كان موقفهم من المعركة ..

وفي اليوم الثاني شن الصهاينة هجومهم لاحتلال قرية عين كارم وقرية المالحة. إلى ان سقطت عين كارم يوم ١٩ . ولما جاءنا شاهد عيان قال : إن الفدائيين لم يقاتلوا مع أهل القرى الثلاث ... لم يقاتل في هذه القرى إلا أهلها ، وقليل جداً من الفدائيين الذين تركوا وحداتهم وقاتلوا من تلقاء أنفسهم مع أهل القرى .. واكتفت قيادة الفدائيين بأن ساعدت القرويين بقليل من الذخيرة ، واشتراك مدافع بيت جالا بعشرات من القذائف ، واشتراك مدفعين من مدافع الهاون مع القرويين في المعركة ، إلى ان سقطت القرى الثلاث . وبسقوط المالحة أصبح الخط الدفاعي الذي بناه الليبيون ، أصبح الآن في مواجهة الصهاينة حقاً !!.. وكان خط سكة الحديد الذي يمر بين شرفات والمالحة هو الحدود المقدورة من قبل ..

لقد صدقت تخمينات صالحين إذن .

وإنك لترى الحزن بادياً على الجميع ، وان كنا نطمئن بعضنا بعضاً بأننا

سنسترد ما فقدناه يوماً من الأيام ..

*

مضى على الجيش يومان وهو حول عصلوج ولم يبدأ بمناوشتها بعد . وكان السيد الورداني يتردد عليهم بين الحين والحين .. وكنا نسأله في كل مرة يقف عندنا عما حدث .

وفي يوم ١٥/٧ وهو اليوم الثالث من إقامة الجيش حول عصلوج ، مر السيد الورداني على جنده المعسكرين في الجبل ، ولم يتمهل ليرى فدائييه كعادته . بل انطلق تجاه الجيش المعسكر حول عصلوج. وبعد سويعات عاد فتوقف. وسألناه :

ـ ماذا جرى يا بيه ؟ هل بدأ العمل أو أوشك ..؟

ـ لا ، لم يبدأ بعد ، ولكنه أوشك أن يبدأ . لعله الليلة أو غداً .

ـ هل لا تزال تلك الدبابات والمدرعات رابضة حيث هي ؟

ـ لا تزال تنتظر .

وهمس صالحين في أذني : ماذا عساها تنتظر ؟ ألم أقل لك ؟؟

*

وجاءت الأنباء هذا اليوم بالأحداث الخطيرة ..

اليهود يستميتون لاحتلال مدينة القدس العربية .. يهاجمون يحنون .. متشبثين بالقدس .. محط آمالهم وغايتهم الكبرى من فلسطين .. ولكنهم يخسرون في كل هجوم ، يخسرون الرجال .. ويخسرون بعض الأجزاء التي

بأيديهم أيضاً .. لأن العرب هنالك صادقون في دفاعهم .

واليهود يهاجمون اليوم أيضاً منطقة الناصرة ، واحتلوا بها قرية تسمى الرينة . ويهاجمون الجيش المصري بعنف ، ولكنه تصدى لكل هجوم ..

والطائرات المصرية أزعجت مدن الصهاينة وألقت في قلوبهم الرعب ، بما شنته من غارات على مدنهم الرئيسية ..

وقامت المظاهرات العنيفة اليوم في كل مكان ، في نابلس وعمان ، وغزة ومدن وعواصم أخر تهتف بطرد جلوب من الجيش الاردني وبسقوط الاستعمار وأعوانه .. احتجاجاً على تسليم اللد والرملة لليهود .. ؟

وفي هذا اليوم أيضاً قرر مجلس الامن إيقاف القتال بعد ثلاثة أيام في هدنة ثانية .

لقد باتت الهدنة قاب قوسين أو أدنى .. يغير اليهود على مدن وقرى يحتلونها . ثم يعطون راحة للاستجمام والاستعداد ..

●

ومن غد ١٦ / ٧ أعلن العرب والصهاينة قبول الهدنة التي ستبدأ من بعد غد . والجيش لا يزال حول عصلوج ينتظر .. وأغلب الظن أنه لن يفعل شيئاً ، وقد أطلته الهدنة بهيبتها . إذن ستبقى عصلوج بيد اليهود .. ولما جاء السيد الورداني في طريقه إلى الجيش قوبل بعاصفة شديدة من الهياج والاحتجاج .. لم لا يفعل الجيش شيئاً؟ أو يأذن لنا أن نفعل ؟ ها هي الهدنة الثانية تحل ولا تزال عصلوج بيد اليهود ..

وقطع السيد الورداني هياجهم واحتجاجهم بوعد منه ، قال فيه :

– إذا لم يهاجموا عصلوج غداً ، فسنهاجمها نحن ..

وجاءت الانباء اليوم بأن الصهاينة بدأوا مع العصر يشنون هجوماً على مدينة الناصرة من ثلاث جبهات ، وهي آيلة للاستسلام ..

وفي ١٧ استسلمت مدينة الناصرة ، وفي المساء منه جاء السيد الورداني ولم يبق على الهدنة غير أربع وعشرين ساعة . غداً الاحد ستبدأ الهدنة في الساعة الخامسة مساء . وطلب أن تجمع له الفصيلة .

# في آخِرِ لَحظة

# ١

وانطلق الصفير ... وسرعان ما اصطف الرجال .

قال لهم الورداني :ما رأيكم يا أولادي،هل أنتم مستعدون لمشاركة الجيش في تحرير عصلوج .

– مستعدون .

– وإذا لم يشارككم الجيش ؟

– نحتلها وحدنا .

– ألا تحتاجون لمساعدة ؟

– فقط مزيداً من الذخيرة .

– استعدوا ! ... الليلة نبدأ الهجوم ، سآتيكم ببقية إخوانكم الليبيين من العوجا .

– وما موقف الجيش يا بيه ؟

– سوف نحتلها وهم لا يعلمون .

– لماذا ؟ ...

– ...

●

وبعد مضي فترة من الليل ، إذا بسيارتين تحملان بقية الليبيين المقيمين في العوجا والذين كانوا قد جاءوا من بيت لحم لهذه الغاية ، ومعهم ذلك اليوزباشي

المصري الأسمر النحيل الذي جاء إلى العوجا هذه الأيام .. وقد عرفناه تقياً ورعاً .. يخرج كل مساء للتجول والتأمل والعبادة .

سأله أحدنا : ستذهب معنا للقتال يا حضرة اليوزباشي ؟

قال : إن شاء الله .

أصبح عدد الليبيين نحو السبعين رجلاً .. ولحق بهم السيد الورداني بعدمضي فترة من الليل وقال :

– هلموا اركبوا السيارات يا رجال ...

وقبل أن نركب قال :

– كم أنا بكم فخور يا أولادي ، هـــل تنوون أن تعودوا دون احتـلال عصلوج ؟ لو فعلتم لما فخرت بكم بعد .. حاذروا واقتصدوا في الذخيرة . أريد كل طلقة برأس يهودي ... هل فهمتم ما أقول ؟ ! ...

– فهمنا ، اعتمد علينا . ستفخر بنا إن شاء الله .

– لا تهتموا بالجيش المرابط حول عصلوج إنني لـن أخبرهم بهجومكم . ولا تعودوا قبل احتلالها حتى بعد حلول الهدنة ..

ووجه حديثه لليوزباشي :

– أما سمعت حضرة اليوزباشي ؟ أوصيك بأولادك ...

– لا توصني بهم ، بل أوصهم بي ... انني أعلم أي نوع من الرجال هم ... إنهم خلقوا للغارة والفداء .

## ٢

ثم قال السيد الورداني : انطلقوا على بركة الله .

وانطلقنا على بركة الله بعد اثنين وثلاثين يوماً من مقامنا في هذه التلال. ركب اليوزباشي سيارة الجيب وركب الجنود ثلاث سيارات . وعلى أكيال من

عصلوج وثب الرجال في لمحة عين من السيارات التي عادت من حيث أتت وكأنها لم تكن تحمل أحداً .

كنا فرحين بالقتال قبل هذه الساعة ، ولكن الآن جد الجد ... كل امرىء شغل بنفسه ، واصطكت الاسنان في الافواه ، ورجفت القلوب في الصدور تدق بعنف وبسرعة ... ومضوا في صفوف ساكنة . لا دبابة معهم ولا مصفحة إلا سيارة جيب وقفت بعيداً . تراهم من الخلف صفاً مسطوراً تبدو خوذاتهم الحديدية في ظلمة الليل تتحرك قدماً في إصرار .. وعصلوج يلفها الظلام لا يبدو منها شيء حتى مئذنة الجامع .

ثم انفصل الرجال إلى سبع فصائل ومضت كل فصيلة في اتجاهها المرسوم ، حتى ضربوا نصف دائرة حول عصلوج . عندئذ عاد اليوزباشي البطل إلى سيارته ، وزحف الرجال صوب البلد في حذر وصبر ، من خطوة إلى خطوة . ومن شجيرة إلى حجر . والركب تَصْطَكّ والايادي تتجسس وترجف ، تتجسس مواطن الالغام اذ لا بد للبلاد أن تكون محفوفة بالمهالك المدمرة والالغام الماحقة ولا بد للمسالك أن تكون ملغومة ، ولا أحد يعلم أين يكمن اليهود . ولا بد أن بعضهم في مئذنة المسجد ، وآخرون بين قبابه وعلى سطوح المنازل والمطحن وفي الثكنات المضروبة حول القرية . ولا بد أنهم حصنوها تحصيناً قوياً ، وعلى جماعة المفرقعات أن يتسللوا وينسفوا المسجد بأية طريقة ، وعلى أخرى أن تنسف المطحن ، ونطوق القرية ونحاصرها ، ونستمسك بكل شبر نستولي عليه . والاستماتة أساس النصر . والمحافظة على ألا تنطلق أية رصاصة الا الى قلب يهودي .

واقترب الرجال من المباني ..

●

كادت القلوب تقفز الى الحلوق عندما اخترق رصاص اليهود سكون الفضاء . كأني بهم قد شعروا بنا . ثم ازداد على طول خط مضروب حول المدينة . .

لقد تبينا الآن مواقعهم ولم نرد على رصاصهم . ولم يعـــد هنالك داع لنسف المسجد أو المطحن أو الدور . ثم اشتبكت النار والقنابل ونحن نزحف غـــير مبالين ، واشتدت المعركة ولسنا ندري عن حال اخواننا ، من منهم الغالب ومن منهم المغلوب . وان كنا نعرف خطتنا جميعاً .

واشتجرت المعركة بعنف في الجبهة المضروبة حول المدينة ، ولما جنّ جنون اليهود بعد أكثر من ساعتين أدركنا أن تصدعاً حصل في دفاعهم ، فتقدمنا مع من تقدم تجاه منطقة حسبناها ثغرة . وكاد أحد الكلاب يرمينا بقنبلة في يده لولا أن عاجلناه نحن بأختها فذهبت به وبرفيق له .

وأدركنا أن بعض اخواننا تسلل الى قلب القرية ونحن لا نزال بعيـــداً . أولئك كانوا اشدّ منا حقاً ويستحقون الإكرام . .

علمنا ذلك من الرصاص الذي ينفجر في قلب القرية . انهم قد احسنوا التدبير . ذلك هو طريق الاحتلال ، واما نحن فقد شغلنا بالقشور . وخلت هذه الجبهة الآن من حماتها . .

●

انتقلت المعركة الى قلب القرية وطالت . ولم نكن نظنها تطول الى هذا الحد .

قد تمكنا وتمكن الاعداء واحتمى كل منا بالجدران واختلطنا غير مميزين عن بعض . . فوضى لا ندري كيف تنتهي . والمعركة على اشدها تدور خابطـــة خبطها لا يعلم الا الله الى اين تسير . .

كر وفر ، وطراد ونزال ، وتربص وخداع ، في مباني القرية واركانهـــا ومنعطفاتها وفي المسجد والمنازل .

مضت ساعات والسلاح يصاول السلاح ، ودوي الرصاص والقنابل مشتجر ، والمعركة تستشري ، والمواقع يتنازعها خصمان مستبسلان ، ونفوس لاهثة فلت منها زمام الضبط للفوضى ورهبة الموقف الملتهب.. فقذف الليبيون برصاص كثير وأخلفوا ما وعدوا قائدهم ..

لقد اعجبت بالليبيين هذه الليلة وأيما اعجاب .

ونحن هنا في جانبنا نصيح على بعضنا لنتجمع ونرى اليهود .. فيخيل إلينا أنهم مروعون وهم يقفزون من أعلى الجدران .

روعهم شبح الموت ..

وهنالك يتفجر الرصاص في جوانب المسجد ومنعطفاته .

وهنالك آخرون تحصنوا بالمتاريس فوق السطوح والعرب من تحتهم . وأولئك يقذفون الطرقات من نوافذ المنازل . المسجد الآن في يد العرب ، وحول المطحن يدور صراع الموت والدمار ، وفي كل منزل رصاص يدوي صداه .

الظلام دامس والساعات تمر ، وهنا رعب ، وهنالك صراخ مروع . ولا يعرف غالب من مغلوب ، والمطحن سقط ايضاً الساعة في يد العرب .. ولايزال الصراع دائراً .. قد حاقت بالغادرين أكفانهم ، تطاردهم غصص الردى من جانب الى جانب .. حتى لاح الصبح بنوره ، والمواقع تساقط بعد الجهد والعناء .

كان الصهاينة يستعدون للانسحاب .

ولما طرحت الشمس أول شعاع لها كان الأعداء ينسحبون من آخر معقل لهم في القرية .. والنار تشتعل في بعض جهاتها والدخان يتصاعد الى عنان السماء .

●

حسب المناضلون أن المعركة قد انتهت .. وذهبوا يتفقدون .. ولم يمضوا بعيداً ،فقد انفجر في وجههم السلاح بظاهرالقرية .. وفتحت جبهة جديدة .

كان الصهاينة قد أعدوها احترازاً واحتياطاً للاحداث . والهجوم في وضح النهارأضحى صعباً،ولكن لا مفر من المثابرة على مواصلة التحرير. وقد توسطت الشمس كبد السماء ثم زالت ولا تزال هذه المعركة مشتجرة . ولولا أن اليهود أخذوا أخذاً عنيفاً،واستولت عليهم الرجفة من كل جانب في حلكة الليلة البارحة لما فترت الآن همتهم وأدركهم الكلال .

●

وهكذا دامت المعركة أربع عشرة ساعة ، وتحررت عصلوج ولم يبق على موعد حلول الهدنة سوى ساعتين اثنتين .

## ٣

غير أن المعركة لم تنته بعد ، فلا تزال هاهنا معركة اخرى وهنالك معركة ثالثةدائرة على مشارف المستعمرات ..ولكن من ذا الذي يثير المعركة هنالك ؟

وتفقد الرجال بعضهم .. وتساءلوا:

ـ من ذا الذي يبادل اليهود النار هنالك ؟

منذ أول ساعة في المعركة البارحة، كانت هذه المعركة تدور هنالك .. يسمعها الرجال ولا يعلمون سرها ، ولا هم يبالون بها ؛ ولكنهم الآن قد تفرغوا لها . وهرع بعضهم إلى حيث تدور رحاها على حواشي مستعمرات الصهاينة . ولحقوا بالجيش الذي أثار المعركة حالكة على مستعمرات الصهاينة. فإذا هوجيش

جرار قوامه رجل واحد ، هو ذلك اليوزباشي العظيم راكباً سيارته تطوي بـه الأرض هنا فتنقذف المنايا من فوهة رشاشه صببا .. ثم ينتقل هنالـك ويصليهم بسيل آخر من نار حامية .. ومنه إلى مكان ثالث فرابع ، وناره تنصب عليهم من كل صوب وكأنه فيلق من جيش يهاجم من كـــل حدب وصوب .. ليقطع إمددات المستعمرات اليهودية ويرهبها ..

وبادر اليوزباشي جماعة الليبيين :

– ماذا فعلتم ؟ ما جاء بكم ؟

– حررنا عصلوج من اليهود واستولينا عليها .

– كلها .. ؟؟

– نعم ، كلها .

– ماذا في عصلوج الآن ؟

– هي عربية بأيدينا .

– اذن ما هذا الرصاص وهذه القذائف ؟

– معركة في جبهة اخرى خارج القرية تدور بين اخواننا وبين اليهود.

– ولماذا جئتم اذن ؟

– جئنا لنشن الغارة على المستعمرات .

– لا ، لا تفعلوا ؛ اذهبوا هاجموا هذه الجبهة الوسطى من خلفها واتركوني هاهنا احمي ظهوركم . وكان سيل رصاص المستعمرات اليهودية يقذف في كل اتجاه واليوزباشي يتحدث اليهم .. ومحرك السيارة يئز .. ثم صعد سيارته وهو يقول لهم : اذهبوا حيث امرتكم .

وتتابع سيل من طلقات الرشاش ، ثم انطلقت السيارة الى مكان آخر .. وفوجيء يهود الجبهة الوسطى بالرصاص يأتيهم من الخلف ، فانسحبوا منهزمين. ولم يصل الى المستعمرات الا بعضهم واليوزباشي لا يزال يصلي هذه المستعمرات ناراً. ثم حين سكتت المعركة سكت هو هنالك . ولم يبقَ على حلول موعد الهدنة الثانية سوى ساعة واحدة .

ولحق الرجال باليوزباشي الذي سكت رشاشه بعد اكثر من خمس عشرة ساعة

متوالية من قذف الحمم فاذا هو متكىء على جنبه لاهث الانفاس . وبادر جنده بالسؤال:

– إلامَ انتهى .. المصير ؟

– لقد انتصرنا . ماذا بك يا بيه ؟

– لا شيء ...عصلوج عادت عربية ؟ انتصرنا حقاً ؟

– نعم ، هل اصابك شيء يا بيه ؟

– الآن يطيب لي ان استريـــح . لم يصبني شيء . خـــذوني معكم الى عضلوج .

– لكننا جئنا لنغير على المستعمرات .

– لا تفعلوا ، لم يوصكم قائدكم بذلك ، هيا خذوني ..

فكوا – قميصي آه ..

– لقد أصبت يا بيه !

– هل استشهد منكم أحد ؟. أو أصيب ؟

– لا أحد يا بيه . ثلاثة جرحى فقط جروحهم غير خطيرة وما عدا ذلك فكلنا سالمون . ونرجو لك السلامة .

– لا ترجوا لي السلامـــة بل ادعوا ربكم أن يشملني برضاه بين الشهداء ...

واضطرب الرجال لما رأوا خصره ممزقاً بنحو عشر رصاصات ، واسرعوا يحملونه خلف السيارة وانطلق به إلى حيث يعسكر الجيش يبحثون له عـــن الطبيب .

## ٤

أما الورداني فقـــد كان مع كبار الضباط في معسكر الجيش وقلبه ينبض ارتفاعاً وانخفاضاً بقدر ما يترامى له من صدى القنابل والرصاص . ولما سكن القتال خرج ليرى فاذا بالعلم المصري يرتفع على مئذنة المسجد ، فلم يتمالك وظل يصيح من الفرح والضباط من حوله في دهشة وهو يقول :

ـ ائتوني بسيارتي . لقد انتصرنا ..

ـ ماذا جرى يا بيه

ـ لقد انتصرنا .. الا ترون علمنـــا يرتفع ؟؟ جنودي .. في عصلوج .. رفعوا العلم ..

ـ رويدك ! هؤلاء اليهود يخادعوننا ...

وشاهد الجيش المرابط حول عصلوج العلم الاسرائيلي ينزل عن مئذنة المسجد والعلم المصري يرتفع مكانه .. لما شاهدوا حركة الأعلام هذه حسبوها خدعة صهيونية ، فاصلوا أصحابها وابلاً من رصاص كاد يصيب إخوانهم الليبيين الذين كانوا على المئذنة يرفعون العلم .. فصاح فيهم السيد الورداني بحدة ينبزهم بألقاب جارحة ..

●

لحق السيد الورداني بجنده في عصلوج وكانوا يتجولون في القرية ، ويتفقدون معالمها ، ولا يزالون يتتبعون المعالم والثكنات حتى أدركوا جسر وادي عصلوج وهنالك وقفوا خاشعين .. وربما وارى بعضهم دمعة حزينة على المشهد الألـيم :

ست جثث أحرقت بالنار .. إنها جثث الليبيين الستة، ولمح بعضهم قطعة الحديد المثبتة حول معصم إحدى الجثث .. وبعد لأي تبين أنها جثة ابوريانة ... ثم انصرفوا يبحثون عن المناضل الشهيد السابع حـــتى وقفوا على جثة .. هيكل عظمي بمعصمهـــا سوار من الصاج نقش عليه إسم ذهبت معالمه .. وقـــد تحايلوا ليؤلفوا من النقوش كلمة أبو دبوس .. لقـــد تخطفته منيته ولم يرو ظمأته ..

كان عبد الحميد يفتش عن نفسه التي نسيها ها هنا منذ أن ترك رفاقه ظامئي الفؤاد وسط اللهيب الى أن التهبهم دون أن يرطبوا ظمأتهم بجرعة ماء، عندئذ وجد نفسه واعتصر المشهد سواكن قروحه فبكى بعبرة حارة .. مشهد خاشع عقل الألسن .

شأن الناس يستهينون بالجبنـاء ولكنهم يكرمون الأبطال ويخشعون لدى مشاهدهم وذكراهم ..

ثم تجولوا في طرق القرية المهجورة .. كانت هنالك فردة حذاء ملقية على الطريق لم يلتفت اليها أحد الا عبد الحميد . نظر اليها ملياً .. فقد عرفها .

●

ثم عادوا جميعاً الى عوجا ــ الحفير ...

الا الشهيد ابن مصر البار ... عاد الى ربه راضياً مرضياً .. كفكف عليه الرجال دمعة حارة ، وبكيته حتى أنا ! حـتى أنا بكيته ! أحببته الآن ... رغم ما كان بيني وبينه . فقد نابذني ونابذته ، وآذيتـه ولم يؤذني . لو كنت أدري لفديته بحياتي .. رحمه الله .

تواريت عـــن الناس أخفي دمعاً متساربا على الرغم مني . بكيت البطولة

والتقوى ، بكيت خير الضباط .. وعاد هو الى ربه ثملاً بنصره واستشهاده ، قرير العين .. ليت كل ضابط مثله .. وليت كل القادة مثل الورداني .

عدنا نغالب السهاد ، ورهق الصراع ، ونشوة النصر وغصص الشهداء .. والأحشاء تَوْوَرّ من جوع وما بالنفس شهية لطعام ، ونمنا نوماً طويلاً .

★

في الوقت الذي بدأنا فيه الهجوم على عصلوج في أقصى الجنوب ، في نفس تلك الساعة ، كان اليهود يشنون هجوماً بأقصى ما يملكون من عنف على مدينة القدس في قلب فلسطين .

يا لها من مدينة ! وقفت شوكة في حلق اسرائيل .. فهي أعز بقعة في نظرهم ، وهي محط احلام اسرائيل .. تحايلوا لاحتلالها حتى نفدت الحيل . واستخدموا القوة حتى باتت عقـــدة الحرب المزعجة لهم .. تكسرت على اسوارها كل المحاولات.

وها هم الليلة يهاجمونها بأعنف ما يقدرون ، ويوالون عليها هجوماً اثر هجوم وفيلقاً اثر فيلق ، ومن كل فيلق يتركون وراءهم اشلاء مئات من شبابهم . حتى فقـــدوا الأمل وتراجعوا مع شروق الشمس يجرون اذيال الخيبة والهزيمة .. يجرجرون جراحهم وآلامهم ، واشلاء مئات من عصاباتهم المتفانيـــة في سبيل القدس .

●

# ٥

انتهت الآن اعمال الحرب . وعدنا نحن الى عوجـا – الحفير وجلسنا حول كؤوس الشاي نستعيد الأحداث والذكريات وكشف حساب الفترة الحربية التي انتهت .. اي كسب حققه العرب ؟ واي جيش خرج منصوراً ؟

لم نجد جيشاً عربياً كسب شيئاً الا ذلك الجيش الوليد جيش سوريا، استطاع ان يحتل مستعمرة قريبة من حدود سوريا تسمى مستعمرة ( مشمار هايردن ) . اما الجيوش الأخرى فلم تكسب شيئاً، بل بعضها خسر.. خسر المدن والقرى، وخسر الذكر الحسن . وخسر ما هو أثمن ...

بعضهم خسر مدينـــة الناصرة وعشرات القرى حواليها . وبعضهم خسر مدينتي اللد والرملة واكبر مطار .. وعشرات القرى ..

وبادر الصهاينة بالهجوم منذ اول ساعة في هذه الحرب وكسبوا .. ولم يقم جيش عربي واحد بهجوم جدي طوال هذه المدة المنصرمة .

اهو جبن الجيوش ؟ ام هو خوف السياسة ؟ ام هو نقص السلاح . ؟

اما عن الجبن فلم نلق جندياً مصرياً او عراقياً او اردنياً او .. اي عربي الا وهو متذمر .. ناقم .. حاقد على السياسة ، واما السلاح ، ورغم ما كدس منه اليهود اثناء الهدنة ، فلا يزال العرب الى حـــد الآن هم الاعلون ، وما لدى الجيوش العربية يفوق ما لدى اسرائيل . ولكنها السياسة ...

●

وستنتهي جميع الاعمال الحربية من جانب العرب بمجـــرد دخول توقيت الهدنة ويراعونها باحترام وتقديس . ولكن اليهود يرونها على حقيقتها ..فهي

ليست أكثر من فرصة تتاح لهم لبناء دولتهم ، وهم لا يحترمون إيقاف إطلاق النار إلا بقدر ما يحقق مصالحهم ..

في الهدنة الأولى احتلوا عصلوج .

وفي هذه الهدنة لن يقفوا مكتوفي الأيدي ... سوف لن يبالوا بمجلس الأمن ولا بهيئة الأمم استناداً على نفوذ أميركا وبريطانيا . .

# شُرفات

# ١

ومرت بضعة أماسيّ ونحن في العوجا – حفير .. وبعدها تقرر رجوعنا إلى كتيبتنا هنالك في جنوب القدس ..

وعدنا عن طريق عصلوج وفيها الجيش المصري إلى الخليل التي يرتفع عليها العلم المصري الآن . وقد انسحبت منها الكتيبة الأردنية إثر ذلك النزاع الذي شهدنا طرفاً منه في المدرسة الثانوية . وعرجنا نقضي زورة لسيدنا ابراهيم الخليل ، الذي اختار له الله هذه البقعة الطاهرة لتكون مثوى له .. وإذا كنت شاباً في مثل سني ، عابراً في طريق نضال . سترى هذه الزورة تمتع حياتك ، تنعش شبابك ، وتعدل دهرك ...

وفي الطريق إلى بيت لحم توقفنا ساعة عند برك سليمان ، الينابيع الخضراء التي تمد ما حولها من مدن وقرى بالماء . ثلاث برك تحفها مروج مزهرة ، وخمائل لفاء ، ودوح سامق وتسيل في واد جميل ؛ شفينا الغليل من مائها العذب ، ومتعنا الروح بجمالها البهيج .. ومن هنالك الى المدينة الطيبة حيث ولد سيدنا المسيح .. إلى مدينة بيت لحم . ومن طرف بيت لحم ، عند مقبرة قبة راحيل ، حيث يرقد الشهداء من أبناء ليبيا الأبرار .. من هنالك ، عرجنا نبتغي إخوة لنا على مشارف القدس في قرية شرفات . سلكنا إليها دروباً ومسالك صخرية ، تصعد وتنخفض وتتعرج وتنحني ، بين بساتين الكروم والتين تارة وبين الصخور والاحجار أخرى ، منها دروب وطأها السير ونحتتها الأقدام ، ومنها مسالك أغفال عفى عليها السيل .

وهذه السيارات تتهادى ... ترتفع وتنخفض ، وتنتفض وتهتز ، وتميل

وتتأرجح، ثم تقف فلا سبيل لها بعد إلى شرفات ،ويمضي الرجال على الأقدام.. حين تسلكها لأول مرة غريباً يعتصر فؤادك شعور من بهاء الحقب ، وجمال من طهر السحب ، كأنك في صفاء الخلد ، وفي عالم المنى والأحلام . وهؤلاء الرجال انتثروا في ذرى الجبال يؤمهم إخوان لهم ماضون الى شرفات رائحين عليها رواح مسافر عاد إلى ذويه بعد غياب .

وانحدرنا من ذرى أشرفت عليها،وطالعتنا كما تطالعك قرية ولدتْ ونشأتَ فيها ، وعدت إليها بعد غياب عشرين قرناً .. كانت القرية تنادينا ، وتحدثنا أحاديث القرون الخوالي...خيل اليّ هذا أو كان ذلك حقاً ؟ لست أدري... ولكنني طأطأت على الأرض الطاهرة وقبلتها من أعماق آبائي وأجدادي ، ومنحتها بسمة بيضاء من فؤادي .

هذه داري ، تهافت عليها الأفاقون من كل الأصقاع يبتغون أن يخرجوني منها .. هزئوا بنا آخر الدهر .. واغماه من ذوي الصولجان الذين ضيعونا .

وحين تشرئب من شرفات تبدو لك أطراف مدينة القدس ذات المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ، وها نحن حيث بارك الله .. حول مدينة النبيين في شرفات ، قرية التين والكروم والزيتون والتفاح . بيوتها متناثرة ، أخلاها أهلها للكتيبة الأولى من الفدائيين الليبيين خطاً للنار في مواجهة الزحف الصهيوني .

★

الليبيون ها هنا في شرفات والجبال المجاورة لها غرباً ، وإلى جوارهم من الغرب أبناء اليمن ثم أبناء الجزائر وتونس والمغرب . وإلى جوارهم من الشرق في ( بيت صفافا ) أبناء السودان ، والجميع قد تحصن في الثكنات والخنادق ، مواجهين لأعدائهم منذ شهور مضت لم يحتلوا قرية ولم يهاجموا عدواً ، ولم يؤذن لهم بغير هذه الوقفة الحاملة على العدوة الجنوبية من منخفض تمتد فيه سكة القطار.

واليهود على العدوة المقابلة لهم ، على نحو كيل واحد ، يحولون بينهم وبين القدس الجديدة . وبين الفريقين الشريط الحديدي الذي كان يمر عليه القطار من غزة إلى القدس . ومن طريف الصدف أو من المقدور المحتم أن تكون هـــذه السكة الحديدية الفاصلة بيننا وبينهم ، هي الحد الذي ارتضاه اليهود وحكومة الاردن فيما بعد حداً فاصلاً بين دولتيهم .

ولكن ما لنـــا وللأردن ؟ نحن ها هنا في خط ناري يمتد جنوب القدس . نأتمر بأمر القيادة المصرية العليـــا ونخضع لقيادة السيد أحمد عبد العزيز قائد الفدائيين من مصر ومن السودان ومن اليمن وليبيا وتونس والجزائر والمغرب .

وهؤلاء آلاف من الفدائيين قد أكلهم الملال ، ودب إلى نفوسهم التمرد ، من طول ما لبثوا في هذا الجو الخامل ... وهم ما جاءوا إلا ليغامروا بهذه الحياة ، ويطهروا الأرض ، ويحرروا الوطن . ولكن حتى القيـادة المصرية تحول بينهم وبين ما ينشدون رغم الإلحاح والتذمر ... أليس هذا بغريب ؟!

●

حللنا بشرفات في أفق هادىء وجبال غرقى في سكون مهيب . لو كنت مكاني وأرسلت الناظر من وراء هذه الآكام ، وبين الجبال والوديان ، هنالك في الأفق البعيد لحسبت نفسك في جنة خليقة بأن تهبها حياتك وتاريخك وذراريك ، لتكون خالصة لأبناء العروبة من بعدك .

وينطلق الرصاص بغتة ... يرن في طبقات الصخر ويتردد صداه في المهاوي والكهوف . ولأول مرة تسمعه يرتد إليك صوتاً عذباً جميلاً يتلاشى في هـــذا السكون المروع ، ولا تشعر بأنك في حرب ! ولو كان هذا الصوت الذى يدوي أحياناً بدوي الرصاص أو القنابل هو كل السلك الرقيق الباقي الذي لا يزال يربط

بينك وبين الشعور بأنك في حالة حرب ..

أما الحرب الحقة فدونها السياسة الملتوية الشوهاء . دونها ارادة قعساء .

وفي هذا اليوم الذى حللنا فيه شرفات جاء إليهـــا بضعة رجال من ابناء فلسطين ذكروا للقيادة أن لهم قمحاً مخبوءاً في أرض لهم هنالك في قرية المالحة، المقابلة لشرفات ، التي يحتلها اليهود . وهم يبتغون ان يغامروا بحياتهم لاسترداد قمحهم ويضرعون للقيادة أن تعطيهم سلاحاً يدفعون به أعداءهم إن فطنوا لهم ، أو ترسل معهم بعض الجنود يتولون عنهم ذلك .

ورفضت القيادة مطلبهم فألحوا إلحاح آباء عيـال نفدت ميرتهم وضاقت بهم الاسباب . غير أن القيادة لا تجازف بجندها وتحتمل تبعات ذات خطر من أجل بضع أسر جياع..وهم كسائر أبناء فلسطين يعانون المسغبة والحرمان ، رغم أنهم يشهدون بأعينهم بساتينهم المثمرة وبيوتهم ومخازنهم العامرة .. ولا يستطيعون إليها سبيلا ..

## ٢

وبعد شرفات لا بد لنا من زيارة لمدينـــة سيدنا رسول الله عيسى ، المسالم الطاهر القلب . ولد ههنا ووضعته العذراء في مغارة على ظهر جبل بشيت عليـه الآن كنيسة كبيرة : كنيسة المهد . وقامت حوله مدينة ذات مبان شرقيـــة كثيرة ، وطرق وأزقة تنحدر وترتفـــع ، وتتعرج على طبيعة الجبل انحداراً وارتفاعاً ، وتنعقد فيها سوق أسبوعية كل يوم سبت يؤمها أهل القرى المجاورة، تباع فيها الميرة والملابس كما تباع فيها الأسلحة: من مسدسات وبنادق ورصاص، كما تعرض فيها المخدرات علناً . إنها تقع في منطقة جبليّة ، وكذلك المناطـــق المجاورة لها كلها جبلية تختلط فيها المذاهب والأديان في إنسانية واعية:هذه هي

مدينة بيت لحم ..

ها هنا ولد سيدنا المسيح الوادع ، ليهدي بني اسرائيل الذين تنكروا له ، وبرموا به ، ورموه في قحة وصفاقة يهودية بأقذع عبارات المهانة ، وسعوا في قتله .. وهو يلين لهم الجانب ويستذر من نفوسهم التعاطف والمرحمة ..

ويسلك لهم سبل الحب ابتغاء سعادتهم. ولكن أنى لقتلة النبيين أن يهتدوا... فقد قتلوا من قبله النبيين والمرسلين الذين مـــا وزروا غير الحسنى . وأنى للين والحب أن يسترق قلوبـــاً قست ؟ أو يهدي عقولاً جمدت على عبادة الدرهم والدينار ، تدس الخديعة في النفاق ، وتغمس أنوفها في كل فتنة ، ولا تغرس أفكارها إلاّ في الشر تهيىء أسبابه ، والمكر تبتدع أساليبه .

ولا بد لزائر المدينة أن تذكّره كيف كان المسيح يطوف الديار ويجـــوب الآفاق ... يبسط للناس ما نفخ الله فيه من روح ، ومـــا كان يلقاه من عملاء الشيطان من تجهم أينما حل . وهؤلاء الصهاينة ، الذين طرحت بهم الآفاق إلى أرضنا هم حفدة عملاء الشيطان ... مكن لهم اتباع المسيح انفسهم في لندن ووشنطن . مكنوا لهم من أرض المسيح .

وقريباً من مغارة المسيح تقوم دور الحكومة ... وأي حكومة؟ حكومة الأردن طبعاً وشرطة الاردن. استولوا على الإدارة المدنية بعد نزاع مع حكومة مصر .. مع ان مصر هي التي تتولى الدفاع عن المنطقة . أما أبناء فلسطين فلم ينالوا من الدولة العربية التي زعمها تقسيم الأمم المتحدة .. لم تقم لهم إلى جانب إسرائيل دولة في البقية الباقية من أرضهم ، ولم ينالوا غير المسكنة والفقر والمذلة .

●

# ٣

تعال معي نرى عن كثب ماتال عرب فلسطين .

انظر ها هنا تحت هذا الجدار، في مدينة سيدنا المسيح، تَرَ شباباً طالت شعور لحاهم ، وشحبت ألوانهم، وخَلَقَت أسمالهم، يستقبلون أشعة الشمس، ويلتمسون أي عمل، يبحثون عن أي سبب للقمة... فلا يجدونها. من هؤلاء الشباب آلاف.. في كل ثنية ، وتحت كل جدار ، وأمام دور الحكومة ، وفي كل قرية وفي كل مدينة ، وفي كل دار وأمام كل مسجد وكنيسة .

وأنى لهم بالطعام وقد ارتفعت الأثمان، واختفى النقد ، وضاع المال ، وانهار الاقتصاد ، وماتت الحركة ، وساد القحط في كل مكان ..وخيم البؤس في كل البلاد

*

انظر إلى هؤلاء الصبايا الحسان .. كن ذات يوم جميلات في ريعان الورد ، يدلك على ذلك طلعة وضيئة رغم شحوبها ، وعين كحيلة ، وحاجب خلاب ، وقد ممشوق. بقية من أثر واحسرتاه ... ها هن مئات وعشرات في هذه المدينة يمددن أيديهن بالرجاء في غير وجل ، يطلبن الإحسان .. ويلتمسن بقية الكسرة فلا يجدنها . لقد كن ذات يوم في دار ورفاهيـــة وعز ، يغنينك عن المذلة لو جئتهن تطلب الاحسان .. وها هن اليوم كما تراهن في اسمال مهلهلة وبقية أثواب رقيعة قذرة ، نحلت أجسامهن حتى ما ترى إلا عظاماً ناتئة في جلد ، وعيونـاً تحملق في خفر ، كأنهن بعثن من القبور الساعة .. حافيات ، تتدلى على سوقهن قطع من ثياب قد تشققت الى ما فوق الركب ودونها. يا لله .! ما أفدح البؤس !

ومنهن من كانت تحمل طفلها، وهي ما تكاد تحمل جسمها ، تتنقل عبر الطريق بطيئة بطء الأموات يكاد الريح يكفؤها على وجهها .. وطفلها يريد ان يثغو فلا يجد الصوت .. وتعترض طريقك أمام مركز شرطة بيت لحم تمد يداً مرتعشة ترجوك الغوث ... الغوث لوجه الله ..

وهذه الغادة الحسناء .. أو يخيل إليها انها كانت غادة حسناء ، ذات رواء ، ونضرة ، وأنوثة ، لأنها لا تزال ببعض نفسها بقية ذكرى .. ذكرى دار العز ، يوم كانت مدلة بروائها ، وادعة في عزها ، يخطب العرسان ودها ، ويتبعون ظلها . تلك أيام تولت ، وآسفاه ، كأحلام العذارى . وغدت العذراء مهزولة الجلد والعظم ، تجر رجلاً حافية موهونة ، على رصيف الطريق، مشردة هنا في بيت لحم .. بعيدة عن الأهل والدار . وها هي اليوم تجلس على الرصيف أمام الدكاكين ، في أكبر شوارع بيت لحم ، وقد نضب ما كان .. فلم يعد يبالي بها أحد . يمر الناس من حولها غير آبهين .. مدت يدها حتى كلت ، ثم قبضتها كاسفة ، يغمر قلبها يأس صابر ، ووجوم حزين .. ليت شعري فيم تفكر المسكينة ؟ ولم سفحت هذه العبرات ؟ ويحها ... أتراها تجتر الذكريات ؟

لا توجعي قلبي يا أختاه ، ترفقي بجرحه الغائر ، هذه قسمتك من الحظ العاثر ، وقسمة أبناء فلسطين . وبات ذو الحظ السعيد محقق الحلم العريض : بيت ذي عماد وأوتاد، يجتني الثمر ويلقي النوى في وجوه العذارى المناكيد.

★

هذا ما نال أهل فلسطين ، ويا لأهل فلسطين وما نالوا .. تعال انظر تلك العجوز في الغابرين ، محنية الظهر حملتها الأيام ما لا تطيق ، تنحدر مع الطريق جانب كنيسة المهد ، تجر نفسها جراً ، ومن ورائها أطفال أربعة ، انتثروا وراءها على قدر ما بقي في حيلهم من جهد واهن ، يتساوقون كأنهم قطيع

ضال ... وتتلبث العجوز حتى يلحق بها أضعفهم ثم تعاود السير الوئيد تلتمس غوث المحسنين. ثم تنتظر حتى تلحق بها الطفلة ذات السنوات الثلاث ، ويجلس الجمع على ارض الرصيف على قارعة الطريق .. ثم يتعين للقطيع أن يعاود السير ..

استوقف هذا الغلام ، وهو أكبرهم ، وسله : إلى أين انت ذاهب مع جدتك ..؟

يا للفجيعة ما يحكي الغلام . ! ما أوجع الدمعة المترقرقة في عينيه ... ما أوجع نصالها في روحي... ويلاه ! ليتني ما سألته .

انها ليست جدته ولا قريبته . أبو الأطفال الأربعة قتله اليهود هنالك في الرملة .. وأمهم ماتت ... ماتت من جوع في القدس ... نعم من جوع ... في القدس ... ذات عشية... ماتت على قارعة الطريق ... وتركت أطفالها على الحجر المرصوف في الدرب المسقوف . وكانت هذه العجوز ترقب ما حدث فضمت الأطفال الاربعة الى صدرها وهي لا تعرفهم وهم لا يعرفونها وبكت.. بكت بكاء مراً حتى بلت وجوه الاطفال ، وبكى الأطفال اليتامى أيضاً حتى الطفلة الصغيرة ، إنهم جميعاً يبكون ، بكت وكم مرة سألت : أين امي .. ؟ يا خالد أين أمي ؟ وتحنق .. ألم تسمع ..؟ أين امي ؟

ومنذ يومهم ذاك لم تعد أمهم ، فقد حملها بعض الرجال على أكتافهم وذهبوا . وهذه العجوز تضمهم إلى صدرها كل يوم وأحياناً تبكي... نزحت بهم عن القدس تعترض المارة في بيت لحم لعلهم يحسنون !...

ويل الليالي ما أقساها !..

وما أفجع حديث الغلام عن أيام أبويه ، كان بين أترابه في المدرسة منعماً ، وأبوه يسوق لهم خيراً ونعمة كل يوم ، ويحملهم في سيارته الى المدرسة ثم يعود بهم ، وأمهم تهيىء لهم البيت وتكلؤهم بالعطف والحنان ، ثم سقط الوالد ذات يوم أمام داره ، وهربت الأم ناجية بأطفالها ؛ ثم عري وبؤس ، وحفاء وجوع.. ومن

السرير الوثير إلى الرصيف المتجمد ، حتى كانت الفاجعة الكبرى ، فاجعة فقدان الأم .

هذه مأساة أسرة تسعى يومها كالقطيع ، من مطلع الشمس إلى مغيبها ، ثم تأوي ليلها إلى أخدود في جبل قاحل خارج بيت لحم اتخذته مأوى تحضن فيه العجوز أطفالها مع الذئاب وبنات آوى ..

وآلاف من الاطفال مشردون في هذه المدينة. ولكل منهم قصة ... ولعل من القصص ما هو أوجع من قصة هذا القطيع ، ومئـــات من العذارى ... وعشرات المئات من الأمهات.. والشيوخ.. والشباب والآباء أناخ عليهم الدهر ، وجارت الأيام ولؤم بهم الاستعمار ، وجهل عليهم اخوانهـــم وتركوا أطفالهم ونساءهم للهم والحزن ، وللذل والفناء .. دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التفكير ، أو يكلفوا ميزانيتهم رعاية الأرملة أو أنس اليتيم والمحروم .

عد بنا يا صاح إلى شرفات ... لم يعد في الفـــؤاد الجريح متسع لمزيد من المواجع . عد بنا .. هلم نعود إلى شرفات .

وعدنا سكارى من دوار الأحداث تميد بنا الأرض وتضيق وانعقدت الألسن لم ننبس بكلمة في الطريق على طولها لأننا لأول مرة نرى كل هذا البؤس .

*

عدنا الى شرفات نحمل المواجع والغصص . وبعيـــد الأصيل حملت فراشي وغطائي وبندقيتي إلى إحدى الثكنات ، ولكل ثكنة حرم يتعاقب على حمايته ورعايته ثلاثة رجال طوال الليل ، وثلاثة آخرون طوال النهار . وثمة سرداب يصل بين الثكنات عميق قدر طول الرجل أو دونه بقليل .. يحمي الجنود من رصاص العدو وقذائفه في غدواتهم وروحاتهم وحين تشتد الأزمات .

هذه العشرات من الثكنات ، وهذا السرداب الممتد امتداد حواشي القرية وما جاورها ، كلها أعدها أبناء فلسطين للدفاع عن بقية وطنهم . لا يتطوعون للعمل عن طيب خاطر فحسب ، بل عن غبطة وسرور . وما أجمل ما يشعرون به حين يبذلون جهد الإمكان ، يحسون أنهم يؤدون واجباً نحو وطنهم ، واجباً حرموا منه قسراً وعدواناً . حُرِّم عليهم حمل السلاح ، وحُرِّم عليهم قتال أعدائهم ، وحُرِّم عليهم الاقتراب من ساحات الوغى ، وحرمت عليهم صفات المواطن الصالح . وجردتهم السياسة العربية من حق المواطن في وطنه ، وحماية مورد رزقه وملعب أطفاله ومأوى عياله . وهم الذين لا ينشدون غير السلاح الذي جردتهم منه الجيوش العربية . كانوا يشترونه ما وجدوا إليه ثمناً ، يضنّون عن العيال بالقوت الهين ، ويشترونه بالغلاء الفاحش . ولو وجدوا السلاح لكان لقضية فلسطين اليوم وجه آخر لم يفقد إشراقه .

ولكن الاستعمار كان قد أحكم وضع الحبالة قبل ذلك بسنين ... أصبحوا في وطنهم يُحتقرون من الغادي والرائح ؛ فكل من به شامة منهم جاسوس ، ومن أصيب بعاهة ومن بقي يحسمه جرح قديم ومن غمز بعينه ومن تلعثم في حديثه ، كل تلك علامات للجاسوسية في نظر الجيوش العربية ، وتلك قواعدهم للتعرف على الجواسيس .

أما عن الخيانة فكل الفلسطينيين في عرفنا خونة . يهان الفلسطيني في وجهه ، ولا يملك للإهانة دفعاً ، ويوصم الحر في إخلاصه بالخيانة وفي وطنيته بالمروق ، وتسير معه الوصمة أينما سار في بلاده تحت الشمس والقمر ، كلهم باعوا أرضهم لليهود ، وكلهم تهاونوا في الدفاع عن وطنهم . وكلهم خانوا الأمانة وخذلوا الجيوش العربية وفرطوا في مصيرهم .

واستنكر أبناء فلسطين التهمة المفتراة بالحجة الدامغة حتى خفتت أصواتهم .. وارتفع الصوت الذي خلقته الصهيونية وروج له أبناء العرب الذين لا يعلمون ما وراء انهيار الشخصية الفلسطينية وتلاشيها .

صدق الناس بهتان المغرضين وملأت الإشاعة أفواه الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، واستسلم الفلسطيني للعاصفة ...

كبلته الجيوش العربية ، ووصمته بالتهاون ، ونسج له المغرضون الشراك في الظلام ، ووصفوه بالخيانة فقبع وسكن . وإني لأخشى أن يكون من سذج فلسطين من استقبل الإيحاء بالتصديق ، وغدا خجولاً من نفسه . قد قابلت بعضاً منهم في بيت لحم وفي بلدان أخرى . لا يملكون الجهر بالحقيقة وفضح الأسرار ولكنهم يعملون في صمت .

*

وأي باطل يجوز على هذا الشعب الواعي ؟ إنهم يعلمون ما يدبر بالليل قبل أن تبزغ عليه شمس النهار .. وأنا الذي جئت من ليبيا لمست كثيراً .. كثيراً أخجل من ذكره .

قادة عرب يساومون اليهود.. وآخرون يبيعونهم الأسرار ويبيعونهم السلاح، ويبيعونهم المناظير والمعدات . كم من هزيمة مصطنعة ثمنها في جيب قائدها . وكم من سلاح تسرب من مخازنه لليهود .. وكم من ضابط في جيش عربي يحتكر الاتجار مع الصهاينة في السوق السوداء ؛ يبيع لهم ميرتهم ودخانهم وملابسهم بواسطة عملائه .

وكم من ضباط في جيش دولة عربية لهم أبناء عم وأبناء خالات من ضباط الجيش الاسرائيلي رأيتهم .. وحفظت أسماءهم .. هؤلاء في جبهة دولة عربية واولئك في جبهة دولة اسرائيل وجهاً لوجه ، يفصل بينهما كيل واحد أو بعض كيل ، يحملون السلاح ؛ احدهم في وجه الآخر ، ويهذي بمهاترات الإخلاص لوطنه .

وأنت صدق هذا الهراء إن شئت ! لا أعني دولة عربية واحدة بل أكثر من واحدة.. لذلك كانت بعض الفيالق العربية تسلم المناطق العربية لليهود مجاناً ..

لوجه الله ينسحبون منها بلا سبب مع الفجر ليصبحها اليهود وكأنهم قد أوحي إليهم ، وأكون منصفاً لو قلت : وينسحبون أيضاً لأسباب متفق عليها ، كما يدرر الفلك مع إرادة واشنطن ولندن .. ولم يرمهـــم أحد بالخيانة ورموا بها الأبرياء الذين غلبوا على أمرهم . وحتى الضباط اليهود الموجودون في صفوف أحد الجيوش العربية لم يرمهم أحد بالخيانة التي رمي بها الفلسطينيون العرب .. لأن الذئاب لا تتكاثر الا على الشاة التي لا راعي لها.

وقد قيل : إن السكاكين تحتشد على رأس الثور الواقع .

# فِي القُدْسِ

# ١

اننا لم نر مدينة القدس بعد ، ويجب ان نزورها ونزور المسجد الأقصى الذي أُسري بنبينا إليه ، ومسجد سيدنا عمر بن الخطاب الذي أقيم على المكان الذي صلى فيه سيدنا عمر حين أدركته الصلاة في الكنيسة ، ورفض أن يصلي فيها خوف أن يتخذها المسلمون من بعده مسجداً .

ركبنا سيارة هذه المرة ، بدل الحمير في السابق ، لأن الطريق الجبلي الذي رأينا أبناء فلسطين يشقونه في الهدنة السابقة ، أصبح الآن مطروقاً وتستطيع السيارات أن تسلكه ، ولا يزال العمل فيه جارياً على قدم وساق .

وسارت بنا سيارتنا في دروب وعرة غير ممهدة ، تتعرج وتلف على سفوح الجبال وفي حناياها وثناياها ، متنكبة ما كان من المصاعد الشاقة والمنحدرات الزلقة ، تتهادى فوق الأحجار الناتئة من هذا الدرب المترب .. أما ذلك الطريق المعبد الممهد الذي يصل فيما بين القدس وبيت لحم فقد قطع اليهود وصله من عند رامات راحيل كما ذكرنا .. حتى اتينا الطريق الممهد من بعض مشارف القدس .

ولم نشعر إلا ونحن تحت جدار صخري عتيد ، قطعة صامدة من تلك الحصون العتيقة التي بين جنباتها تمور مدينة القدس ذات التاريخ الماجد والذكر الشهير . وأفضت بنا الطريق الى رحبة فسيحة يتوسطها باب ضخم يتدرج منخفضاً ، هو أحد مداخل مدينة القدس القديمة .

ولا تملك إلا أن تقف مشدوهاً على باب عاصمة الأرض المقدسة .. ولا يفتأ يغمر قلبك فيض من أحاسيس الجنة . وتذهل عن نفسك ، كأنك انسلخت من حاضرك إلى العصور والدهور .. إلى الأبدية الموغلة في الوجود . تطلع بفؤادك من هذه الساحة وستشعر كأنك تعيش في رؤى وأحلام كأحلام النائم اليقظان .. رؤى تشع بالنور والغيرة، ويـــد الله الحانية تبارك الأرض وتبارك السماء ، وتبارك النسيم فيهب على المدينة برضوان الله .

أمعن النظر رفيقاً في كل شيء ، تتراءى لك الحقب تمر على المدينـــة بأجيال وأجيال تنسحب وتترك ظلالاً خفية ، أثراً من مسحة الأزمان ، وفيهم الأطهار من النبيين والمرسلين ...

سل عنهم هذه المدينة ، هذه الدروب ، وتلك الحنايا والأزقة المسدودة ، والمسالك المسقوفة .. ألم تريْ أنبياء الله ورسله يدرجون عليك ... يتعاقبون جيلاً بعد جيل ... يمرون على هذه الأرض عابرين ؟

ألم تطأكِ أرجلهم الطاهرة مترفقة ، ماضية لمحاريبها ، تتبتل للأجلّ الاعظم الذي جعل من هذه البقعة الصغيرة المتناهية في الصغر من كونه السحيق العظيم ... جعل منها بقعة مباركة ؟ في كونه ؟

كيف رأيتِ أولئك الأطهـار ؟ خبّرينا عسى أن نشفي غليل الروح الظامىء ؟

ألم تريْ عيسى الحبيب يدلف غادياً ورائحاً ؟ ألم تريْ يحيى الكريم وزكريا الكافل ، والأطهـــار الأبرار يلقون أقلامهم أيهم يكفل العذراء ؟ أولم تريِ القلوب الصغيرة تنبض بمجد الرحمن وهي تمر بجنباتك يغمرها الإخـلاص والنور والطهر والصفاء ؟ لا بد أنك شهدت .. ويا لروعة ما شهدت .. لو تخبرينا !..

ألم تريِ النبيين وهم أطفال يمرحون في رحابك لاهين ضاحكين ، من فؤاد متفتح لنور السماء ؟.. ليتني كنت معك يا نجمة الدهر ورفيقة القرون .

كم شهدت من ملوك ؟ من قواد عظام ؟ من رجال كرام ؟ من مدنيات تنسحب في طيات القرون ؟ لك الله ما أروع ما حفظت من ذكريات الأحقاب !

ألم تشهدي صاحب الثوب الرقيع ، القديس المطأطىء على بعيره جاء يسبح بمجد ربه ، يجوب إليك الآفاق والرمال ليفتح بابك في ترفق بعد حصار طويل ..؟ يبارك الفتح الاسلامي باسم الله ومجده ؟ ويطوي صفحات مشوبة ويبسط منك صفحة جديدة ناصعة البياض من تاريخ مدنية الانسان .. ؟

ما أبدع أن يقف المرء في هذا الأصيل الجميل على أبواب مدينة القدس ! يتأمل الناس غادين رائحين ! صورة حية من الدهور العتيقة كأنها لم تتبدل ولم تتغير ، يضفيها الخيال وتركيها دروب مرصوفة على عهد الرومان ، وأزقة شرقية من عهد سليمان ، وأسواق من عهود كنعان .. وأثواب أهلها الفضفاضة من تراث المتبتلين والمرسلين الأولين .

إنها لمدينة أحلام المنى القدسية ، طيبة الثرى ، رضية الأهل ، وباب الأرض إلى السماء ، ومنه يعرج المرسلون !..

وهذه الأزقة التي تنحدر تارة وترتفع أخرى ، انحدار الآكام التي أقيمت عليها المدينة .. كم شهدت هذه الأزقة ، فيما شهدت ، وأحدث ما شهدت ، من قتل وحرب وكفاح وكر وفر بين العرب والصهاينة .. لقد تعايشت قلة اليهود مع العرب آمنة في سلام آلاف السنين ، حتى كاثرونا آخر الدهر وطمعوا فينا وبادؤونا بالعداء ووثبوا على من يليهم من العرب في هذه المدينة ، لو لا أن أهل القدس كانوا بالمرصاد ففتكوا بأحياء اليهود المجاورة لهم .. وعلى قلة من السلاح ، وفقر في التدريب ، وتورط في حال لم يُعِدُّوا له أهبته ، استطاعوا أن يسيطروا على أحيائهم وينقضّوا على الأحياء القريبة منهم فيطهروها ويتسلطوا على الجانب اليهودي من المدينة . وألقى عبد القادر الحسيني الرعب في نفوسهم بصَوْلاته وجولاته في قلب القدس وفي أطرافها وجوانبها حتى تسلمها جيش حكومة

الأردن . وكان يوماً مشهوداً طربت له نفوس أبنـاء القدس وهم يشهدون المدرعات المنيعة تدخل مدينتهم معتزة مُدِلة بمناعتها ، وفوهات مدافعهـا تتمايل يميناً وشمالاً تُنذِر العدو المرتقب .

كان يوماً يسهل فيه احتلال القدس المجردة إلا من سلاح نادر هزيل لا يقوم في نعال الحوافر للجيش المدرع الرهيب .

وأمَّل المواطنون أن تستسلم بقية الطائفـة اليهودية لغلبة الجيش المرهوب ، فيسْلَمَ قلب فلسطين من أيدي الصهيونية ومن عبث المذابح والمعامع التي شُغِلت بها منذ شهور . ثم ينطلق الى ما وراءها من المدن والقرى ..

ودخل الجيش الظافر المدينة بمدرعاته العتيدة ، والطرق مفتوحة ومقاومة اليهود فاترة مريضة ، وسار الفتح شمالاً حتى انتهى إلى سور المدينة القديمة. وفي باب العمود توقف الضابط الانجليزي...وثمت وقـَف الزحف ... وإلى هنالـك انتهى الفتح ؛ فإذا الجيش يدور في فلك مرسوم لا يعدوه . وإذا سألت هـــذا الضابط الاجنبي : لم وقفتم عند هذا الحد؟ قال: هذا حظنا من مدينة القدس .. أما القدس الجديدة وما وراء الأسوار القديمة بأحيائه العربيـــة فقد ظل في قبضة اليهود .

وأخيراً خاب أمل أهل القدس .

## ٢

القدس مليئة بالشباب المهاجرين من قراهم المحتلة.. حافلة بالنساء والاطفال، وكراديس من الأسر ، مكدسة في عرض الطرق المؤدية للمسجد الأقصى . مدينة مشحونة بالمشردين ، وكلهم لا يدرون إلى أين يساقون .

تصورت أن أمي وأخواتي وعشيرتي ... مكدسين في عرض هذا الطريق . تصوّر معي أنت أن أمك ها هنا مشردة على بلاط مرصوف استندت على جدار قديم ، تمد رجلاً يستند إليها طفلان هما أختاك ، وان اختك الصغيرة قد تبولت وسال بولها وسط الطريق ، وأبوك لا يعلم إلا الله إن كان حياً أو ميتاً ، وأخوك الطفل قريب من أمك ، وهي لا تفتأ ترقبـــه خوف أن يختلط في زحمة الناس فلا يعود إليها أبداً بينما الأطفال يُحشَرون بينه وبينها . ونساء يصحن بأطفالهن وأخريات يولولن ، يبكون .وجوع ... ويأس قانط .. وفزع شديد.. وراديو يهرج من المقاهي ، وزحمة في الأسواق .. ليت شعري بمـاذا تشعر لو كانت لك أسرة ها هنا كما ترى ؟ وبماذا يشعر المسئولون .. لو كانت لهم أسرة مشردة بين هؤلاء ؟تفترش البلاط وينخر البرد في عظامها وينهش الجوع أحشاءها ؟ هل كانوا يرضون بالغيمة دون تحمل تبعاتها ؟ ولكن لا يكتوى بالنار إلا الواقع فيها ، وليت شعري ، ما شعور هؤلاء الآلاف من الشباب المشرد تجاه المسئولين وهم يلمسون بأنفسهم نكبـــة الدهر بهم ، ويدسون مشاعر الحقد في سويـداء أحاسيسهم ؟

لست أدري ما شعورهم .؟

هم آلاف كثيرة .. أكثر ممن رأينا في بيت لحم .يملأون كل ثنية ، يكابدون البؤس في صبر من لا يملك أن يخرق السماء. ويصارعون اليأس .. اليأس المرير.. أتراهم قد ذُهلوا عن انفسهم حقاً كما يبدون ..

تراهم يتسكعون في غـــير اتجاه مقصود. عمّ عساهم يبحثون ؟ ويل لعدوهم وأنصاره من مرارة هذا الحقد الذي أراه يزرع في النفوس اليوم .

سيمضي اليوم كما مضى أمس،ويمضي الخريف وينمو الزرع ويسترد المشردون انفاسهم ثم يؤتي الحقد حصاده .. ويَلِد الصراع ويُفرِّخ .. عندئذ ستخر نجوم.. سيملي الحاقدون اراداتهم على التاريخ .. وويل لمن ألهاه يومه عن غده . ولم يقس يومه بأمسه .. ويحسب للغد حسابه ..

رغم هذه المحن التي أراها ، أراني أستطيع أن استشف من ورائها تاريخ الغد المحتوم ..

لكم الله يا شباب ، ما أملك لكم غير الأمنيات .. ولكني أملك لكم شيئاً آخر .. بل أشياء أخرى بين جوانحي هي أثمن ما أملك ..

●

اننا الآن نتجول في المدينة بحبيس الغصص وآلام المواجع ، في شوارع ضيقة مزدحمة وأسواق غاصة بالبشر ، ومدينة محتشدة بالمقدسات .

نزور كنيسة القيامة . وهنالك رجال مستغرقون في العبادة .. ونزور جامع سيدنا عمر ، وكنا نحسبه فسيح الجنبات ، مليئاً بالزينات ، فاذا هو متواضع تواضع سيدنا عمر . ولكنه جليل القدر .. يشعرك بالبساطة الإسلامية الأولى ، وسموها الإلهي اللذين لم تكتنفهما الزخرفة والأبهة بعد .

●

وفي المسجد الاقصى لا بد وأن تشتجر في نفسك النزعات الروحيـــة التي لم يكن لك بها عهد من قبل .. وإذا ما أتيت المحراب تصلي لا بد وأن يأخذك الغيب على جناح من السمو الروحي ، بعيداً عن الدنيا وآلامها وأوجاعها ، كأنك لست من هذا العالم الدنيوي وليس هو منك ..

صليت وجلست . وأما رفيقي فقـــد استعذب التحليق في اجواء الخلود فذهب يتدرج في صلوات لا آخر لها .

ولما قضى .. كان كأنه عائد من عالم السماوات الروحي يتضح على وجهـــه بعلامات الطهر وعلى جوارحه بالفتور .

ومن المسجد الأقصى إلى الشارع، حيث الذين تحدوهم سياط العيش وأكلاف الحياة ، والذين شردتهم أحفاد الصهاينة .. وطمع المستعمرين .. وجشع الإخوة الأقارب . .

ومن باب الأسباط عدنا في سيارتنا الى شرفات . عـــدنا نتبادل الحسرات والنفس تعبق بآثار السمو الروحي ..

●

ذكرت أن الصهاينة لا يحترمون عهداً ولا ميثاقاً ، ولا يقدرون هـدنة إلا بقدر الإفادة منها .. ها هم في هذه الأيام يهاجمون ثلاث قرى عربيـة في منطقة المثلث الواقعة في حماية الجيش العراقي ، وأهلها يدافعون عن أنفسهم ويشتكون للجنة الهـــدنة ، ولكن اليهود مستمرون في غيهم رغم لجنة الهدنة ، والجيش العراقي لا يحرك ساكناً ، كأنهم ليسوا من القتال الدائر في العير ولا في النفير .. حتى سقطت بأيدي الصهاينة بعد أيام من المقاومة. وأدانت لجنة الهدنة العدوان الصهيوني .. ولكن هل هـــذا يثني الصهاينة عن تحويل القرى الى منطقة في دولتهم ! وذهب احتجاج العرب وقرار لجنة الهدنة في مهب الرياح – وبقيت عين غزال وجبع وأجزم أشلاء تتسع عليها دولة اسرائيل ...

●

وفي هذه الأيام أيضاً ينسحب الفوج الباقي من الجيش الأردني في بيت لحم ، وعددهم نحو ١٠٠ رجل ، ينسحبون من بيت لحم، ولا أحد يعلم لماذا ينسحبون؟

لا بد أن يكون وراء انسحابهم مغزى ما ..

تم انسحابهم من المنطقة يوم ٤٨/٧/٢٧ ، وانسحابهم بالنسبة إلينا كبقائهم ، لأنهم كانوا في منطقة بعيدة عن خطوط القتال .

هذا ما يقوله بعض المجاهدين .. ولست أشاطرهم الرأي .

*

اليوم الخميس ٥ / ٨ / اعلن انتهاء شهر رمضان الذي قضيناه ما بين عصلوج وشرفات ، وغداً سنصبح معيدين . ولكننا لا نشعر بفرحة العيد كما يشعر بها أولئك الذين لا تعذبهم مناظر البؤس والتشريد ، والذين لا يشهدون آلاف الأطفال ها هنا يسرحون كالأنعام ، بحثاً عن الطعام ...

ثم مضى اثنا عشر يوماً والجو مطمئن ، وقريتنا هادئـة ، والجبال غرقى في سكون عميق ، والوديان هانئة في الأحلام. لا يعكر صفوها دوي قنابل ولا أزيز رصاص ، فقد خرست إلا ما شذ عن احترام مواثيق هذه الهدنة التي تظلنا ... ورغم الهدنة ومواثيقها انقلب الهدوء والسكينـــة فجأة في هذه الليلة من ١٧ / ٨ / ٤٨ .

# صفعة للأعور المغرور

# ١

انقلب الهدوء إلى دمار ينذر بالخراب .. وحصاد يهدد بالفناء .
لقد اشتعلت الأرض والسماء .. وما بال أعداء الله يشعلونها .؟

الليل لم ينتصف بعد حين فجر اليهود براكين جهنم تحت أقدامنا ، وأشعلوا السماء رعوداً وصواعق فوق رؤوسنا ..

ماذا دهاهم ؟ ما بالهم الليلة ينقضون ميثاق الهدنة ..

انهم يشنون هجوماً لا ريب ، ونحن من جانبنا علينا أن نتثبت ، ونبلغ القيادة ، والقيادة قالت : احذروا وتربصوا ، فالنار لم تنفجر عليكم وحدكم ، بل هي عامة على جميع القطاعات في شرفات وبيت صفافا وصور باهر و ... وعلى الفلسطينيين والاردنيين في القدس القديمة أيضاً ..

إذن اليهود يقومون بهجوم شامل وفق خطة اختلف الرأي في تأويلها ، وأرجح تأويل لها :

أن اليهود لما عجزوا ، وأعيتهم الحيلة والقوة معاً لاحتلال شبر من القدس القديمة ، طردوا قائدها العسكري السابق في أواخر الشهر الماضي واستبدلوا قائداً جديداً به يدعى الكولونيل موشى ديان قائد في الهاغانا .. ويقال إنه أعور معصوب العين . وهو نزق مغرور إلى أبعد حدود الغرور . كان قد كسب انتصارات على العرب اصطنعتها السياسة . فجاءوا به إلى قيادة القدس ليحقق لهم المعجزات .. ولا بد أنه قد جمع قواه ، وأعد جنده ، وهيأ قبضته ؛ ليضرب

ضربته الأولى ... وسيختار لها الوقت ، والمكان والمناسبة ، لتكون قاضية تعجب أعداء الله .

وها هو الليلة يوجه ضربته الأولى، وأخشى ما نخشاه أن يفلح الملعون ...

ولكن هناك كانوا يسلمونه المناطق باصطناع الهزيمة . وأما ها هنا فلم يعد هنالك مجال لتسليمهم أرضاً أخرى ، لأن الأرض التي كان يمكن أن تصطنع فيها الهزائم ، في عين كارم والمالحة ، لم يدخلها الجيش ، وأسس خطوط دفاعه منذ أول يوم ، حيث لا تقهقر وراءها بعد . اللهم إلا ما بقي من بيت صفافا شمال سكة الحديد الذي لا يزال الفدائيون يستمسكون به . وسوف نرى .. أتراه يخفق في أول ضربة هيأ لها أسباب النصر ..؟ ليبرهن على كفاءته ؟

والحق أن الضرب هذه الليلة أشد ما يكون.. أطنان من القذائف والذخيرة ألقيت علينا ها هنا في شرفات . لم نعهد كل هذه الشدة من قائد الصهاينة السابق . ولا بد أن جميع القطاعات تنال نصيبها من هذه الأطنان .

الهجوم شامل ، ولن يستهدفنا في شرفات حتماً ، لمناعة مواقعنا . ولا يستطيع أن يقترب منها ، ولو تحولت إليها إسرائيل بقضها وقضيضها .. ويُرجَّح أنه يقصد احتلال بيت صفافا المجاورة لنا شرقاً لأهمية بيت صفافا ، لأسباب ذكرناها سابقاً ، ولأنهم يبتغون شمال سكة الحديد من القرية ، وهذه لأطنان من الرصاص الملتهب ، إنما تلقى علينا لتشغلنا عن نجدة إخواننا ..

ونحن مطمئنون لأبناء السودان ، فسوف يحطمون إرادة موشي ديان على صخرة فاسية ..

ولما سألنا إخواننا في بيت صفافا ، قالوا : إنهم يؤكدون أن اليهود يستهدفونهم ، وأنهم يترصدون لطلائع الصهاينة .

# ٢

وبعد ساعات من فتح جهنم لأبوابها جاء التليفون بالأنباء : أمر من القيادة في بيت لحم : ليتحول أكبر عدد احتياطي منكم إلى صور باهر لأن اليهود يهاجمون اخوانكم بقصد احتلال جبل المكبر، وقد احتلوا جزءاً منه فعلاً . وهم يهاجمون بشدة لاحتلال بقيته . وماذا في بيت صفافا ؟ لا شيء إلا ما يقصد من اشغالهم عن نجدة إخوانهم أيضاً .

إذن اليهود يريدون جبل المكبر ، اهم موقع استراتيجي يسيطر على القدس، وإذا ما وفقوا لاحتلاله ، فسوف يحتلون ما وراءه ، ويخرجوننا من القدس .

واشتد الضرب علينا لما كنا نغادر شرفات لنجدة إخواننا .

★

ولما وصلنا هنالك وجدنا الصهاينة قد احتلوا الجبل وانتصروا علينا وسيطروا على المنطقة . وهم الآن يضربون إخواننا المنسحبين من ثكناتهم في الجبل بعنف لا هوادة فيه .

ووجدنا المدفعية المصرية : مدافع الميدان والهاون كليها تصبان على الصهاينة المغيرين جحيماً لا أول له ولا آخر . والمصريون صوابون لا يخطئون . . فانكسرت شوكة الغارة الصهيونية على قتن القنابل ، واستطاع المنسحبون اثناء ذلك أن يثبتوا أقدامهم . . واستطاع الفلسطينيون والأردنيون الذين انسحبوا أيضاً من مواقعهم الشرقيـــة والشمالية أن يستردوا انفاسهم ويثبتوا حيث انتهى انسحابهم . .

وأخذنا معشر الليبيين مكاننا بين إخواننا المصريين . ومـا كادت المدفعية تلقي آخر قنبلة لها حتى كنا نشق طريقنا نحو المغيرين .. ولكن اليهود أيضـاً استردوا أنفاسهم بعد انتهاء المدفعية وأصبحنا معهم وجهاً لوجه . نحن نستبسل ، وهم يستميتون في مواقـــع أقدامهم .. وظل الصراع على أشده وطـال .. ثم عادت المدفعية تدك مواقع اليهود . وإثرهـــا أعدنا الكرة في هجوم كاسح تزحزح فيه الصهاينة عن موقع أقدامهم ، ثم حاولوا أن يقوموا بهجوم معاكس فتحطم . وكان قائد الفدائيين الأعلى السيد أحمد عبد العزيز يدير المعركة بنفسه . وبلا شك كان موشى ديان يدير المعركة بنفسه من الجانب المقابل . وكان إخواننا الأردنيون والفلسطينيون من الجهاد المقدس يهجمون بهجومنا ويتقدمون على العدو أيضاً .

ومع الفجر جرت محاولة ثانية لهجوم عربي شامل كسبنا فيه بعض النصر ، ولما اقترب النهار اشتد الصراع ، لأن مصير المعركة يتوقـف على هذه الساعة الأخيرة ، وكان موقف اليهود ضعيفاً واشتد العرب في هجومهم الأخـير من كل جانب ، فعصف بالصهاينة وأخذتهم الرجفة من كل جانب .

وبعد أن استشرت المعركة واشتد لهيبها فترت من جانب الصهاينة وأدرك عزيمتهم الكلال ، إلا ما يغطي انسحابهم . وانهزموا بأربعين أو خمسين قتيلاً ، بالإضافة إلى مئات الجرحى . ولا بد أن قائد الصهاينة الجـــديد أدرك مدى غروره حين عاد منكسراً يجر أذيال هزيمة طالما أعد لها لتكون أول نصر يتوج به غروره .

●

وعدنا معشر الليبيين بعد مطلع الشمس بثلاثة جرحى جروحـــاً غير ذات بأس ، وشهيدين اثنين : هما عوض عبدالله جبريل ، ومحمد عبد العـال . ولكنا عدنا بحماس المنتصر ، نشعر بالفخار والبطولة .

ولكم تمنينا ان يعمي الله بصيرة قائد الصهاينة فيشن كل ليلة هجوماً . وهذا ما حدث في الليالي الأربع التالية ولكنهم لم يقوموا بهجوم صادق .

## ٣

ولم تعد السكينة بعدها الى مواقعنا في شرفات وفي الغرب منهـا . اذ كان الصهاينة لا يألون جهداً في الثأر لجرحهم الدامي .

ولم يمض هذا الأسبوع بخير .. ففي ٨/١٣ منذ الصباح الباكر ، كنا نتبادل الأحاديث عن الحادث المؤلم الذي وقع البارحة غير مصدقين . لولا أن القيادة في بيت لحم أكدت صحته .

لقد قتل قائدنا الأعلى ، الفدائي البطل ، أحمد عبد العزيز . كان البارحـــة راكباً سيارة جيب ومعه السيد الورداني والسيد صلاح سالم ذاهبـان الى القيادة العليا في المجدل . وعند قرية عراق المنشية ، حيث تقوم حراسة الجيش المصري الرسمي ، طلب منهم الجندي إعلان كلمة السر ، ولما أعلنوهـــا لم يسمعهم من ضجيج سيارتهم ودوي سلاح المعركة الدائرة حينذاك وشك في أمرهم فقذفهم برصاصة أصابت قائدنا في صدره نقل إثرها الى المستشفى حيث أسلم الروح الى باريها. وترك لنا حزناً عميقاً في نفس كل فدائي ، بل وفي نفس كل عربي ، فهو بطل لا يعوض. رحمه الله ، وجازاه خير الجزاء ..

●

كم كنت أتمنى أن لو كان هذا الرجل هو قائد العرب جميعاً في هذه المعركة .. وقائد الجيش المصري بصفة خاصة ، فهو أخو الحرب ويحسن سياستها ، ولا يعترف بسياسة ( معليهش ) في الميدان . ويعرف كيف يخلق الرجال للنصر..

كم من مرة دعا بضعة رجال من جنده وكلفهم بالدفاع عـــن منطقة يحتاج الدفاع عنها الى بضع مئات .. وإذا ما بصّروه بهذه الحقيقة وهي ان المنطقـة تحتاج الى مئات لا أفراد ، كان جوابه لهم : ثكلتكم أمهاتكم ان ظننتم أنكم ستة أفراد بل أنتم ست فرق ، أنتم أشد من ثلاثة آلاف . أو لستم كذلـــك ؟ أجيبوا ! مالكم ساكتين ؟ إن لم تكونوا كذلك دعوني أبحث عن غيركم . مع كل منكم مائة طلقة ، لاتضيعوا منها واحدة ، أريد كل طلقة برأس يهودي ، واذا ما قتل كل منكم مئة رجل دعه بعد ذلك يستشهد .. أو لستم كذلك ؟ أجيبوا ؟

ولا بد ان يجيبوه : اعتمد علينا ، سنكون عند حسن ظنك .

ويعتمد عليهم ويتصدون لكل هجوم بروح معنوية لا تقهر .

وبمثل هذه الطريقة يُخْلَق رجال الحرب للنصر .

أما طريقة : إنسحبوا بسرعة ... حذار أن يطوقكم العدو من اليمين ... احترسوا من الشمال ... ماذا نفعل .. لا قبل لنا بقواتهم ... ليس لنا السلاح الكافي ... هذه الطريقة كفيلة بخلق رجال ايضاً ، ولكن للهزيمة وحدها ..

●

وليست الشجاعة ولا الجبن بصفة لازمة وعنصر قائم في كيان الانسان أو تركيبه ، ولكنها روح مكتسبة : هياج يجول في قلب المرء فيحوله الى إنسان غيور ، يسترخص حياته في سبيل تنفيذ ما يجول في خاطره . وقد يكون سبب هياج نفسه كلمات من قائده او من زميله ، ثم لا يلبث ان يتعود ويُوَطِّن نفسه على الشجاعة إن كانت .. أو على الجبن ..

والقائد الناجح هو الذي يحيل جماعته إلى شعلة ملتهبة من الشجاعة والشهامة والثقة في النفس . وإنني لأذكر معارك قد تهيبتها ذات يوم .. والمتهيب ليس أكثر من جبان ، ولكنني في مرات أخرى احسست بأن الموت أهون من الهزيمة بكثير .. وأغلى من العار بكثير ..

وما الفرق بين الموت والحياة ..؟

ومع ذلك فالذين يطلبون الموت هم الذين توهب لهم الحياة . والذين خلقوا للهزيمة خير لهم ان يكونوا امواتاً .

قد التقينا في ساحات الوغى بقواد خلقوا للهزيمة ..

والتقينا بآخرين خلقوا للكفاح .. ولم نلتق بأولئك الذين يخلقون الرجال مثل البطل المرحوم ..

## ٤

كنت هذه الأيام في زيارة لإخواننا الليبيين . زرت الكتيبة الثانية في قطاع بئر السبع ، وجدتهم هنالك وقد استولى عليهم اليأس ، لأنهم لم يقاتلوا قتالاً جدياً ... موقفهم موقف المدافع فحسب ، وسلاحهم غير صالح ، مثلهم مثل السودانيين والمصريين هنالك . تعرضوا ذات يوم لقافلة صهيونية قتلوا بعض ضباطها واستولوا على بعضها ، وتبين لهم في هذه المعركة ان سلاحهم عديم الجدوى .. وهم موزعون في وحدات صغيرة بين مناطق شاسعة متباعدة لا يصلهم بعضهم ببعض سبب . ونقل بعضهم الى قطاع غزة ايضاً . فهم ليسوا مجمعين مثلنا .. وأما الكتيبة الثالثة فهي معسكرة قرب الجدل في بربره منذ أول يونيو .. يقودهم ضابط مصري مخلص يحسن السياسة والقيادة .. يسمى أحمد عطية . كان يوصيهم اثناء الهدنة ألا يسلموا سلاحهم إذا طلبت منهم القيادة

ذلك بمناسبة الهدنة. وهذا ما حدث؛ فقد رفضوا أن يسلموا سلاحهم. وسلاحهم ايطالي كله .

وقد وجدت هؤلاء يستعدون للرحيل في نهاية هذا الشهر .. وقد علمنا فيما بعد أنهم رحلوا في اوائل اكتوبر ولم يعودوا للميدان. ومما هو جدير بالملاحظة ان الكتيبة الثانية والثالثة تابعتان لقيادة الجيش المصري مباشرة ..

## ٥

في طريق عودتي من غزة مررت بعراق سويدان يوم ٤٨/٩/١٣ ؛ ولا بد لي من التوقف هاهنا . وقد أخبرني الأصدقاء بأنهم يتوقعون شراً خطيراً من اليهود لما يحسون به من مجريات في مستعمرة نقبا . وفي طرف القرية كان الطريق المعبد مسدوداً . وقد شرعت السيارات تشق لها طريقاً آخر بين الحقول .. لماذا ؟ قيل لأن اليهود احتلوا قرية الكراتية المجاورة . وقد شاهدت الحرائق التي اشتعلت في الكراتية والدخان يغبر الفضاء الفسيح .. وكان الجيش المصري مرابطاً على مشارف القرية من جوانبها الثلاثة .. وكان للمنظر أثر مؤلم في نفسي ما ظننتني أنساه ...

وبعد ذلك بأربعة أيام قتل الصهاينة الكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة ؛ كان في القدس اليهودية في صحبة عضوين من لجنة الهدنة إذ تعرض اليهود لسيارته وقتلوه ، وقتلوا رفيقاً له ، وأبقوا على رفيقهما الثالث فلم يقتلوه لأنه أمريكي ..

## ٦

كان اليهود منذ هزيمتهم على جبل المكبر يقذفوننا كل يوم وكل ليلة برصاص كثير يضيع في الهواء هباء ولم يرد عليهم الليبيون إلا في النهار . وحين يشهدون شيئاً يتحرك يرسلون له رصاصة واحدة غير ان اليهودفي هذين الأسبوعين أوقفوا رصاصهم الضائع وعاد السكون يضرب أطنابه على الأفق . .

وبينما يحتوينا هذا السكون حول القدس . . كان اهالي فلسطين يحتشدون في كل مكان في هذا اليوم الأول من شهر اكتوبرفي طرقات غزة وميادينها ، احتفاء بانعقاد أول مجلس وطني يضم أبناء فلسطين، ويؤلفون أول حكومة باسم حكومة عموم فلسطين ، يتولى رئاستها حلمي باشا ، الذي علمناه مخلصاً غيوراً .

ونحن بلا شك مغتبطون بقيام الكيان الفلسطيني ، وعلى استعداد الآن لنخوض مغامرات جادة تحت العلم الفلسطيني. . ولكننا نخشى على هذه الحكومة . . ونخشى أن تثار خلافات تضر بفلسطين نفسها . . لأن حكومة الاردن لم ترحب الترحيب الصـــادق بالحكومة الجديدة ، رغم انهـــا أقيمت بناء على قـرار الجامعة العربية .

## ٧

مرت بعدها بضعة أيام ، وكانت قطع سحب اكتوبر بدأت تذرع الأفق . تمر بنا متئدة فوق الجبال . بعيداً حيناً . وتشق الجبال احياناً ، تلف قريتنـــا برداء من غيم كثيف ، يلف كل شيء : الاشجار والمنازل والاشخاص ، حتى يكاد

يتحول النهار الى جزء من الليـــل . ولكنه في الأكثر خفيف لطيف ، يمر من حولك بخاراً جميلاً . يزين قمم الجبال ببياضه الناصع ، وينطلق سحابـــة إثر سحابة . نحو الشرق . وفي الليل يشتد البرد ليلة بعد ليلة . . وحين تغرب الشمس ينحدر بعض رجالنا إلى تل واقع في منتصف المسافة بين شرفات والمـالحة . . نحرسه ليلاً وننسحب منه كل غدو ، قبيل شروق الشمس ؛ لأنـه منخفض عن مواقع العدو انخفاضاً كبيراً تنكشف فيه كل حركة في وضح النهـار . ونحن لا نزال نحرسه على هذا النحو منذ جاءت أول جماعة ليبية الى شرفات .

والرياح في هذه الليلة ليست شديدة ، ولكنها تلامس الوجوه ببرد فيه قليل من مس الثلج . وانحدر خليفة الزليتني وسعيد وأبوالقاسم وتبعهم آخرون يحملون على ظهورهم دثاراً هو الغطاء والفراش معاً ، وعلى اكتافهم بنادق وتتدلى من بعض أحزمتهم القنابل اليدوية . . انحدروا في صف متتابعين ، والرياح تداعب الوجوه بمس من بردها . ونظر خليفة الى الغرب يستطلع وجه الأفق فيما اذا كان ممطراً هذه الليلة .؟ ولكن السحب ليست كثيفة والشتاء لا يزال يطل متردداً حذراً . وقد تشتد الرياح ..

●

كل ثلاثة من الرجال في ثكنة تحدثوا حتى مضت فترة من الليل ، ونام اثنان من كل ثلاثة ، وظل الثالث يحدق في الافق المعتم ، ويتسمع بأذنه للرياح الباردة التي تشتد شيئاً فشيئاً ، ويشتد معها ما تحمل من برد . وبانقضاء أربع ساعات نام حراس وأعقبهم آخرون . . واستيقظ خليفة ودعك عينيه بظاهر كفه وهـــو جالس ، ونظر في ساعته على ضوء سيجارته وقال لرفيقه الحارس :

– لماذا لم توقظني ، لقد انقضت نوبتك منذ ساعة ونصف ؟

– لا أشعر بالنوم ، فقلت لنفسي : دعه يرتاح .

– ألم يمر ضابط العمل الليلي ؟

– لقد مر منذ ربع ساعة .

– هلم فنم ودعني أتولى الحراسة بقية نوبتي .

لقد اشتدت الرياح كثيراً ، والسحاب كثيف جداً ، ولا يبدو ان السماء ستمطر ..

واشتد البرد ايضاً .

– هل تريد سيجارة ؟

– لا ، ليس الآن .

ووقف خليفة مستنداً على حافة الثكنة وفوهة رشاشه تجاه الاعداء . وظل يتحدث مع رفيقه الذي يستعد للنوم ، حديثاً مقتضباً متقطعاً . ورفيقهما الثالث يتململ في فراشه . ثم نام وظل خليفة صامتاً يحد النظر فيما أمامه ولكنه لا يرى غير الظلام ... وانصت يتسمع ولا يسمع غير صفير الرياح على أغصان الأشجار ..

●

وثكنات اليهود صامتة على غير عهدها . وتساءل خليفة في نفسه : ترى ، لماذا هي صامتة الليلة ؟ ويتحرك ليشعر بالحركة حوله مادام رفيقاه لا يتحركان. وأقبل ضابط العمل للمرة الثالثة او الرابعة وانصرف ، واستيقظ الرفيق الثالث لنوبته . ولكنها لم تحن بعد ، فعاد يتململ في فراشه ، وعاد خليفة يتساءل: لم

خالف اليهود عادتهم .. ولم يضربوا رصاصة واحدة ؟ لا بد وان في الأمر سراً. وتحدث في هذا الشأن مع ضابط العمل ، وقال له الضابط : علينا بالحذر . لقد اوصيت زملاءك : افتحوا آذانكم رغم هذه الرياح ..

لقد انتهت فترة خليفة الآن . ولكنه يؤثر ان يستمر في الحراسة إلا اذا استيقظ سعيد لنوبته . ماذا ..؟ يخيل اليه انه يسمع حركة غير عادية ... أهو واهم ؟ هل يوقظ زميليه ؟ لا لا ، فهو ليس صغيراً يوقظهما ثم يتبيّنان أنه واهم ، والرجال الذين يحترمون رجولتهم لايخطئون، ولا يدعون احداً يهزؤباستنباطهم. ينصت .. ويصيخ .. ويضع أذنه على الأرض على حافة الشكنة .. ثم يرفعها .. وينصت..ثم يحدث نفسه :أرأيت، ألم أقل إنك واهم ؟ لا شيء هنالك،ولكن كن حذراً .

ومرت فترات ، ثم خال أنه سمع حركة هنالك، رغم هذه الرياح التي لاتدع له أن يتبيّن .. وتكررت . إنه يسمعها الآن بلا شك . لمز رفيقيه برجله فهبا واقفين كأنهما لم يكونا نائمين من قبل ، وأشار عليهما : هنالك في المنحدر .. يخيل إلي أنني أسمع حركة ، ليت هذا السحاب ينقشع .

ووقف الرجال الثلاثة .. وعادت الحركة غير واضحة .. وطير أحدهم الخبر فهبت ثكنات التل جميعها للضيوف المرتقبين ، وهبت شرفات بأكملها ، واستيقظ قائد المنطقة وبلغت المناطق المجاورة .

ثم بدا لهم أن ليس هنالك حركة غير عادية . ومن ذا الذي يتسلق هذا التل المرتفع في ثلث الليل الاخير ؟ واليهود لا يظنون ان بهذا التل احداً . وليس له قيمة استراتيجية إلا ان يكون طريقاً إلى احتلال شرفات نفسها .

ولكن ها هي الحركات الآن واضحة وقريبة. وانزاح الكابوس عن خليفة... كان يخشى ان يوصف بالتهور والتسرع ..

وترصدت الثكنات للعدو الذي لابد ان يكون قادماً في صف طويل ..او في اكثر من صف،الجندي يتبع الجندي، برشاشاتهم وبنادقهم وقنابلهم اليدوية .

يبحثون عن ثغرات يتسللون منها . وعلى اصحاب الثكنات ان يتماوتوا ليفاجئوا عدوهم او يعرضوا نفسهم للنسف بقنابل يدوية مسددة . وتماوتوا للغرضين معاً والصهاينة المغيرون كانوا ايضاً على غاية الحذر ، يتحركون بحسبان وميزان ، يتقدمهم ضابط اوروبي الأصل يحلم ان يجد غفلة مـــن الليبيين الذين اشتهروا بالصلابة والشدة ، ويمني نفسه بذبحهم ذبحاً بلا صوت ولا ضجيج . وتصور له نفسه المجزرة التي يقيمها والمنطقة التي يحتلها .

ولعله حسب ان المنطقة خاليـــة وهو الآن يزحف على بطنه يكاد يتعلق بذروة التل ومن ورائه أفراد يشير عليهم بيده ، لايبدوواضحاً رغم أنه لم يبق بينه وبين فوهة الرشاش إلا أمتار . والدنيا صامتـــة إلا من حركة الرياح في الأشجار وثكنات اليهود نائمة الليلة .

وتقدم الصهيوني نحو فوهة الرشاش وعلى صاحب الرشاش أن يمزقه ويمزق من خلفه بسرعة . وفجأة تنتفض روحه بجسده في الهواء انتفاضة الديك المذبوح ، ثم يتدحرج على جثة بعض جنده الذين يتجرعون غصص الفناء لتوهم .

عندئذ استيقظت ثكنات العدو على دوي الرصاص وادركت مغزاه فأسرعت تصب حِمَمَهـا على ثكنات العرب المواجهة . لقـــد فشلت الخطة إذن ... يا لهؤلاء الفدائيين الأنجاس.. دائماً يفسدون على اليهود مطامعهم منذ جاء قائدهم الجديد ...

وقبيل شروق الشمس كان خليفه وسعد يجرون جثة ضابط يهودي إلى شرفـــات للذكرى ، وأما جثث بقية جنده فقد ظلت هنالك تتنازعهـــا الحيوانات البرية على ما لليهود من تقديس لجيفهم . جئنا بسلاحهم فقط ، وبعض ما يحملون . وعادت مؤخرة صف الصهاينة الطويـــل ، سالمة أو جريحة لسنا ندري ..

وبين الحين والحين تدور معركة من هذا النوع ها هنا او في مكان آخر ،

ثم يرتدون وقد خسروا بعض جنودهم. ولم اذكر هذه المعركة إلا لأنني احتفظت منها بتذكار .. هذا شأن اليهود مع الفدائيين جميعهم ، وهذا شأنهم في المعارك الجادة، واما في المعارك التمثيلية المبطّنة فينتصرون فيها، ولكن الفدائيين دائماً جادون ..

## ٨

مضت بعدها ثلاث ليال او اربع ، حتى كانت ليلة ٨ / ١٠ وقد أوشك الليل أن ينتصف . وبينما السكون يسود المنطقة ، إذ انفجرت حولنا فجأة بضعة قنابل وإثرها جُنّ جنون الصهاينة ، وبدأوا يقذفوننا بأقصى ما يستطيعون من ذخيرة ملتهبة ، وقنابل متفجرة ، إنهم يشنون هجوماً جديداً حتماً في بعض الجهات ...

وهل تراهم يعودون لجبل المكبر . ؟ بل هم يركزون قنابلهم الليلية علينا . وبعد ساعة كان اليهود يقتحمون استحكامات إخواننا السودانيين في بيت صفافا ودنوا من الاستحكامات حتى خيل إليهم أن السودانيين سحقوا من كثرة ما ألقي عليهم من قنابل .

ولما وصل العدو إلى بعد أمتار قليلة من الثكنات أصلاهم أبناء السودان ناراً تركت عشرات منهم جثثاً ملقية ، وعادت بقيتهم القهقرى .. وما هي إلا ساعة أخرى حتى بدأوا هجوماً ثانياً .

وقف الليبيون الى جيرانهم، ولم يبق في شرفات إلا المرابطون في الثكنات. واشتد القتال .. وبينما كانت طلائع النجدات الليبية تقاتل الى جانب الاخوان السودانيين في الثكنات والسراديب المضروبة حول بيت صفافا، وكانت مؤخرتهم تتسلل الى مسالك متفادية المناطق المكشوفة لتيار الرصاص المتساقط على المنطقة

العربية ، اذ اصطدمت بالعدو وجهاً لوجه فيما بين بيت صفافا وشرفات . كانوا قد تسللوا خلال ثغرة صغيرة فيما بين القريتين العربيتين . ولم يتوغلوا بعيداً حين اصطدموا بالليبيين . ولم يتقهقر الصهاينة عن استحكامات العرب في هذه المرة بل ظلوا يثابرون على تقدمهم مستميتين متفانين . متأكدين ان العرب سيضطرون للانسحاب مكرهين هذه المرة . غير ان العرب عنيدون قد ركبوا السناكي في البنادق . استعدوا لقتال السلاح الأبيض ، وتقدموا على عدوهم في ثبات لولا ان الصهاينة يتراجعون . كل من تفانى منهم وبقي حيث هو ينال جزاءه وتساق روحه الى سقر ، وبئس المقر .

ودامت المعمعة الى الفجر .. وقبيل الفجر كانت مدافع الميدان المصرية من ذات ( خمسة ارطال ) المنصوبة في بيت جالا تلاحق فلول الصهاينة المتراجعين . وانسحب أعداء الله بُعَيْد الفجر ، وسحبوا من استطاعوا أن يسحبوه من قتلاهم . ثم عدنا إلى ثكناتنا بعد فجر يوم ٩ / ١٠ بجروح خفيفة .

كان قائدنا محمد سرور رستم في إجازة ليقضي عيد الأضحى مع أسرته في القاهرة . وهذه أول ليلة ينام فيها بعيداً عن شرفات ، وقد أناب عنه يوزباشي مصري يدعى أنور .. وأنور هذا هو الذي طلب من المدفعية أن تقصف الصهاينة قبيل الفجر . وقد وجه إليه اللوم فيما بعد لأنه كان يمكن التغلب على اليهود وصدّ هجومهم بدون إسراف وبدون حاجة الى المدفعية .. وهم على حق وبخاصة ونحن في حاجة الى الذخيرة . وقد امرنا للمرة الثالثة هذه الايام بالاقتصاد ما امكن .

وفي ذات اليوم كنا في السوق نشتري الضحايا ... وقضينا عيد الأضحي بين رصاص الاعداء الذي لا يكاد يسكن قليلاً حتى يعود من جديد ، ليل نهار .

## ٩

وعقب عيد الأضحى مباشرة ، في يوم ١٤ / ١٠ ، بدأ اليهود يشنون هجوماً عاماً من مستعمراتهم على الجيش المصري في عدة قطاعات ، ضاربين بالهدنة القائمة عرض الحائط . ومما هو جدير بالذكر أن الجيش المصري يحاصر مستعمرات كثيرة في الجنوب ، ومن شروط الهدنة اعطاء الصهاينة فرصة ، والسماح لهم بالمرور لتموين هذه المستعمرات ومدها بالطعام . واستغل اليهود هذه الفرصة فنقلوا الى مستعمراتهم كميات كبيرة من الطعام ، وهربوا معه كميات من السلاح أكبر .

ومع كل قافلة تنقل الطعام للصهاينة يمر عدد منهم يصحبون القافلة في الذهاب ولكنهم لا يعودون معها . وربما سحبوا معظم الرجال من الميدان الشمالي وخزنوهم مع الطعام والعتاد في مستعمرات الجنوب . الى أن جاء هذا اليوم الذي خرج فيه الأعداء المخزّنون من كل المستعمرات يهاجمون كل قطاعات المجدل وغزة وبئر السبع . وقد علموا من مخابراتهم أن ذخيرة المصريين اوشكت على النفاد .

وكان الجيش المصري يحاول ان يحتفظ بما بقي لديه من ذخيرة قليلة ، ويقتصد فيها اقتصاداً شديداً حتى في اعنف الحالات واشدها حرجاً ، ولذلك لجأت مصر الى مجلس الأمن تشتكي اسرائيل التي قوضت اركان الهدنة .

وهرع وسيط الأمم المتحدة وامر بوقف اطلاق النار . ولكن . . لن يأتمر اليهود بأمره ، وهم قد بدأوا هجومهم بتخطيط مدروس ؟ . . وفي

يوم ١٦ علمنا ان اليهود يتقدمون على الجيش المصري في معظم الجبهـــات .. ونحن هنا خاملون لا نقدم له اية مساعدة .

ثم اشتد هجوم الصهاينة وبلغ عنفوانه واليهود يتقدمون منتصرين والجيوش العربية ، واهمها الجيش العراقي ثم الأردني ، لا يحركون ساكناً لتخفيف الوطأة عن الجيش المصري ..

وقـــد سمعنا ان الخطوط التي يرابط فيها هذان الجيشان يخـــيم عليها سكون مطبق. وفي يوم ١٨ / ١٠ اشتد علينا اليهود في شرفـــات ، وضربونا برصاص كثير ، وأضافوا اليه في هذا اليوم قنابل كثيرة من مدافـــع المورتر. ونحن لم نردعليهم برصاصة واحدة .. ليس اقتصاداً في الذخيرة فحسب، بل وتجنباً للعبث ايضاً .

كانوا من قبل يقذفوننا برصاصهم ، ولكنه لم يبلغ من الشدة ما بلغ اليوم .. ومن فجر غد ١٩/١٠ سكن دوي قنابلهم وأزيز رصاصهم فجأة ، وساد السكون هذا اليوم كله لأول مرة منذ أسبوعين .. وهذا أمر مستغرب .

وكان القتال يجري على أشده في الجنوب بين الصهـاينة والجيش المصري ، وقد أصدر مجلس الأمن اليوم أمراً بإيقاف القتال .. ولكن اليهود لم يصغوا لأمره .

# دُخَانُ الحَطَبِ

# ١

وهنا في شرفات مضى النهار كله في سكون تام على غير ما ألفنا من أعدائنا، حتى جاء الليل وخلع على الكون من سكونه وجلابيبه الدامسة فنام كل شيء وسكن ، حتى هذه الجبـــال وحتى تلك النجوم المتلألئة ، الـنائمة على سرير السماء . وفجأة ، وبينا كل شيء طبيعي ، وبدون سبب ، زلزلت الأرض زلزالاً غير مألوف ، وتفجرت الآفاق بدوي الرشاشات تصب على مواقعنا جام حمها، والمدافع على غير هدى تدك من قريتنا التراب والأشجار وجلاميد الصخور . وانقلب الليل الساكن إلى بركان جُنَّ جنونه، يبرق بالويل ويرعد بالموت، وكنت في راحة تلك الليلة استيقظت من نومي على هدير البركان المتفجر .. وانتظرت أن يهدأ لأنام ولكنه استمر ولم يهدأ . كان الضرب قادماً من جهة الصهاينـــة وحدهم ، وجانبنا ساكت .

وظننت أن الليبيين انهزموا ، ولم يبق في القرية غيري طعماً لنيران اليهود.

وحاولت ان أطرد هذا الخاطر عن نفسي لولا أنه كان ملحاً ..

ولم أستطع النوم ، وساعد على ذلك أنني سمعت وقع أقـدام شخص يجري قريباً من حيث أنام . ولم أجد بداً من النهوض والجلوس في سريري ، مترقباً أن تهدأ النار فأنام ، أو أخرج أستطلع الحدث . وتلمست حشو بندقيتي فإذا هي مستعدة . وانتظرت ولكن يخيل إلي ان الضرب يزداد شدة كلما انتظرت .. فالأمر غير طبيعي ، ولا مناص من الخروج والاستفسار عما يحدث ..

وسألت .. ولا أحد يدري .. كلهم مثلي .. وكل ما في الأمر ان جانبنـا

ساكن ، لأنه لم يواجه شيئاً بعد .. ولما سرت تجاه مركز قيادة شرفات، كانت الأرض والاشجار والمباني تكاد تشتعل ناراً . كل شبر يمطر بوابل من الرصاص الملتهب . وهو يساقط من حولي ، ويئز منفلتاً جنب أذني ، ولا بد من الحذر ، واتقاء الرصاص بأي حاجز .. بينما القنابل تنهمر سيلاً جزافاً .. منثوراً في كل بقعة ، ترسل شظاياها المحمومة ، لتؤلف سحابة من مزيـــج الرصاص والصلب وجلاميد الصخر المتطايرة .

واشتد الهول ، والتهب الجو ، والتهبت النفوس وجفت الحـــلوق ، وشمر عزرائيل على ساقه .

ما الذي دهى اليهود ؟ لا بد أنهم يدبرون مكيدة طائشة يبتغون ان يشغلونا عنها . ما عساهـا تكون هذه المرة ؟

أتراهم ينوون الهجوم علينا ؟ كلا ، إنه انتحار لا يقدمون عليه .

أو تراهم وجدوا ثغرة بيننا وبين جيراننا ويشغلوننا ليتسللوا منها ؟ ولكن قائد العمل لهذه الليلة عاد لتوه من تفقد الثكنات على طولها . من بيت صفافا الى الجبل الغربي .

ما الذي دهاهم إذن ؟ سلوا أبناء السودان الرابضين عن يميننـــا : هل جن جنون اليهود عليكم ايضاً ؟ فقالوا : نعم .

سلوا أبناء اليمن الرابضين على سفح هذا الجبل الشامخ الذي تغرب الشمس خلفه كل عشية . ولكن أحداً لم يجب ، تليفون يغنّ وما من مجيب .

إبعثوا إليهم .. اذهب يا رجب مع بعض رجالك .. وتحروا ما خطبهم .. هيا أسرعوا ..

●

وانطلق ثلاثة رجال مغربين نحو مهابط الوادي يسرعون الخطى ، يسيرون على وجوههم منحني الظهور يحتمون بالأرض و يتلمسو ن المسايل والمنخفضات يتقون الرصاص بالحواجز والمرتفعات .. وظل بضعة رجال في ساحة القيادة صامتين ، تجيش نفوسهم بشجون التخمين واثقال الغموض... لا يقطع صمتهم إلا رد تحية على وافد متسائل من الجند الذين هم في راحة من العمل هذه الليلة ، ولم يستطيعوا النوم ، وسط هذا البركان الهادر .

ولم يطل الصمت فقد أنذر الجو بصفير قنبلة مدفع هاون في عليائها تؤم ساحة القيادة حيث يقف بعض الرجال الذين اندفعوا في كل اتجاه ، ينبطحون على بطونهم بعيداً عن مرماها لكي يخلو لها المكان ، لتستقر حيث كانوا ثم تنفجر وتتطاير شظاياها في الجو . وبعدها يعودون إلى موقفهم وكأن الأمر لايعنيهم ، اللهم إلا بعض تعليقات مقتضبة عما يكيد اليهود .

ربما دار هذا الحديث :

— لو دبروا مكيدتهم في صمت وهدوء لكان أنجح لهم .

— دأبهم الطيش والجزع .

— ليتنا نؤمر بالهجوم عليهم ...

وعاد الصمت ، وانتشرت النفوس بالحيرة ، وسيطر القلق على نفسي ، فلم أستطع صبراً على حال . كنت أجلس لأقف ، وأقف لأجلس ، وأمشي هنا ، ثم هنالك ، ثم أعود ، ولا أدري ماذا افعل ؟ أنظر تارة لعل رجباً ورفيقيه قد عادوا بما حدث للإخوة اليمنيين ، رغم ان الفترة التي مضت لا تكفي لقطع عشر الطريق . وخيلت إليّ أنها كانت دهراً طويلاً .

وتأملت حال الرجال . وجدت بعضهم على مثل حالي ، بين ذهاب وإياب ، وحركات مضطربة ، وقلق على المجهول . وما أشد حر نار القلق ! وما أقسى وأطول لحظاته .

أستطيع الآن ان أصمد لرصاص الأعداء ، ولكني لا أستطيع ان اصمد لوطأة القلق . وفي هذه الأثناء اصطدم سيل من الرصاص بجدار القيادة فوق رؤوسنا مباشرة، ولكن احداً لم يأبه لما كاد يصيبه، أو يصيب رفاقه . ولم يعد هنالك من يحفل بالحياة كثيراً ، أو يبالي بالموت .. فلم يبال بهذه القنابل التي تزأر وتمر عابرة ، أو تنفجر قريباً .. أو خلف هذا الجدار، او بهذا الرصاص الذي ينحدر إليك من كل اتجاه ، من وراء الطوابي والجدران ، وبين الأشجار .. وكان يمكن ان يحصد الرؤوس مثل ما تراه يحصد أغصان الأشجار ..

والموت في أحوال الهدوء يخيفك ، غير انه اذا اشتد البلاء وعزمت النفس على خوضه ، لم يعد يخيفك كثيراً ، لا الموت ، ولا النار الملتهبة بالصلب والرصاص ، ولا أي مصير ، كائناً ما كان ، وإنما تتقي الرصاص والقنابل ابتغاء النصر ، وابتغاء الحياة للاحساس بالحياة .

●

اسألوا الثكنات ، لعل بعضهم يحس بأثر لليهود .؟ اسألوا القادمين من بيت لحم ، هل وجدوا في طريقهم ما يريب ؟

لا شيء، لا شيء. هؤلاء قد أسرعوا للعودة لما سمعوا دوي السلاح، واولئك رابضون في ثكناتهم بقلب قوي ثابت يقظ ينبض بشدة ، وسمع مرهف ، وعين بصيرة ، وعزيمة متحفزة للانقضاض ، وسلاح ساكن ، ساكن مرهف مشرئب العنق يدير رأسه وادعاً ذات اليمين وذات الشمال ، كأفعوان يدير رأسه من جحر ضيق متئداً بالسم الزعاف .

والمنطقة كلها ساكنة ، كأن الليبيين قد رحلوا عنها ، أو فروا منها مذعورين . وسكونها يغري بالهجوم عليها لو كانت هذه أول تجربة . ولكن لا

يلدغ اليهودي من جحر عشرين مرة .

ولماذا لا يضيع الليبيون ذخيرتهم هدراً ، كبقية الناس ، ويردون على اليهود الذين يصبون وادياً من الجحيم على ارض القرية ومنازلها ؟ لست ادري انهم أمكر من ثعالب باديتهم .

اسألوا هنا .. واسألوا هنالك .. والسودانيون يسألون ايضاً : هل قتل احد ؟ هل جرح أحد ؟ لا لا ، لا شيء . فقط أطنان من الذخيرة الأميريكية والانجليزية جعلت المنطقة بركاناً يقذف بحممه ولكنه عجيج بلا طحن .

والرجال الذين يتناوبون راحتهم الليلة قد تجمع الآن شملهم وكثر حول القيادة ، ها هنا تحت هذا الجدار وهنالك وراء القيادة ، واولئك أمام المطبخ . وبعضهم أخذ مكاناً إضافياً في الثكنات .. والقلق مسيطر ، والانتظار ممل .

●

ونحن هنا في سقيفة القيادة سكوت ، واولئك خارجها يهمسون .. وجماعة تحت جدار السور هنالك بعيداً يتضاحكون . وربما علق بعض الناس قائلاً : أهذا وقت للضحك ؟ فقال العم جبريل : « متى وقت الضحك اذن ؟ هذا خير أوقاته ، هذا دليل الشجاعة والرجولة . يعجبني الرجال الذين لا يبالون » .

والعم جبريل هذا من جند عمر المختار ، خاض بعض معارك الجبل الأخضر وقاده بعد ذلك الايطاليون ليحارب في الحبشة ، ثم قادوه قسراً للحرب العالمية الثانية . يحارب مع الطليان ثم تطوع رغبة يحارب ضد الطليان ، حنكته الحروب . وعلق سليم موسى على قول عمي جبريل قائلاً : وأنا يعجبني الرجال الذين لا يبتسمون للشدائد ، بل الرجال الذين يضحكون بملء قلوبهم حين ينزل البلاء ، ويفتقد الرجاء .

ثم تابع سليم موسى قائلاً : حضرت مرة معركة في زوارة بين أسرتين كبيرتين ، وكانت المعركة بالهراوي والفئوس اختلط فيها الحابل بالنابل بين قتيل وجريح ، والنساء يصرخن والرجال يتزايدون . وكان بين المتقاتلين رجل اسود البشرة بيده هراوة يضرب ويضحك غير مبال بالموت . لا زلت كلما اشتد الأمر اتذكره..تتراءى لي اسنانه البيضاء في سواد وجهه دليلا على الشجاعة الحقة .. وكان ..

ولم أكن استمع للقصة التي يرويها سليم عن الرجل الأسمر باعجاب مثل اعجابه ، او حتى بكامل وعيي . ولم يوقف هو حديثه حين فرّ اولئك المتضاحكون من تحت السور فزعين من قنبلة هاون يزف زفيفها هاوية تجاههم. وانفجرت على ركن الجدار فأسقطت منه بعض الأحجار ،وانفجروا هم ايضاً ضاحكين وهم لا يزالون مطروحين على الأرض اتقاء لشظايا القنبلة .

ولم أنتبه لبقية قصة سليم، وغاظني ضحكهم في الوقت الذي جعلني أستغرب لم يضحكون على هذه الصورة ؟! بينما أعصابي تشتد وتتصلب ، ونبضات قلبي تعنف وتسرع ، وحلقي يجف ويتيبس، لا يرطبه الماء مهما نهلت ..وقد وردت صنبوره بضع مرات خلال سويعة . ولم يهدىء وعظ العم جبريل ولا قصة سليم من توتري . لا بد إنني خائف .

نعم إنني خائف بلا شك .. ولكن ممّ أنا خائف ؟ أمن الموت ؟ أم من الهزيمة ؟ أم من المصير الغامض ؟ خائف منها كلها . ولكنه الخوف الذي يسبق المواجهة ، وأعتقد أنني لست الخائف الوحيد ، لا بد ان هنالك غيري خائف ايضاً،ومضطرب حتى يواجه عدوه...ويسري عن النفس أن يكون لها بين القوم شبيه .

وازدادت القنابل الدافقة في غلوائها ، واشتد السيل المحموم في عنفه ، ولكم أتمنى لو أعطيت هدوء البال مثل العم جبريل أو أولئك المتضاحكين ، ولكن

أعصابي كانت تتجاوب شدة وعنفاً تبعاً لشدة المدافع وعنفها . وقـــد مضت ساعة أو بعض الساعة منذ أن ذهب رجب ورفيقاه لاستطلاع أخبار اليمنيين ولن يعودوا إلا بعد حين قد يطول .. وطال الانتظار في نظرنا .

## ٢

وقد جاء النبأ الآن ، وقبل أن يعود به الرجال . وسادت لحظة رهيبة مـن الصمت والحيرة والتوجس ، وبدا القلق حق على المتضاحكين . ما هـــذا .. غريب .. لقد انجابت الغاشية الآن .. سيل من طلقات مـــدفع رشاش خلف جبهة دفاع اليمنيين ، على قمة الجبل الشامخ .. صـدى الطلقات يترامى الينـا واضحاً ، مختلطاً بدوي السلاح الهادر ..

ووجه الجميع سمعهم نحو الجبل الذي يقع خلف اليمنيين ومجانباً لظهورنا . وفي هذه المرة كان الخبر يقيناً : طلقات متلاحقة سريعة يترامى صداها في جوف الوادي الذي يحجز بيننـــا وبينهم ويترامى إلينـا الرصاص الطائش أيضاً .

قال قائل :

— ما الذي حدث ؟

ودار لغط كثير :

— هل اليهود تسللوا خلف اليمنيين ؟

— لا بد ؛ ألا تسمعون ، أصغوا .. اصغوا .

— إنهم يضربون تهويشاً ، يظنون أن الجبل عامر بالجند ولا أحـــد يرد عليهم .

– ولكن من أين تسللوا .

– يا جماعة ، من أنبأكم بأن ما نسمعه هو سلاح اليهود لعله ...

– لعله ماذا ؟ هل أنت متفائل ؟ لماذا إذن يصبون علينا قنابلهم ورصاصهم بهذا الشكل ؟

– دعونا نتدبر ماذا نفعل ؟ كيف نواجههم ؟ يجب أن نطردهم الليلة قبل أن يبزغ نور الفجر لأن هذا الجبل يسيطر علينا ، ويمكن أن يندفع منـــه اليهود لاحتلال بيت لحم والمناطق التي تقع وراءنا ...

ولكن نخشى أن يكون اليهود قد احتلوا بيت لحم فعلاً وأصبحنا محاصرين الآن .

وأثناء اختلاط الرأي هذا حضر رجب ورفيقاه ونحو خمسة عشر من اليمنيين وقد التقوا بهم مقبلين علينا لأنهم كانوا يتبعون قيادتنا ومجموعهم خمسة وعشرون رجلاً وتركوا وراءهم عشرة رجال في ثكناتهم التي تقع في سفح الجبل الذي احتل اليهود ظهره .

– ما الخبر أيها الإخوة ؟

فقالوا : ما شعرنا إلا واليهود يصبون إلينا النار من فوقنا من قمة الجبل . وشككنا إن كانوا يهوداً أو لا . وبعثنا طلائع لنا أكدت أنهم يهود ، واشتبكت معهم ، وحاولنا أن نسترد الجبل فلم نجد إلى ذلك سبيلاً ، وقد تسللوا وراءنا من الوادي الواقع في الغرب منـا ولم يشعر بهم أحد ، ولمـا حاولنا الاتصال بالمصريين المجاورين لنا وجدنا أسلاك التليفون قطعت .

●

ويحك أيها الجبل الأشم، لقد كنت في النهار بأيدينا وأمسيت بالليل لأعدائنا كما ضاعت فلسطين وآلت اليوم لغيرنا ، ولا ذنب عليك إن فرطنا ، ولكن لا خوف عليك ، فإن بجوارك قوماً لا يضام لديهم جار . وكأني بهم يقتحمون النار والدمـــار ويستلون السلاح الأبيض ، أنت أو الموت وأنـــا أعرَفُ بقوم بلادي .

مشاعر كثيرة مثل هذه تجول في نفسي زال عنها خوف الموت، واستفحل فيها خوف الهزيمة وخوف ضياع شبر من أرض آبائي ، وخوف السمعة السيئة لقومي في ليبيا ، وهم يحسبون أننا من أبناء المليون الذين دمروا إرادة الأربعين مليونـاً حين جاءوهم من وراء البحر ، فكيف نخيب .. ؟

إننا سنتحسر ونتحسر على خيبتنا إن لم نقتحمه هذه الليلة .. وقبـــل أن يبزغ الفجر بنوره ..

●

لقد تهيبت الأحداث قبل أن ينكشف لنـــا سير الامور .. ولكني الآن لم أعد أتهيب على أي جنب أقتل أو إلى أي حال أصير . وإنما الامر الذي لا أطيقه هو أن نصبح وقد حاصرنا اليهود . وأخطر من ذلك كله أن نضيع سمعة بلادنا وقومنا ، وأن نكون أطفالاً جبناء في جبال فلسطين ، بينما ضرب آباؤنا المثل في الشجاعـــة . بئس الخلف نحن إن ترددنا او تهيبنـــا ، وللموت اهون من الهزيمـة ..

هذا الخاطر جعلني ألتهب ، ودفع في اعصابي بحرارة لا تطاق .

لا اقبل بأي ثمن احتلال هذا الجبل... ومساحته ثلاثة اضعاف مساحة شرفات وهو شامخ في علو شاهق. وقريتنا تقع تحت إبطه ، يحتضنها من غربها وجنوبها، ومنخفضة عنه انخفاضاً يسهل معه اصطياد من يتحرك فيها على ضوء النهار . ولكأنني

باليهود يحاصروننا ثم يقتنصوننا اقتناصاً اذا تركناهم الى الفجر .

وكان قائدنا غائباً في إجازته بالقاهرة ولذلك دار بيننا كلام ليس بالقليل الى ان انتهى دور التشاور إلى الاوامر .

●

هلموا أيها الرجال جميعكم الى القيادة ، ولا يبق في الثكنات إلا رجل لكل ثكنة وهو لها خير الأكفاء .

وجيء بمدافع الهاون لتسد الثغرة التي تسلل منها اليهود لقطع صلاتهم بالنجدات . وانقسم الرجال إلى ثلاثة : ميمنة تنحدر في تطهير الوادي ثم تصعد سفح الجبل حتى تعلوه ، وقلب يواجه اليهود في وجوههم على ظهر الجبل الفسيح ، وميسرة تصعد الجبل من الجانب الغربي حتى تعلوه ، ولا بد من استعلاء الجبل بأي ثمن كان .

وكان سلاح اليهود تشتد وطأته على أرض القرية حين كانت مدافع الهاون تنقل إلى ساحة منخفضة لتوجه من هنالك .. من بين الكروم وأشجار التين ولتشعل بعد هنيهة معبر اليهود ناراً .

والرجال ينسلون فرادى في صف طويل ، أوله رأس الميسرة وآخره ذيل الميمنة . وبين الرجل والرجل فسحة صغيرة تزداد اتساعاً حول الجبل وتضيق في التصعيد اليه ..

●

ليل حالك ، وأحجار وصخور كبيرة ، وعدو راصد ، وأنت تغامر واقفاً

على طولك ، ولا تدري أين يتربص بك الموت ، وتحت أي حجر يترصدك سلاح عدو غدار . تتوجس خيفة عند كل عقبة ، ووراء كل صخرة ، وتتحرك بحذر . وقد كانت قسمتي في الميمنة ، التي عليها أن تصعد الجبل من منحدره الشرقي ، وليس أشق على المحارب من أن يهاجم من منحدر شديد الانحدار ، ويصعد جبلاً يتربع العدو على ذروته .

إنك معرض مكشوف ، والعدو متسلط مكنون . وقد تلمس صخرة أو تعثر بحجر فيتدحرج بعيداً هنالك إلى هاوية الوادي يفرقع ويقرقع محدثاً دوياً في سكون الوادي مخيفاً . ينحدر مع مهوى الجبل ، وتتبعه المشاعر مشفقة . كم يتمنى المرء أن يتدارك هذا الدوي .. ولا تستقر النفس حتى يعود صدى مستقره في جوف الوادي ، ولا يطمئن القلب لاحتمال أن يكون قد سمعه العدو وفي ذلك الفناء . ولو كان الفناء لحدث الضجيج وحده لهان الفناء ، ولكنه فناء الرفاق .

والرفاق هنا أعز شيء في الوجود ، أفديهم بحياتي ، وأفديهم بحبي ، وأفديهم بأمي وأبي ، لو تسنى لي أن أسكت دوي صخرة متهاوية ولو دفعت حياتي ثمناً لصمتها . ولذا نتسلق الجبل بحذر ورفق ، نمشي على أربع متعلقين بصخوره الشائخة وأخاديده الحادة .. وبعزيمة فيها إرادة القدر ، وقلب يخفق برهبة متغلغلة ، ونفس لاهثة جافة ملتهبة ، لا يرطبها ماء مهما شربت ..

ولم يبق من الجبل إلا ثلثه ، وعلينا أن ننبطح على الارض ونزحف بقيته على بطوننا ، نقتحم الحجارة والأشواك حتى نبلغ ذروته . وكان إخواننا في الميسرة قد تسلقوا من الجبل ثلثيه أيضاً ، وإخواننا في الصدارة قد تسلقوه وتقدموا على ظهره نحو مائة متر ولم يصادفهم أثر لليهود .

وكان الضرب الشديد على القرية في شرفات قد فتر ، والمواصلات باللاسلكي

بيننا في الجبهات الثلاث وبين القيادة في شرفات مستمرة . في استفسار. وفجأة توقفت نبضات قلبي وسكنت أعضائي متجمدة ودفنت رأسي خلف حجر غير كبير ، لأني سمعت صوت حجر هنالك يتدحرج بفعل بعض الرفاق . وبـدا لي أن له دوياً يرتجف له جانب الجبل . وكان الرفاق على مثل حـــالي .. سكنوا يتابعون بآذانهم صوت الحجر وهو يتدحرج ، يصادف مدرجاً فنظن أنه سكن ولا يفتأ حتى يستأنف الفرقعة على الصخور . يشتد تارة ويتدحرج الهوينا أخرى ، والروح قد بلغت الحلقوم ..

حجر يفسد خطة ويرهق أرواحاً .. اللهم أوقف هذا الحجر ، اللهم استر.. اللهم صمّ آذان أعدائنا حتى لا يسمعوه . ولاحقناه بقلوبنا الفزعة حتى استقر هنالك في بطن الوادي ، ثم سكن فمات صـــداه .. ولعل العدو سمعه ولعله لم يسمعه ، ولعله اشتبه أنه تدحرج بفعل حيوان وحشي .. ؟ وأمسكنا مستميتين جامدين جمود الأحجار حتى نخيل للمشتبهين أن ليس هاهنـا بشر . ولم نستأنف الزحف إلا بعد وقت طويل وفي رفق وتؤدة متناهية .

ومضت ساعة وبعض الساعة ونحن نتسلق .

●

ومضى معظم الليل حين أدركنا حافة الجبل . وجاء اللاسلكي بأنباء اعتلاء الميسرة لظهر الجبل أيضاً . لقد تنفسنا الصعداء ، وانقشع نصف الهموم إذ أصبحنا جميعاً على ظهر الجبل مثل عدونا .. وذلك كسب عظيم .. بل بتنا نحيط به من كل جانب .. إنه نصف النصر .. لقد احتللنا مركزاً يحمي وجودنا على قدم المساواة مع عدونا ، وسندافع عنه بما نملك وما لا نملك . وكان اليهود يستطيعون السيطرة والاحتلال لو لم يتهيبوا ولم يترددوا .. أما الآن فقد أصبحوا في وضع قد يضيع [illegible] عليهم الحلم الجميل .

# ٣

كانت الأحوال في شرفات قد هدأت وسكنت وحسب اليهود أننا رحلنا عنها فعلاً ، أو أننا غرقى في نوم عميق لم نشعر بدبيبهم الى الجبل الخطـــير الذي يتهددنا بالتطويق ، ويتهدد قوات عربية أخرى بالحصار ، ويتهدد مدينة بيت لحم بالاستسلام . وكانت خطتنا أن نبادر العدو مفاجأة ، وان نطبق عليـــه الكماشة ونكتسحه اكتساحاً مباغتاً .

وظلت الجبهات الثلاث تزحف ، والكماشة تضيق ، والمســافة بين الرجال تتقارب ، ونحن أهل الميمنة أول من احس بوجود اليهود ، نسمع حركة كامنة .. كامنة في الأرض ، حديد يحفر في الأرض يبني المكامن والثكنات .. ويصنع الحياة لرواد اسرائيل يهتبلون منا فرصة ليصبحوا ظاهرين علينا ، يبذلون الجهد والعرق في ظلمات الليل وهم مسرورون بلا شك لأننا نائمون هنـــالك في شرفات.

كنت تسمع الحديد يعمل في جَرْف التربـــة ولكنك لا تسمع بشراً يلْغُون كأنها الجن تعمل ولا تَنْبس .. وعلينا معشر الميمنة أن ندنو منهم إلى اقرب ما يمكن ان ندنو . ثم نتربص في المكان الحصين وراء الصخور والأحجار والمرتفعات وننتظر .. يحتمي الرجـــل بأي شيء .. ينتظر في صمت مميت لا تسمع منه إلا وجيب القلوب . حتى تتمكن الجبهتان الأخريان من الزحف إلى اقرب مكان من العدو حصين .. وعندها نخبر المدافع الرابضة بين اوراق التين التي يبللها الندى في هذا الثلث الاخير من الليل .

●

وظللت في مكمني صامتاً وقتاً ليس بالقصير لم تحدثني فيه نفسي لأن قلبي كان يخفق بشدة ، حتى لأحس نبضه على أضالعي كأنه مطرقة . ولم أحدث فيه نفسي غير حديث قصير : إذ تصورت المنية قد حضرت ، ولم تبق أمامي غير لحظات أودع فيها كل عزيز غال ..

تراءى لي اهلي ومسقط رأسي .. انهم نائمون الآن ومسقط رأسي تاجوراء نائمة تحت غابات النخيل وأمواج البحر تهدهد شواطئها في رفق ونسائمه تمايد الرمان والبرتقال ..

غداً حين تشرق الشمس وتمور بلادي منتعشة بحياة يوم جديد ، ويذهب لداتي يمرحون مع الحياة ، أكون انا قد ودعت الحياة الى العالم الخالد .. رنوت إلى الغرب حيث ترقد بلادي مشفقاً . وداعاً يا مرتع الطفولة ومراح الشباب .. لن أراك بعد الليلة ، وداعاً ..

وداعاً يا أبوي العزيزين .. وداعاً يا وطني .. استودعتكم رباً رحيماً . ها هنا مشهدي .. ها هنا سأرقد في وطني مع النبيين والشهداء ..

أيتها الشمس النائمة ، هذه آخر ليلة في حياتي .. حين تشرقين بيوم جديد أحملي روحي وتحياتي الى نخيل العراق ونخيل الدار البيضاء ولا تنسين نخيل تاجوراء ..

## ٤

هذا هو كل الحديث . ورغم انه كان حزيناً .. لكنه كان قدسياً تحمله في نفسي هالة من قداسة هذه الأرض وجلال الفداء ، وطهارة الذكرى ..

وظل قلبي ينتظر اللحظات الرهيبة ، وجبيني ينضح عرقاً ، ويكاد الدم يطفر من وجنتي رغم هذا الريح المثلوج الذي يصفع وجوهنا على قنة هـــذا الجبل .

ثم لا أدري ما بيني وبين نفسي ، لأن البركان انفجر طفرة واحدة .. المدافع تشعل ثغرة التسلل ناراً يترامى الينا صداها مدلاً يجبروته .. ورشاشاتنا تهدر وتحصد الذين يحفرون قبورهم بحديدهم وأيديهم .. وتذيق سكرات الموت للذين جاؤوا يذوقون نشوة النصر ...

الآن ذوقوا طعم الموت .. كيف تجدونه من أيدي الليبيين ؟ إنه أقسى من صحرائهم . يا لليبيين من ثعالب ! ويا لليهود من مغرورين !

وعلا صياحهم بعد أن كانوا يعملون في صمت . ولم نمهلهم ليتحصنوا . كنا نقفز نحوهم من خلف حجر إلى حجر . وبعد لحظة استيقظ الصهاينة في قرية المالحة ، واشتدوا يقذفون شرفات بأعنف ما يملكون .. ويقصفوننا أيضاً .غير أن قنابلهم كانت تساقط بعيداً خلفنا ، ولم يتمكن اليهود المواجهون لنا مـــن المقاومة إلا بعد حين . ولكنها كانت مقاومة المتقهقر ، وما هي إلا ساعة حتى كنا نحتل مكامنهم وثكناتهم التي حفروها إلى جانب أشلائهم ومخلفاتهم.

وظلوا يقاومون مقاومة اليائس المهزوم ، ولكنهم لم يكونوا في الحقيقة يائسين ولا مهزومين ، بل كروا علينا يبتغون استرداد ثكناتهم الحصينة .

وهيهات لما يرومون ...

تقدموا مستبسلين علّهم يضطروننا للتقهقر .. خاب ظنهم . يحسبون أنهم أشد منّا بأساً . ولم يبق بيننا وبينهم مرمى حجر . فطفق أوَارُ القنابل اليدوية يقْدَح ووهجها يُومِض .. واشتد الصراع ، ثم تقهقروا قليلاً وثبتوا كامنين ...

●

لا بد لنا ان نطهر الأرض .. لا بد لنا ان نتقـــدم .. أن نجازف .. ان نغامر ..

ويتقدم منا من تواتيه الحماية أو الموقف الحصين . ثم يتلوه من هو دونـــه ويتلوه الآخرون . ورفض الصهاينة أن يتقهقروا أمام موجة الهجوم هذه .. ولابد لنا من تطهير الارض منهم ..

وركبت الأسنة في البنادق لخوض الموت الأحمر جهاراً لولا ان سيلاً آخر من القنابل اليدوية روعهم فتزحزحوا مسافة ولكنها قصيرة .. ثم كروا علينا كرة أخرى يعاودون الهجوم، ولما لم يفلحوا استماتوا وتحصنوا ، يـذودون عن مواطىء أقدامهم ويتشبثون بها..

وطال الكر والفر وأشرف الليل على نهايته ، وأعداء الله لا يزالون يحتلون من الجبل مكاناً حصيناً .. ولم تبق أمامنا إلا خطة أخـــيرة هي ان نحاصرهم ونطمئن ألا مدد يصل إليهم . ثم إن هم انسحبوا بعدها كفونا أمر انفسهـم ، وان استماتوا نبيدهم ولو كلفنا ذلك الأرواح الكثيرة .

ومضت فترة ، ثم لم يشعروا إلا وهم يضربون من خلفهـم ومن وجوههم . وفطنوا الى اننا نهدف لتطويقهم ، ولم يعد لهم من الانسحـــاب بد .. وظلوا يقاتلوننا حتى سحبوا بعض قتـلاهم الذين وصلت اليهم أيديهـم ، وربطوهم بالحبال وشدوهم بالبغال ، ودفعوا البغال على وجوهها منحدرة من حيث أتت ..

●

وكان بصيص الفجر يتسلل رويداً رويداً ، معلنـــاً قدوم النهار حين كنا نتفقد أشلاءهم وجيفهم، وآثارهم ومذابحهم المضرجة بالدماء .. وعددنا مساقط موتاهم فإذا هم نحو المئتين.. وعددنا مكامنهم وثكناتهم التي أعدوها لأنفسهم، فإذا هم يزيدون على ألف رجل ... وتتبعنا آثار مساحب جيفهم التي جرتها البغال فاذا عددهم يربو عن الأربعة. وبعض البغال أطاح بها الرصاص.. وبعضها ظل شريداً في جوف الوادي ، وبغال أخرى ذهبت تبحث عن الكلإ في خط النار وهي لا تزال تسحب من ورائها جثث اليهود ، فلا اليهود يصلون إليها ولا العرب يطمعون فيها ، وقد حاول بعض الصهاينة أن يتسللوا ليقودوا بعضها فكانت لهم ثكنات شرفات بالمرصاد .

وجلسنا بعد ذلك على الارض ننتشي بالنصر ، ونتفقد رفاقنـــا .. لم نفقد أحداً .. والجرحى منا دون العشرة وجروح بعضهم طفيفة لا تذكر .. وبعـد حين ونحن جلوس هنالك نثرثر عن المعركة ، اذ انطلقت مدافع قيادة بيت لحم تدك الثغرة التي عبر منها الصهاينة ، وكاد بعضها يصيبنا وكانوا على حق لأنهم لم يخبروا بالنصر .

## ٥

عاد الإخوة اليمنيون إلى ثكناتهم وانثنينا نحن إلى قريتنا نمالى بنشوة النصر، منهكي الأبدان ، منتشي القلوب . وانحدرنا مع الجبل الذي تسلقناه البارحة ، وتسلقه معنا التاريخ ، انحدرنا نطأ أرضنا في اعتزاز وثقـــة . نطاول المجد ، ونناجي الدهر ، ونفاخر التاريخ . كان هذا شعوري ، ولا بد أنه كان شعور كثيرين غيري، لأنهم كانوا جميعاً يتباهون ويثرثرون عن بطولتهم البارحة. انظر إلى هذا يجذبني من كتفي أن أصغي إليه بالإكراه :

– ها ، يا سي محمد ، حسبناها آخر ليلة في حياتنا. كنا زماننا جثثاً هامدة لو وجدت رجالاً ، ولكن العربية لا تخيب .

لقد اقتحمت ثكنات اليهود اقتحاماً غير مبـالٍ بشيء إلا شيء واحد ، وهو رد اليهود على أعقابهم .. ولو كنت معي ..

لم استمع لبقية قوله لأن هنالك كثيرين يتحدثون . ولمـا لحقت في الطريق بالعم جبريل ضحكت .. ضحكت ملء فؤادي لمـــا تذكرت الإخوة الذين يتضاحكون البارحة . وقال لي العم جـبريل : مالك تضحك ؟ قلت : بعض الناس يضحكون في نهاية المعركة !..

فقال : الذين يضحكون في بدايتها هم فرسانها وهم لظاها المحرق ..

قلت : صدقت ؛ سأعوّد نفسي أن اضحك في البـداية ، بعد السلامة .. هذه المرة .

وكان قرن الشمس يبدو من وراء الأفـق الصخري متئداً يضحك أيضاً بملء نوره ، حين عدنا إلى شرفات أسراباً بين البساتين الندية ، وبنادق الرجال على ظهورهم تلامس أغصان الاشجار المدلاة تميد بها نسائم الصبـح الرطيب .

●

ثم انصرفوا جماعات على عادة قومنا ، وارتفع بين كل جماعة دخان الحطب مزهواً يطاول الشمس . وارتفعت أباريق الشاي فوق الأثافي ، تغلي وتغلي حتى يسود لونها ، والرجال حولها يحترون أحداث الساعات الرهيبة .

ذلك هو الأسلوب المحبب لقومي . أما أنا فقـد أويت إلى سرير بأفكار

مرهقة أقول : لا يزال لي بين الأحياء أجل ، فقد ودعت الحياة وأبت أن تودعني ؛ قد كتب لي عمر جديد . ووجدت نفسي قبل أن يغلبني النوم .. عاهدتها ، عاهدتها أن أتبرع بهذا العمر الجديد رخيصاً في أول مناسبة.

ولم أَعِ بعد ذلك ما حدث حتى كانت الشمس تنسحب خلف الجبل اليماني منحدرة نحو الأفق الغربي تلقي بظلال الجبال في الوديان ، وظلال الروابي في الوهاد ، وظلال الاشجار تحلم في أبدية الخلود. ولما استيقظت لم أستوعب الأشياء لأول وَهْلة ، وكأنني ولدت الساعة . ولدت بعد ألف سنة .. ورويداً بدأت أعي ما حدث ، آه إنه لشيء جميل ما حدث البارحة . ليتني لم أنم كل هذا الوقت ..

وها هي الشمس مغربة قد تجاوزت بلادي ؛ اذكروا ، أهل بلادي ، ما صنع أبناؤكم من بطولة في شرفات .. إنني جائع . دعني أذهب للمطبخ . هذا صحني وملعقتي . آه ما أجمل الدنيا !..

وانطلقت أخطو في الدرب المترب المتعرج وقد كسته أوراق الخريف من شجر التين وعرائش الكروم المتساقط من وراء الأسوار ، وشمس الخريف الوادعة تلقي بنقاب ارجواني شفاف يتألق على الأفق بين نثار المزن .

تجمل أمسية من أماسي النصر في يوم يولد فيه المرء من جديد ويبعث من موت أكيد .

بخٍ بخٍ لجبان يهاب الموت خشية الغياب عن معركة قابلة ، وويح اليهود... ما غرهم بنا ؟...

●

# ٦

وجدت حول المطبخ رجالاً يتحدثون . جلست بينهم ألتهم طعام الجندي المصري: خبزاً وعدساً. ومضت فترة لم ينبس فيها أحد غير همهمة أولئك المرتكنين إلى الجدار يلعبون الشيزي ، لعبة الكسل والخمول . وماذا يفعل الجندي إذا قصفت جناحاه، ووضع في قفص لا يعدوه ، غير تمضية الوقت في الشيزي ...

ذلك متكىء على جنبه وبندقيته تحته . وهذا جثا على ركبتيه في صبر أيوب ويده على بندقيته ، وذاك واقف بينما يتابع اللعب عاري الرأس مفكوك الأزرار وبندقيته واقفة إلى جانبه ، أما أنا فقد خلعت نعلي ومددت رجلي أتناول العدس .

ما لنا وللنظام .. وأخيراً نطق أحدهم :

= ... إذن لا يزال القتال على أشده في الجنوب .

– اليهود لا يريدون أن يذعنوا لقرار مجلس الأمن .

– ولِمَ يذعنون وهم المنتصرون ؟ ولكن الذي نعجب له : لماذا لا تقوم الجيوش العربية الاخرى بضرب الصهاينة لمساعدة الجيش المصري ؟

– سمعنا ان كتيبة من الجيش الأردني وصلت هذا المساء إلى بيت لحم، وربما سيتجه بعضهم الى الخليل .

– أي نعم، رأيتهم بنفسي، وسمعت أنهم جاءوا للقتال مع الجيش المصري. ولكن عددهم قليل ؛ نحو ٣٥٠ رجلاً فقط ..

جرى هذا الحديث بين لاعبي الشيزي .. ولم أصدق ان الجيش الاردني جاء حقاً لنجدة الجيش المصري . طالما أن مصر تذهب في تأكيد حكومة عموم

فلسطين مذهباً بعيداً ،ولكني متفائل على أي حال ... وأتمنى أن يوفق الله بين الإخوة ..

وأقبل الليل والجنود يتحدثون عن قدوم الجيش الاردني متفائلين ...

●

وتابع الجنود حديثهم :

– من منكم سمع الإذاعة المصرية ...

– كلنا سمعناها .. أخبرت أن اليهود حاصروا الليبيين وفك الحصار عنهم بمجهود جبار .. ولم تذكر الحقيقة .

# بئر السَّبع والمالكيّة

# ١

ومن غد في ٢١ أكتوبر انتظرنا أن يزورنا من القيادة أحد ، ليطلع كيف دارت المعركة ، ويرى بعينه المنطقة التي تسلل منهـــا اليهود أو حتى يطلع على خطوط النار وترتيبها ووضعها ، والفجوات الواقعة بينها .. ولكننا لم نُشرَّف بزيارة أحد . لعلهم مشغولون .. ولا بد أنهم مشغولون . وأحسب أن مـــا يشغلهم ليس شأناً من شئون الحرب ..

أما خطوط النار ، والاستحكامات ، وترتيب الجند في الجبهة ، فإن المعسكرين في شرفات لم يروا أحداً من القيادة يهتم بها منذ أن استشهد أحمـد عبد العزيز .

وفي هذا اليوم علمنا أن القتال يجري على أشده في منطقة بئر السبع ، وعلمنا فيما بعد أن مدينة بئر السبع احتلها اليهـــود فعلاً اليوم ، وبئر السبع عامرة بكتائب من الجيش الرسمي ، ووحدات من الفدائيين : ليبية وسودانيـــة ومصرية . وهذه الكتائب والوحدات الفدائية لم تدافع باستانة كما كان متوقعاً منها . وكنا نتوقع من الفدائيين أن يموتو دونها ، ويحز في نفوسنا أن ينسحبوا أحياء . ولما التقينا بأول ليبي في هذه المنطقة فيما بعد .. وأنحينا عليه باللائمة ، وما كنا ننتظر من أي فدائي أن يتزحزح من مكانه إلا ميتاً ، طالمـــا كان بأيديهم سلاح ... ولو ظلوا وحدهم يدافعون عن بئر السبع حق بالسلاح الأبيض ، قال لنا :

– كنا نريد ذلك ، ولكننا تبع لأوامر القيـادة . ولما أمرنا بالانسحاب وبدون قتال يذكر ، لم نجد إلا أن نمتثل الأوامر .مثلنا مثل الآلاف الآخرين.. وماذا نفعل ؟ لو لم نمتثل الأوامر لقيل عنا كلام كثير ..مثل ما يقال عن غيرنا.. وما عدا ذلك فكنا نستطيع أن ندافع عنها ونستميت ، ولكننا أمرنا بالانسحاب بعد قتال قصير ودون أن نشتبك بالأعداء اشتباكاً جاداً ، مما جعلنا نظن أن الجيش المصري رغم هذه العدة الضخمة من دبابات ومدرعات ومدافع .. نظنه يفتقر إلى ذخيرة لها ، وكأنه لا يملك منها إلا قليلاً جداً ولا يستطيع المجازفة بهذا القليل ..

. هذا ما قاله إخواننا في بئر السبع .. ونحن نرجح وجهة النظر هذه ، لأنه بعد أن جاءتنا الأوامر بالاقتصاد في الذخيرة وتكررت ، جاءتنا بعدها أوامر أخرى بالاحتفاظ بنحاس الطلقات الفارغة ، لإعادة تعبئتها من جديد في مصر . وها نحن منذ أشهر مضت نستعمل ذخيرة اعيدت تعبئتها في المصانع المصرية وكانت تستورد من بريطانيا قبل ان يمتنع الانجليز من بيع السلاح لمصر .

ولكن قنابل المدافع لا تصنع في مصر ، وما جاء منها من الباكستان لا يفي بحاجة الحرب . ويبدو أن الذخيرة الخفيفة لا تصنع بالقدر الكافي أيضاً ...

ونحن هنا في شرفات ، نتحدث عن تبعات هذه الكتيبة الأردنية التي جاءت إلى بيت لحم ... وما عسى أن تكون المهمات والتبعات ؟؟

ولم لم يقم الجيش العراقي بأي عمل قط في هذا الظرف العصيب؟
هذا الجيش الذي كنا نعقد عليه الآمال .؟

●

وفي اليوم التالي ٢٢/١٠ ، وبعد احتـــلال بئر السبع ، استجاب اليهود لأوامر إيقاف القتال.. ولكنهم لا يزالون يشعلونها علينا ناراً حامية في شرفات كل يوم ، وكل ليلة . والذي يغيظنا أننا لم تطلق أيدينا في الهجوم عليهم ولو

مرة واحدة منذ رامات راحيل ...وامتثال اليهود لأوامر إيقاف النار في هذا اليوم أمر يبعث على الدهشة ... لا بد أنهم يحيكون مؤامرة غدر جديدة . هذا كان تفسيرنا لوقف النار .

## ٢

وقد سمعنا أخيراً في ٢٤ / ١٠ من إذاعة إسرائيل بأن القوات الاسرائيلية ستسترد مستعمرات كفار عصيون التي بطش بها أهل الخليل في ١٣ / ٥ كما وصفت في فصل سابق .. وبعد هذا اليوم أصبحنا نشاهد وحـــدات الجيش الاردني المعسكرة في بيت لحم تتجه نحو الخليل.. ولعلها ستعسكر قريباً من مستعمرات كفار عصيون .

وفي يوم ٢٨ سمعنا من القادمين من الخليل ، ان معركة طاحنة تـدور رحاها اليوم ، بين اليهود وبين الجيش الأردني البطل بقيادة ميجر انجلـــيزي . تدور هنالك فيما بين الخليل وبيت جبرين . وعشنا هـــذا اليوم في قلق شديد بسبب غموض الأنباء الواردة عن هذه المعركة ، فمن قائل يقول : إن اليهود في طريقهم لاحتلال مدينة الخليل ، وقد استعد أهل المدينة واتخذوا مواقعهم من الجبال ليدافعوا عن مدينتهم ، ويلقنوا الصهاينة درساً مثل الدرس الذي لقنوه لهم سابقاً في كفار عصيون ...

ومن الناس من يشيع أن الجيش الأردني الصغير وعـــدده دون الثلاثمئة ومدرعاته السبع أمسى محاصراً ببضعة آلاف من جنود إسرائيل القادمين لاحتلال الخليل ومعهم نحو خمسين مدرعة .. وكلما مر الوقت تزداد الأنباء سوءاً .ونحن لا نزال في مدينة بيت لحم نترقب الأخبار ، لمـــا نخشى أن يحل بالفصيلة الأردنية .. وبمدينة الخليل ،لأنه ، لا قدر الله ،لو سقطت مدينة الخليل ليكونن

موقفنا هاهنا في جنوب القدس حرجاً للغاية .. وخطيراً . إلى أن جاءت الأنباء الصحيحة ، جاء بها بعض الجنود الأردنيين العائدين من المعركة لتوهم :

قالوا ان المعركة بدأت عند مطلع شمس نهار اليوم . بدأها الأردنيون في هجوم على بيت جبرين الذي احتله اليهود حديثاً في هجومهم على الجيش المصري ، بدأت المعركة بين قوتين غير متكافئتين من حيث العدد والعدة ، فقد اصطدمت سبع مدرعات أردنية بخمسين مدرعة صهيونية ، وثلاثمئة عربي ببضعة آلاف صهيوني . وكانت المفاجأة الرهيبة ، إذ استطاع الأردنيون أن يحطموا المدرعة الأمامية بضربة قاضية من أول لحظة ، وسرعان ما تقهقرت بعدها قوات الأعداء ، ثم انثنت تكر على الأردنيين مرة ثانية . ولكنها كانت نكبة عليهم إذ تمكن الاردنيون من تحطيم بضعة دبابات أخرى ، وقتل ما يزيد عن عشرين صهيونياً ، واحتلوا القرية فعلاً التي كانت قد هجرها أهلها قبل احتلال الصهاينة لها .. ثم بعد حين من الانتصار عاد الجيش الأردني إلى الخليل ظافراً لم يفقد سوى مدرعة واحدة وأربعة رجال ..

سررنا بهذا النصر ، وازدادت ثقتنا بالجيش الأردني ، ويبدو أنهم قاموا بهجومهم هذا لإرهاب اليهود وردعهم عن استرداد كفار عصيون أو مهاجمة مدينة الخليل .. ولم يكن القصد منه الاحتلال لضآلة عدده . وكم تمنينا لو يخلص العرب النية ويصدقوا العزم في قتال اليهود على قلب رجل واحد .

## ٣

ذكرت أن مجلس الامن المنعقد بباريس أمر يوم ١٩ من هذا الشهر ( اكتوبر ) بإيقاف القتال ، ورفض الصهاينة إيقافه أول الأمر ، ثم استجابوا

لإيقافه يوم ٢٢ لسبب غير معروف ، ولا يزال مجلس الامن يبحث المشكلة الى هذا اليوم ٢٩ ، وهو اليوم يناقش انسحاب الطرفين الى المواقع التي كانوا يحتلونها قبل بدء هجوم الصهاينة في ١٤ اكتوبر . وهو على وشك إقرار اقتراح ينص على إرغام الفريقين على الانسحاب إلى مواقعهم الأولى باستخدام القوة إذا لم ينصاعوا للأمر ، ويبدو أن الاعضاء متفقون على اقرار استعمال القوة ، وأجل البت في ذلك إلى يوم ٣٠ / ١٠ .

ومن غد تدخل المستر ترومان وتغيب مندوب أميركا عن حضور الجلسة ، ومن بعدها توسط المستر ترومان شخصياً لدى بعض الأعضاء لإخفـــاق القرار أملاً منه في كسب أصوات الناخبين اليهود، ولم يبق على الانتخاب إلا بضعة أيام..

ودار الفلك حسب إرادة البيت الأبيض وعـدل القرار إلى ما معناه « أنه في حالة رفض أحد الفريقين الانسحاب إلى ما كان عليه قبل ١٤ اكتوبر .. عندئذ سيؤلف مجلس الأمن لجنة من سبع دول تبحث الأمر وتقرر إما فرض العقوبات على الفريق الممتنع أو استخدام القوة ضده . »

صدر هذا القرار في ١٤ نوفمبر ولكن حرفاً واحـــداً منه لم ينفذ ، حسب مشيئة المستر ترومان. ونحن نقول ذلك غير متجنين على المستر ترومان ، لأن إذاعة اسرائيل نفسها كشفت لنا هذا السر بعد ذلك بقليل . إذ قالت في نشرتها الرسمية : « ان المستر ترومان بعث بتعليماتـه إلى الوفد الأمريكي في هيئة الامم كي يحول دون فرض أي عقوبات على اسرائيـل ، ولو تمردت على قرارات مجلس الأمن ولم تسحب جيشها من المناطـق التي احتلتها في النقب . وألا يفرض على إسرائيل أي قرار ما لم توافق عليه اسرائيل مقدماً . »

وأضافت الاذاعة الصهيونية قولها :

« لذلك لا تستطيع هيئـة الامم ولا مجلس الأمن أن يقر قراراً لا توافق عليه أمريكا . »

ولذلك كان رد اليهود على قرار مجلس الأمن الذي صـــدر يوم ٤ / ١١ رداً واقعياً إذ احتلوا مدينة المجدل في اليوم الثاني ، يوم ٥ / ١١ ...

## ٤

بعد انتهاء تدريب الكتيبة الرابعة في مرسى مطروح ثم في القاهرة ، عادوا إلى مرسى مطروح في ثلاثين سيارة نقل كبيرة . وفي ميناء مرسى مطروح ارتدوا جلابيب مصرية فضفاضة فوق ملابسهم العسكرية . وركبوا باخرة تجارية نقلتهم إلى بيروت . وفي بيروت نزلوا بجلاليبهم الطويلة التي لم يألفها اللبنانيون ، وحسبوهم مصريين قادمين الى لبنان . ولما سئلوا عن سبب قدومهم. ادعوا بأنهم عمال جاءوا للعمل في لبنان ..

وفي أول معسكر نزلوه أعيد تدريبهم بحيث يمكنهم مشاركة القوات العاملة في فلسطين . وركبوا سيارات إلى داخل فلسطين وتوزعوا هنالك يرابطون في ثلاث جهات . منها قدس والمالكية الى جانب جيش الإنقاذ . وظلوا هنالك ينتظرون أن يؤذن لهم بالهجوم . وحدث لهم مـا حدث لرفاقهم في الجنوب . وانتظروا وكادوا ييأسون .. حتى جاء قائدهم ذات يوم الى المرابطين في قدس، القريبة من بلدة النبي شعيب التي يحتلها اليهود .. وطلب منهم ان يستعـــدوا لاحتلالها ..

وكانوا من قبل يتحرقون شوقاً لاحتلال النبي شعيب .. وها هو قائدهم قد وعدهم بذلك ، وجلس يشرح لهم الخطة : نهاجم بأربعمائة رجـــل .. نباغتهم بالتسلل داخـــل منطقتهم .. الضابط فلان يقوم بـ .. و .. و .. وكانوا يعيشون في فرحة الأماني .. إذ قد اتيحت لهم الفرصة أخيراً .. فرصة طالما

راودتهم أحلامها وها هم منذ شهور ينتظرون ان تتاح لهم الفرصة حتى أتيحت لهم أخيراً .

وزال ما بهم من تسخط .

قد أزمعوا أن يعيدوا عيد الأضحى في النبي شعيب .

●

كان القائد السيد فضل الله ابراهيم ، الشيخ المحنك ، يعد جنوده الليبيين للإغارة ، ويضع خبرة السنين في أول ملحمة لينال من عدوه نيلاً يخسئهم ، ويرفع من معنويات جنده . ثم ينقلهم بعد ذلك من نصر إلى نصر ..

وقد هيأ لكل احتمال عدته ، واستوثق من كل أمر بنفسه . وقرب الموعد ، وانقلبت سحنة الفدائيين إلى الجد الحازم . وازفت الليلة المرجوة وبينما هم في غمرة النشاط والإعداد إذا أمر من القيادة العليا يصدمهم الصدمة الكبرى ..

لم تحذرهم من المجازفة بالهجوم بل أمرتهم ألا يهاجموا بتاتاً ..

ثم مضت أيام بعدها تزيد عن العشرين ، وجاءتهم أوامر أخرى بالانسحاب من مواقعهم من قدس ومن المالكية وتركها لليهود باردة بلا حرب ، بلا قتال .

قالت القيادة : انسحبوا !..

وصعق القائد للأمر المشئوم .. وأشفق على جنده من رجع الأمر على نفوسهم بالصدمة اليائسة .. وهاج جنده ، وثاروا وتمردوا ، وهددوا وتوعدوا ..

ودبر القائد وفكر ، ثم أعلنها : لن ينسحب ..

لن يبرح مواطىء أقدامه إلا لشبر جديد يحتله ، أو معركة ضارية يمدها

بنجدة منه ، أو إلى القبر يواري هزيمته .. ولم ينسحب بلا داع ويتركها لليهود باردة . إن هذا لشيء نُكُر..!

وسر جنده بموقف قائدهم . وسري عنهم . وأملوا أن يزاح عنهم كابوس الانسحاب . اذا تراجعت القيادة العليا عند إصرارهم ... ولكنها فرحة لم يطل مداها ، فلم يكد وجه نهارهم ذاك يولي حتى كانت انبـــاء السوء تلاحقهم ، إذ تسلم قائدهم انذاراً شديد العبارة مبرماً من وزارة الدفاع . تحذره فيه ما ينجم عن تمرده من أخطار ، وتحمله مسئولية الكتيبة الليبية إن حاق بهم محذور ، ما لم ينسحبوا ..

وتساءل الرجل الواهم وتساءل جنـــده الأغرار : أي محذور هذا الذي نخشاه ؟ ..

أن اليهود لا يطمعون منا فيما نطمع منهم من احتلال وفتح . وها هو جيش فوزي القاوقجي يحاصر لهم مستعمرة قريبة منذ مدة وهم لا يستطيعون دفعـه ولا يملكون لحصارهم فكاكاً ؟

●

ولعل السيد فضل الله تحدث إلى نفسه : أنا رجل من السودان ، وجنودي قوم من ليبيا ؛ أخشى أن تقول الجامعة العربية : رجل قامر بجنوده جزافاً .. دعني أتدبر أمري وأحتاط لجندي . لم لا أستطلع رأي ضباط جيش الانقاذ الذين يحاصرون هذه المستعمرة . ولما تساءل عنهم .. وجدهم يتهيأون للانسحاب أيضاً طوعاً لأمر القيادة . إذن لا عليه أن يبكي مثل الأطفال ، أو يفقأ عينيه ، أو ينتحر إن شاء .. ولكن عليه أن ينسحب ولا مفر ..

وصدع بالأمر لجنده وصغرت نفسه وتضاءلت وهو ينسحب في ذيل جنده في أوائل نوفمبر ٤٨ ، ومن ورائهم سياسة تجر التاريخ على وجهه غير مبالية ..

لو يدري ذلك الشعب العظيم المتربع على الجبل الأشم ما ينتظر أراضيه من مصير ؟!

ولما تقهقر الليبيون منسحبين وجدوا جيش القاوقجي قد سبقهم إلى المنطقة التي انسحبوا اليها . وبدأت آذان الليبيين تصيخ لقالة السوء .

تنطلق من أفواه ابناء لبنان واشقائهم الفلسطينيين ومن الليبيين من يشاطرهم تسخطهم هذا ..

ولم يكتف اليهود باحتلال أراضي فلسطين جميعها بل ايضاً داهموا بعض القرى خارج فلسطين واحتلوها وبعد احتلالها جاءت القوات العربية لترابط على جوانب القرى التي احتلها الصهاينة ..

★

# مَاذا فِي الجَنوبْ

# ١

بينما كان ذلك يتم في الشمال من فلسطين كنا نحن هاهنا في شرفات مستهدفين لمحاولات الصهاينة التي تتحطم على إرادة صادقة .. وبالرغم من إصـــدار مجلس الأمن قرار ايقاف القتال في ١٩ اكتوبر اوقف الصهاينة القتـال يوم ٢٢ منه ، ولكنهم مالبثوا أن عادوا يحتلون القرى والمدن .

وشعرت الشعوب العربية بأن الجيش المصري يقاتل وحده ، بينما الجيوش العربية الأخرى لا تقدم له أية مساعدة . لذلك قامت مظاهرات عنيفة في يوم ٢ نوفمبر في كل من نابلس وعمان ، تهتف بسقوط جلوب وبسقوط كل الحكومات العربية التي تقف من الجيش المصري موقف المتفرج .

وبالرغم من صدور قرار مجلس الأمن في ٤ نوفمبر كما ذكرت .. من وجوب انسحاب الجيوش المتقاتلة إلى أماكنها التي كانت تحتلها قبل ١٤ اكتوبر ، بالرغم من صدور ذلك أمس ، لا يزال اليهود يتقدمون اليوم ١١/٥ ويحتلون الأراضي . فقد احتلوا اليوم مدينة المجدل . والمجدل سقطت الآن ولكن اليهود لم يدخلوها بعد .. لأن القيادة أعلنت لأهل المدينة : أن مدينتهم أصبحت ميداناً لعمليات عسكرية وطلبت منهم ان يخلوا ديارهم ويتركوا مدينتهم ، لأنها ستصبح ساحة لعمليات عسكرية او لمعركة لم تبدأ بعد !...

وخرج المواطنون مرتابين يتحققون من الأنباء ، وكان بينهم كثيرون ممن رحلوا عن اللد والرملة ، وبئر السبع ، واكتووا بنار مأساة هنالك لا يزالون يتصورونها تتابعهم .

ذعروا لما سمعوا النبأ ، فقد أدركوا مغزاه ، وهرعوا الى أطفالهم فزعين ، وسرت حركة الذعر هذه في أرجاء المدينة ، وانتابت المواطنين جميعهم نوبة من الخوف . وسرعان ما خلت المدينة إلا من شباب عزموا ان يمـــوتوا ذوداً عن ديارهم .

وقضى المواطنون بقية يومهم وليلتهم تلك في العراء بعيداً ، ثم عادوا من غد مترددين متوجسين، وهم لم يحملوا معهم إلا ما يقدرون عليه من ممتلكات، عادوا الى ديارهم وكلهم أمل بأن تكون المعركة قد انتهت . وانتهت حتمـاً في صالح الجيش المصري . ولكنهم لم يجدوا للجيش أثراً ، وجدوا أولئك النفر من الشباب ليخبروهم بأن الجيش المصري انسحب بلا معركة تذكر ، مثل ما حـــدث في مدينة بئر السبع منذ أسبوعين مضيا. واليهود احتلوا مراكز الجيش حول المدينة ولم يدخلوها . وعلقوا اعلانات بأنهم سيبقون المدينة والطرق المؤدية اليهـــا مفتوحة لمدة ثلاثة أيام ، ليغادرها السكان في أمان .

إذن انسحب الجيش انسحاباً ؟؟ وسلمت المدينة ؟؟ وبقيت مفتوحة رفقـاً بالعرب ؟؟

هل حدث هذا صدفة واتفاقاً ؟؟

على أي حال كان يوماً مشؤوماً ، وكلها كانت أياما مشئومة في تاريخ جيلنا المعاصر .

وبينما يزداد اليهود في هجومهم عنفاً يزداد الميدان بين الصهاينة وبين الجيش الاردني والعراقي إغراقاً في سكونه .. وكم يتمنى الناس في هذه الأيام لو يتقدم الجيش العراقي لنجدة الجيش المصري ، او انقاذ الجيش اللبناني من تسليم أراضي

فلسطين إلى الصهاينة .. وذلك بأن يقوم بعمل ما في منطقته ..

أما نحن هنا فقد طلبنا من القيادة أن تأذن لنا بالقتال .. بالهجوم .. بأي عمل .. ولكنها ليست من هذا في شيء .

## ٢

ازداد عدد اللاجئين في بيت لحم ، وازدادت قسوة الشتاء عليهم . ومحلت السوق من الطعام . ومات الأطفال على قوارع الطرقات ..

وعاد أهل المالحة مرة أخرى لقيادة شرفات يلتمسون معونتها : أن ترسل معهم رجالاً من جندها ليأتوا ببعض قمح لهم مخزون . ورفضت القيادة مرة أخرى مطلبهم .. لولا أن بعض الضباط الليبيين استعدوا للمجازفة دون علم القيادة ..

وأحضر المالحيون دوابهم ، وهيأوا عدتهم .. وبعد منتصف الليل انحدر الضابط سليم موسى الزواري ورفاقه ، يتبعهم ثلاثة رجال من أهل المالحة ، ومعهم ثلاث دواب ذات حوافر مجلجلة على الصخر . انحدروا جميعاً من شرفات الى الوادي ، يسعون حتى تجاوزوا قضيب سكة الحديد .

وتسللوا في تؤدة إلى مقربة من المالحة ، ثم زحف الرجال على الشوك والصخور حيناً ليس بالقصير ، وبعد لأي وتردد وتوجس للشر أدركوا أول القرية بخامرهم جزع شديد من قرقعة الحوافر وحكها الحجارة والصخور ، حتى تجاوزوا جبهة دفاع أعدائهم بين الرجاء واليأس ، وهم لا يدرون إن كانت بيوت القرية خاوية ، أو هي عامرة بأسباب الموت والدمار .

ثم مضوا في مسالك القرية المهجورة متسللين إلى البساتين .. وثمة بحثوا

وأزالوا التراب وملأوا زكائبهم وحملوا الدواب ما تطيق . ثم عادوا من طريقهم متسللين بين الوجل والحذر . . وكان سليم وصحبه يتمنون أن يتجولوا ويستكشفوا القرية ولكنهم حذروا أن يفسدوا مأرب أصحاب القمح في ميرتهم .

وتسامع بعض أهل المالحة من أقاربهم أصحاب القمح ، فجاءوا يرجون سليماً ورفاقه أن يمضوا معهم لمآرب لهم أيضاً . ومضوا مرة أخرى في ظـــلام الليل الحالك وتجولوا هذه الليلة في القرية ودخلوا بعض بيوتها ، ثم عاد أهل المالحـة بحاجتهم .

●

ولبث سليم وصحبه يستطلعون الأحوال مـــن هنا ومن هناك ، يجوبون الجوانب والأطراف ، حتى اكتشفوا ثكنات الصهيونيين واستحكاماتهم ، فاذا هي لا يربط بينها سبب ، متباعدة تباعد من لا يخشى غيلة غائل ، ولا يتوقـع هجوم مغير . . ولو أن فوجاً مغامراً اخترق جبهتهم هذه وطعنها من الخلف من حيث اطمأنوا ، وانطلق يسترد المالحة وعين كارم ودير ياسين لتحقـق له النصر حتماً . .

وهذه آلاف من الفدائيين المقيمين هنالك وراء الخطوط ، وعشرات الآلاف من الجنود الآخرين يرقدون هاهنا وهاهنا في خمول ولكن . .

ولكن لعل للحكومات سياسة أخرى ؟ لعلها ترهب تهديد لندن وواشنطن المسموم .

ولو كان قيّموا العرب مخلصين حقاً فيما تظاهروا بمعاهدة شعوبهم عليه لكان في استطاعتهم أن يجازفوا بنا نحن الفدائيين ، الذين كان يسرنا أن نجازف ، وذلك ما يثير الحماس والانتعاش في نفوسنا ، ويقتل هذه الكآبة والملل اللذين نعيشهما منذ شهور .

كنا نستطيع أن نسترد المالحة ، وهي على بعد مرمى حجر من شرفات ، ومن المالحة كنا نستطيع استرداد صوبا فعين كارم ومنها إلى دير ياسين ، وهما مجردتان من الدفاع ، وقريبتان من دير ياسين إلى لفتا وشعفاط ومن هنالك نتصل بالجيش الأردني المرابط حول القدس القديمة ، وتصبح القدس الجديدة بأجمعها محاصرة داخل المنطقة العربية .

كل ذلك يمكن تنفيذه بسهولة ، وهو مرهون باحتلال المالحة هذه .. ولا يلزم بعد ذلك إلا التحصن في المناطق المستردة لمواجهة النجدات التي تأتي من القدس المحاصرة ومن تل أبيب . وهذه الخطة حق ولو لم تكن مقصودة لذاتها فقد كان يجب أن تنفذ للتخفيف من الضغط على الجيش المصري الذي تحولت إليه جميع قوات اليهود الآن .

وهنالك خطط أخرى كثيرة مضمونة النجاح ، وأن تكون ذات حدين : الاحتلال والإرهاب ، ثم تشتيت تركيز القوة اليهودية . ولكن لا أحد يسمع ، أو بالأحرى : ليس هنالك من هو في مستوى المسؤولية القيادية . إن هي إلا مظاهر يعجبك ظاهرها ويسوؤك جوهرها ، أو لعل السياسة العليا أيضاً مرسومة على هذا النحو .

لقد شرحنا للقيادة في بيت لحم مغامرات إخواننا في شرفات ، واكتشافهم لضعف الأعداء .. واقترحنا ان تتاح لنا ولإخواننا الفدائيين الآخرين فرصة للاحتلال ، ولتطويق القدس ، وتشتيت قوى اليهود لتخفيف وطأتهم على الجيش المصري . وبخاصة بعد أن تمكنوا من حصار بضعة آلاف من الجيش المصري في الفالوجة .. وها نحن ننتظر أن تأذن لنا القيادة بالهجوم هذه المرة .

●

# ٣

وما موقف هذه الأفواج من الجيش الأردني التي جاءت إلى بيت لحم والخليل منذ عشرين يوماً مضت ، ولم تقم بعمل بعد .. أليست قد جاءت لتقوم بعمل حربي ؟ لسنا ندري ، وكل ما سمعنا أنهم جددوا في المطالبة بحكم الخليل ، وجرى من جراء ذلك نزاع بين الجيشين . وانتشرت عدواه إلى النزاع بين الأهلين ، الذين انقسموا إلى حزبين ، منهم من يؤيد الجيش الأردني وقائده الانجليزي ، ولو كان أكثرهم يؤيد الجيش المصري . ومن جراء هذا النزاع رفع العلم الاردني على دور الحكومة إلى جانب العلمين ، علم حكومة عموم فلسطين وعلم المملكة المصرية ..

●

لما رن جرس التليفون في قيادة شرفات في الصباح الباكر من يوم ١٠ / ١١ / ٤٨ ظننا أن قيادة بيت لحم قبلت اقتراحنا بالهجوم على الصهاينة . ولكننا فوجئنا بالخبر الغريب . وذلك أن الجيش الاردني الموجود في بيت لحم بقيادة الميجر الانجليزي . ! ذهب آخر الليل ليحاصر فوجاً من الجيش الفلسطيني المسمى بجيش الجهاد المقدس ، الموجود في مدينة بيت لحم قرب القيادة المصرية وطلب من الفلسطينيين أن يستسلموا ويسلموا سلاحهم .

هذا أغرب خبر.. وذهبت مسرعاً مع من ذهب ، لنشاهد ما حدث عياناً.

ولما جئنا قيادتنا وجدنا جماعة الضباط المصريين يتداولون الموضوع في دهشة واستغراب .. وعدد المجاهدين الفلسطينيين الموجودين بالمنطقة وفي خطوط النار أكثر بكثير من الجيش الأردني المعسكر في المدن بعيداً عن ميدان النار .

والفلسطينيون في جنوب القدس وفي بيت لحم يعتمدون على القيادة المصرية في تموينهم ومدهم بالذخيرة .

ولما طلب اليوزباشي محسن أبو النور من الميجر الانجليزي أن يفك الحصار عن فوج الجهاد المقدس ، أبى الميجر إلا أن يتسلم سلاحهم على الأقل .. ولما لم تنفعه الحجة والجدال .. بعد أقل من ساعة ، وجد الميجر الانجليزي فوجه الصغير مطوقاً أيضاً ، ولكن بعشرة أضعافه من قوات الفدائيين .. عندئذ خنس ، وسحب جنوده وهو مكره صاغر .. ولم يقم بعدها بأي عمل في المنطقة .

## ٤

لا يزال الصهاينة منذ هزيمتهم الفاضحة في الجبل اليماني يصبون علينا غضبهم رصاصاً حامياً ، وأحياناً يضيفون إليه القنابل ، ونحن لا زلنا نلح على القيادة تنفيذ اقتراح الهجوم ..

وقد أذاعت إذاعة إسرائيل بأن مفاوضات صلح سرية تجري الآن بين إسرائيل وشرق الاردن . ولما سمعنا هذا الخبر لم نقبله ، وأكدنا بانه مكذوب لولا أن تبينت صحته فيما بعد .

●

اليوم ١٨ / ١١/ ٤٨ ، وبينما يصب علينا اليهود دفقاً من رصاصهم ، إذ أقبلت مدرعة أردنية وتوقفت أمام القيادة ونزل منها ضابطان أردنيان جاءا لزيارتنا. ولأول مرة يزورنا الأردنيون ، ولأول مرة تدخل مدرعة أردنية قرية شرفات. ووقف بعض الجنود يرقبون المدرعة ويتساءلون: شيء غريب أن تزورنا مدرعة

أردنية في شرفات ؛ وقليل جداً منهم من يعرف السر ..

لقد جاء الضابطان ليستفسروا عما استقر عليه رأينا في المفاوضات الجارية بيننا وبينهم . بدأت هذه المفاوضات يوم ٩ من هـــذا الشهر منذ تسعة أيام مضت هنالك في الزرقاء بالأردن ..

لقد طلبوا منا، قبل يوم ٩ ، أن ننتدب بعض رفاقنا لزيارة عمان وللتباحث في شؤون تهم الجيشين ، الليبي والأردني . وهنالك في الزرقاء اقترحوا علينا أن ننضم إلى الجيش ، الأردني بدلاً من القيادة المصرية . ورغبونا بامتيازات كثيرة منها ما يتصل بوضعنا في ليبيا مع الحكومة البريطانية عند عودتنا إلى وطننا ، ومنها ما يتصل بالعمل معهم . وليس علينا إذا شئنا ان ننضم إليهم إلا ان نسلم السلاح الذي بأيدينا إلى المصريين ، ونتسلم بدلاً منه سلاحاً اردنياً وتموينا اردنياً ونحتفظ بمراكزنا في شرفات ونتمدد تجاه الغرب وتجاه بيت صفافا ما أمكن .. ومن شاء منا بعد انتهاء الحرب ان يبقى في الجيش الأردني فهو جيشه ويشجعه على البقاء .

ولم يرغب احد منا في الانضمام اليهم ، باستثناء ضابط واحد ، لأسباب : أهمها اننا لن نصيب من سمعتنا بسبب القيادة الانجليزية ، وثانياً ، لأننا لن نخذل الجيش المصري ابداً ..

وبعضنا يتساءل : لماذا يرغبون في انضمامنا اليهم ؟

اما انا فأرى ان السبب هو ما نتمتع به من سمعة عريضة جرت في طول البلاد وعرضها ، بسبب مواقف حربية ذكرت بعضها في هذا الكتاب .

وأما الآخرون فيرون رأياً آخر غير رأيي هذا ...

وقد يئس الضابطان اللذان حضرا إلى شرفات ؛ يئسا مـــن انضمامنا إليهم وعادا إلى الزرقاء .

# ٥

في اليوم الثاني ١٩ / ١١ / ٤٨ جاءت كتيبة عراقية الى بيت لحم .. وهـذا أمر في غاية الغرابة ، وعسكرت في الجانب الآخر تجاه الخليل . ونحـن نظن أن هنالك كتائب عراقية أخرى ستتبعها لمهاجمة اليهود وفك الحصار عن اللواء المصري المحاصر في الفالوجـــة ، ثم الى الاشتراك مع الجيش المصري في قتال الصهاينة .. ولكنها أقامت هنالك نحو شهر تقريباً ، ولم تقم بأي عمل . وبعد انتهاء زيارة الملك عبد الله لمنطقة الخليل وبيت لحم بأربعة أيام عادت هـــذه الكتيبة من حيث أتت .

●

# نزولاً عِند وَساطة أمريكا

# ١

في هذه الأيام تطالب بريطانيا في هيئة الأمم المتحدة بضم الجزء الباقي من فلسطين بيد العرب إلى شرق الأردن ..

وفي هذه الأيام نفسها تروج شائعات ، بأن أهل فلسطين سيعقدون مؤتمراً في أول ديسمبر الداخل في مدينة أريحا ، يبحثون فيه قضية بلادهم . ووجدتني حريصاً على حضور هذا المؤتمر الذي لا بد أن يكون تاريخياً .

وفي اواخر نوفمبر توجهت إلى أريحا . وفي هذا اليوم الأخير يستطيع المرء أن يلاحظ نشاطاً فوق العادة تعج به المدينة ..

ومن الصباح الباكر لاحظنا سيارات الجيش الأردني تنقل الجماهير من مختلف الجهات الى المدينة .. ورأيت ذلك ، في نفسي ، مساعدة طيبة يسهم بها الجيش الأردني .. ولكن رجلاً فلسطينياً ، كان واقفاً على قارعة الطريق مثلي ، قال معلقاً : « أين كانت هـذه السيارات ؟ إنها لم تتطوع بنقل النساء والأطفال يوم كارثة اللد والرملة .. أريحية غريبة نراها لأول مرة . »

وحضر من كل مدينة في الشمال وفد يمثلهـــا من أعيانها وكبار موظفيها وصغارهم . وانعقد المؤتمر في ساحة فندق كبير .. ولما كنت داخلاً للفندق ، وكنت أرتدي الملابس العسكرية ، اعترض طريقي جنديان أردنيان وهمايظنان أنني مصري ، ولما علما أنني ليبي أخليا طريقي ..

وقلت في نفسي : إذا كان المؤتمر شعبياً ينظمه الشعب الفلسطيني ، فما دخل الجيش الأردني ؟؟

لقد كان المؤتمر رائعاً حقـــاً . انتخب فيه رئيس بلدية الخليل السيد محمد الجعبري رئيساً للمؤتمر وألقى الرئيس خطاباً ضافياً بليغاً ، عن حالة فلسطين والجيوش العربية ، وعجز الدول العربيـة عن حل قضية فلسطين .. وفي ختام حديثه عرض على المؤتمرين مقترحات أهمها :

ـ الطلب من الدول العربية مواصلة القتال لإنقاذ فلسطين والأردن .
ـ والاقرار بالوحدة بين فلسطين والاردن .
ـ ومبايعة الملك عبدالله ملكاً على فلسطين .
ـ وتبليغ قرارات المؤتمر إلى الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة .

ووافق المؤتمرون على المقررات، وركبت الوفـــود سيارات الجيش الأردني متوجهة لمبايعة الملك عبدالله .

نسيت أن أقول إن المواصلات قطعت فيما بين الجيش المصري وبيننـــا نحن المرابطين في جنوب القدس،وبيت لحم والخليل،منذ مدة قبل انعقاد هذا المؤتمر. وأصبح استمرار وجـــود الجيش الأردني أبرز من استمرار الوجود المصري وحكومة عموم فلسطين ...

وقبل الملك عبدالله بيعتهم شاكراً ، واعتبرها انتشالاً لفلسطين من كبوتها.

ليت هذا المؤتمر انعقد منذ اول يوم ، وصارح العرب بعضهم بعضاً وكفونا الخطوب . ليته كان قديماً .. ليته كان منذ سنة مضت .

●

وإثر هذا المؤتمر سفر النزاع بين القاهرة وعمـــان على مستوى الإذاعات والصحف . وأصدر مجلس كبار العلماء في مصر فتوى ببطلان المبايعة وتسفيـه

المؤتمر .. وأصدر العلماء في الأردن فتوى مناقضة ومسفهة لفتوي مصر واستمر النزاع في الصحف والاذاعات فترة طويلة أدت إلى قطيعة .

●

ومع ذلك جاء الملك عبد الله بعد ذلك بتسعة أيام لزيارة الخليل وبيت لحم .. وزار القيادة المصرية وتناول فيها الشاي. وهذه أول مرة أرى فيها الملك الداهية الذي جرت شهرته السياسية في الآفاق . أعجبت بشخصيته ، والذي يشهده يعلم سر نفوذه على شعبه ، وعلى الاستعمار الانجليزي . شخصية ترغمك على احترامها رغم أنه لا يحاول أن يحيط نفسه بهالة من المهابة والتكلف . متبسطاً في التحدث والتعامل مع الناس .. كأنه ليس بملك . ومنذ أول مرة تجد نفسك تحمل له تقديراً ومودة .

وقد لاحظ عليه الإخوان المصريون ما لم يتعودوا من الملوك . فهو يجمع بين البساطة والدهاء ، مما يدل على ذكاء خارق .. كان ينفر مما تحيطه به قيادة الجيش الأردني من حراسة شديدة .. رغم علمه بلا شك بكثرة المتربصين به ، الناقمين على سياسته . وبخاصة أنصار الشيخ المفتي ، وهم أكثر سكان فلسطين . ومنهم هذا الجيش المعسكر إلى جانب القيادة المصرية المسمى بجيش الجهاد المقدس الفلسطيني ، الموالي لحكومة عموم فلسطين .

لقد كنت أسمع عن الملك عبدالله يصوره خصومه وكأنه ذو مزاج منحرف ، او قليل الإخلاص .. والحق إنني لمست اليوم انهم كانوا يشوهون الحقيقة عن قصد أو عن جهل .

# ٢

ثم مضت الليالي تتتابع حتى كان يوم ٢٣ / ١٢ / ٤٨ . في هـــذا اليوم اشتد أعداء الله في ضربهم لشرفات وبيت صفافا وقطاعات الفدائيين جميعها .. وكانوا في اليوم ذاته يجددون هجوماً على جميع قطاعات الجيش المصري في الجنوب ، وأحرزوا انتصارات عليه ، وفي اليوم الثالث من هذا الهجوم سقطت عوجا — الحفير بيد الصهاينة كماسقطت مدن وقرى أخرى. وقد يئسنا الآن من القيادة.. ومن إذنها لنا بالهجوم .

وفي هذا اليوم نفسه أذاعت الإذاعة الاسرائيلية بأن جيشهم عزل القوات المصرية باحتلاله للتلال الواقعة بين خان يونس ودير البلح ، وهي موقـــع استراتيجي مسيطر ، وإذا صدق الاسرائيليون في دعواهم الخطيرة ، فتلك كارثة تهدد الجيش المصري في ساحل فلسطين بالحصار . وتلك كارثة معناها القضاء على معظم الجيش المصري بالإضافة إلى كارثة حصار الفالوجا ...

وأعاد الأعداء إذاعة نبأ حصارهم للجيش المصري أكثر من مرة . مما أثار هيجاناً شديداً في قطاعنا ، وثورة من التذمر ، والدعوة إلى التمرد ..

والثائرون كانوا على حق ، فماذا بقي للعرب بعد نكبة الجيش المصري إذا هو تحطم على هذا النحو ..

●

وفي عنفوان الهيجان نجحت الدعوة إلى إعلان العصيان . وعزموا على نبذ القيادة ، وأوامرها وحكومتها . ثم مع مضي الساعات فترالهيجان قليلاً وخفت

حدة الدعوة للعصيان ، بسبب اعتراض بعض الإخوان على هذا الطيش ، وربما جبهنا إخواننا الثائرون بالمروق وخيانة الوطن ..

وعلى أي حال فقد استطاع المحاربون القدامى أن يحولوا الهيجان بحكمة إلى مشروع خطة غارات إرهابية ترهب أعـداء الله ، وتخفف الوطأة عن إخواننا في الجنوب .. وتنفّس عن الثائرين كبت الشهور ..

ورغم ما بيننا من خصومات ونزاع حول هذا الموضوع، فقد ظل سراً لم تعلم به قيادة شرفات ولا من وراءها .

ورغم أنني وامثالي لا نستسيغ الخروج عن القيـــادة ، لكننا اشتركنا في التشكيلات لنبرهن أننا لسنا من المارقين والخائنين ..

●

كانت الخطة في مبدئها مغامرة انتحارية ، يريـد أصحابها استرداد القرى العربية التي احتلها اليهود الواقعة غرب القدس ، والممتـدة من المالحة إلى طريق يافا القدس، ليجعلوا قيادة الفدائيين أمام الأمر الواقع . ونحن كلنا نؤمن بوجاهة الخطة ونجاحها ، لأن جميع القرى الداخليـة مجردة من السلاح ، إلا المالحة التي نستطيع طعنها من الخلف كما ذكرت . وأما عين كارم التي تبعد عنا نحو ثلاثة أكيال ، ودير ياسين التي تبعد خمسة أكيال ، فكلاهما مجردتان من السلاح .

وسيبدأ تنفيذ الخطة الساعة العاشرة ليلاً .

ولم نمض في خطتنا بعيداً ، لأن بلاغـــاً عسكرياً أعلن من إذاعة القاهرة تكذيباً لدعوى الصهاينة ، وذكر أن الأعداء احتلوا بعض التل ٨٩ بين دير البلح

وخان يونس ولكنهم عادوا خاسري الأرواح والمعـدات .. والجيش المصري مسيطر على الموقف في كل المواقع .

ورغم هذا البلاغ ، ورغم فتور جذوة ثورتنا ، فإنـــه لا يزال بيننا بعض المتحمسين الذين ظلوا مصرين على تنفيذ الخطة ، أو على الأقل تحويلها إلى غارات عنيفة على المالحة والقطمون ودير ياسين وعين كارم وطريق القدس – تل أبيب ، ولم يجدوا أذناً صاغية بعد الفرحة العارمة بهذا البلاغ ..

وعلمنا فيما بعد .. بعد أيام .. أن بعضهم أغاروا حقـــاً على القطمون وعين كارم ومستعمرة بيت فيفان المجاورة لعين كارم . ونسفوا بعض المواقع وروعوا المدنيين ، وشردوا سكان بيت فيفان عن بكرة أبيهم ، وأشعلوا النـــار في كل مكان ، ولم يلقوا أية مقاومة في أي من هذه المناطق الأربعة .. وكان ذلـــك نصراً لهم من دوننـا . وكم تمنيت بعدها لو كنت بينهم أو لو كنت أشد منهم مغامرة ..

●

في أواخر هذا الشهر قتل رئيس وزراء مصر محمود فهمي النقراشي . قتله شاب من الاخوان المسلمين متهماً إياه بالتواطؤ مع الاستعمار ومهادنة اليهود .. وفيه عقد مؤتمر نابلس على غرار مؤتمر أريحا ورام الله ، غـير أنه تميز عن سابقيه بشيء جديد في مقرراته ، وهو وصفه للقوات المصرية بأنها تقاتل وحدهـــا ، ويطلبون من القوات العربية الأخرى مد يد المساعدة للجيش المصري .. وتميز بشيء آخر . وهو قول الملك عبد الله : « ان الجامعة العربية لا زالت تحافظ على مودة شرق الأردن . »

وفي هذا اليوم جاء في إذاعة القدس الاسرائيلية برنامج عن الفدائيين الليبيين ،

قالوا فيه : « أحرى بكم يا معشر الليبيين أن تعودوا لوطنكم وتحرروه من الاستعمار.. واستقلال وطنكم خير لكم من حرب خاسرة في أوطان غيركم ، وستجدون في إسرائيل خير عون لكم للتخلص من الاستعمار .. » وكلام استمر ربع ساعة من هذا النوع .

وفي يوم ٢٩ لا يزال الهجوم على الجيش المصري على أشده وقالت اذاعة لندن: « إن دورية اسرائيلية مقاتلة استطاعت التوغل داخل الحدود المصرية ولم يبق بينها وبين العريش سوى عشرة أميال . » نقلاً عن مصدر اسرائيلي ..

وماذا في الميدان بين الجيش العراقي وعدوه ؟ وبين الجيش الاردني وعدوه ؟

لا شيء .. سكون .. هدوء .. وخطوط اليهود خالية من المدافعين لأنهم تحولوا جميعاً لقتال المصريين ..

وظل المصريون يقاتلون وحدهم .. رغم احتجاجات الشعوب العربية في كل مكان .. ورغم اجتماع الجامعة العربية واتخاذ قرارها بمساعدة الجيش المصري ، ورغم قرارات مجلس النواب العراقي .

وليس بين جيوش الدول العربية من استعد للمساعدة سوى الجيش السوري. ولكنه ضعيف الاستعداد وصغير . والمسئولون عنه لم يسلموا أيضاً من الوصم بالتهاون .. مما أدى إلى انقلاب حسني الزعيم . وقد كانت الكتيبة الليبية الخامسة تابعة للقيادة السورية اثناء الانقلاب .

●

# ٣

ظل المصريون يقاتلون وحدهم في جنوب فلسطين .. واليهود يواصلون ناراً حامية علينا في جنوب القدس .. يشاغلون جميع قطاعاتنا ببضعة رشاشات نوع فيكرز ، بينما نقلوا بقية السلاح والرجـــال يقاتلون بهم الجيش المصري . ولم يستعن الجيش المصري بأحد منا ، ولم يسمح لنا بعمل ما إلى اليوم السابع من شهر يناير لعام ٤٩ .

في ذلك اليوم اذاعت الحكومة المصرية هذا البيان : « في ١٥ مايو ( أيار ) الماضي دخلت الجيوش العربية فلسطين لإعادة الأمن والنظام إلى ربوعها ، ووضع حد للفضائح التي كانت العصابـــة الإرهابية الصهيونية ترتكبها ... ولم يكن الغرض الحرب بذاتها ، أو تحقيق كسب مادي . واستمرت الحرب ثمانية أشهر ، تحملت القوات المصرية أبلغ التضحيات في سبيل الباعث الإنساني .. وتدخـــل مجلس الأمن لفرض الهدنة ثلاث مرات ، ونزلنا على حكمه في كل مرة ، ولكن الصهيونيين لم يراعوا للهدنة حرمة ، وكرروا الهجوم على القوات المصريـــة في النقب . فقابلت القوات المصرية هذا العدوان في كل مرة بكل بسالة . ولجأت مصر إلى مجلس الأمن فاتخذ قراراته المعروفة في ٤ و ١٦ نوفمبر و ٢٩ ديسمبر يأمر الفريقين بوقف القتال ، وعودة الحال إلى ما كانت عليه قبل ١٤ اكتوبر . ولكن الصهيونيين لم يعبأوا بالقرارات ، معتمدين على المعونة التي تلقوهـــا من دول اوروبا ... وقد بذلت أمريكا وساطتها لعقد هدنة دائمة ، فقبلت الحكومة المصرية ذلك ، متمشية مع سابق احترامها لقرارات مجلس الأمن ، على أن تتخذ الإجراءات الكفيلة باحترام مجلس الأمن . وقد تحدد موعد وقف القتال في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم . والحكومة المصرية إذ تعود إلى وقف القتال

استجابة لقرارات مجلس الأمن ونزولاً على وساطة أمريكا تشيد بجيشها الباسل الذي حمل العبء وحده » .

ومنذ الساعة الثانية من ذلك اليوم سكت السلاح ، وهدأ الموقف في كلا الجانبين ، حتى هادنا في شرفات . وبدأت اليوم مفاوضات الهدنة الدائمة بين مصر واليهود في رودس .

وظل السكون يخيم على هذه الجبال إلى يوم ٢٤ / ١ / ٤٩ ، إذ وقعت الهدنة بين مصر والصهاينة . ولم يعد هنالك حرب .. إذ ظللنا هنالك نحيا حياة هادئة ساكنة خاملة ، لم ترض أولئك الذين تركوا أسرهم وأعمالهم وجاءوا للعنف والنضال .. وبعدها شرعوا يتذمرون ، ويطالبون بقضاء إجازات في وطنهم .. أسوة بالمصريين ..

●

ولم نجد وسيلة لإشغالهم خيراً من رابطة تقوم بنشاط ثقافي ورياضي وخيري. وقد استطاعت الرابطة أن تشغلهم حقاً .. وأن تشغل المنطقة كلها أيضاً وخاصة بنشاطها الرياضي ، الذي أبدى فيه الليبيون تفوقاً وتحضراً وخلقاً كريماً ، إلى جانب ما عرفوا به من بطولات من قبل ، وقد جرت لفريق كرة القدم شهرة واسعة ..

●

واقترحت أيضاً على قائدنا الأعلى أحمد سيف اليزل برنامجاً للتدريب العسكري اليومي والرحلات والمناورات . وإنشاء دراسة عسكرية على غرار البرامج التي

تدرس في الكليات الحربية لضباط المشاة . وذلك لتدريب الضباط الفدائيين، لأنهم جميعاً تنقصهم الثقافة العسكرية .. ونفذ السيد القائد البرنامج بحذافيره .. وأنشأ كلية للضباط الفدائيين في الميدان ..

ومع ذلك فلا تزال الحياة مملة. وظلت كذلك راكدة قاعسة طيلة ثلاثة أشهر ونحن نؤمل أن يكون الجيش المصري قد كسب الوقت ، وأعد نفسه ، واشترى السلاح ، ثم يعيد الكرة .. وتدور بيننا الإشاعات التي نحلم بتحققها . نقول : ستشتري مصر السلاح من تشيكوسلوفاكيا . ويقول آخـرون ما دام الاستعمار الغربي يعادينا ويحابي الصهاينة، لا بد أن تعتمد الدول العربية على المعسكر الشرقي وسلاحه وقوة نفوذه هذه المرة .. وهلم جراً . أحلام يقظان ..

## ٤

حتى كان يوم ١٩ / ٣ / ٤٩ إذ حدث حادث اهتزت له نفوسنا كما اهتزت له أرجاء العالم العربي . وذلك أن قائـد الجيش السوري حسني الزعيم الساخط على الجيوش العربية لمصير فلسطين .. الناقم على الحكومة السورية لما يشاع من أن بعض ذوي النفوذ ، ممن لهم سند في الحكومة السورية قد باعوا لإسرائيل باخرة محملة بالاسلحة والذخائر .. قد قام هذا القائد بانقلاب على الحكومة السوريـة واستولى على السلطة في هذا اليوم .

ونحن ننتظر من وراء هذا الانقلاب تغيراً في أوضاع الجيوش العربية .. ولم يحدث بعد هذا الانقلاب تغير يذكر لا في صفوف الجيوش العربية ، ولا حتى في سوريا نفسها ..

●

وجاء الشهر الرابع ونحن نصارع الكسل والملـــل ، ونؤمل عودة الحرب والعنف والنضال ما بين ساعة وأخرى. ولم تمض أيام من شهر إبريل حتى جاءت الأوامر بالاستعداد للرحيل ..

قيل لنا : إنكم سترحلون إلى غزة ، ومنها إلى مصر ثم إلى دياركم .

نزل علينا الخبر نزول الصاعقة .

لم نكن نتوقع للعرب هذه النهاية ، ولفلسطين ، هذا المصير .. وبهتنا جميعاً للمفاجأة المحزنة .

# محاولات يائسة

# ١

دارت الأيام دورتها وتصرّمت يوماً إثر يوم ، وأزف موعد السفر ، واشتد الغيظ في نفوس الرجال ولكنهم لا يملكون قوة ولا حولاً ، فكظموا غيظهم عن ثورة نفسية لو أتيح لانفجار سبب هذه الأيام ،لدمّرت كل شيء يقف في سبيلها.. وقليل منهم من يئس، وقنع بالإياب لوطنه، يجرجر أكواماً من مشاعر الخيبة أمام مواطنيه .

وأما أولئك الثائرون فلم يستطيعوا كظم غيظهم ، ويكادون يعلنون العصيان .. وذهبوا يلتمسون سبلاً للمقاومة . وقبل أن نرحل بعشرة إيام، وفي ظلمة السحر من يوم ١٩ / ٤ / ٤٩ حمل جماعة منهم سلاحهم وأمتعتهم وما تحت أيديهم من سلاح تحت جناح الظلام . وفي الصباح بحثنا عنهم في كل مكان فلم نعثر لهم على أثر . لقد نفذوا ما كانوا يقولون .

كانوا دائماً يعرضون بالجيوش العربية ، وينتقصونها قدرها ويتحاملون على ساسة العرب في كل مناسبة يجيء فيها ذكر السياسة والسياسيين .

لقد فروا إذن ، وكان لفرارهم أثر في نفوسنا كبير.. ما كنا نود أن يفترق شملنا وتتخلف مجموعة منا قبل يومين من رحيلنا كنت يومها في مدينة بيت لحم مع بعض الزملاء ، نتزود بالذكريات وبما قد نحتاج للرحيل .. نمعن النظر في كل شيء نظرة فراق مليئة بحسرة وأسف عميق، لفراق بلد من وطننا أحببناه، بلد كتب لنا أن نعاصر محنه ، وأن نحيا آلامه فترة من الدهر... نمعن النظر في الطرقات ، طريقاً طريقاً ، ثم نشيعها بالنظرة الأخيرة ، نظرة الوداع .. نلقي على كل مبنى ، وعلى كل طريق ، وعلى كل شجرة ، وكل طفل ، وجبل ..

نلقي نظراتنا مترعة بشعور الفراق الممزوج بالحب والاشفاق على مصير الوطن الحبيب . ولكأني أرى نفوس زملائي تفيض بمثل ما أشعر من عاطفة وراء التاريخ والأيام .

كنت أشعر بالغيظ حين أذكر تاريخ سبعة عشر شهراً مضت، وحين أذكر مئات من الأرواح أهدرت عبثاً ، ومئات الآلاف شردوا من ديارهم ، تاركين لعب أطفالهم يعبث بها أبناء الصهاينة .. حين أذكر الفاكهة الناضجة على أشجارها ، سقتها أياد عربية ، والتهمتها أفواه جائعة مجرمة ملطخة بالدماء...

## ٢

بينما انا ازدرد هذه الغصص وسط زحمة المشاعر إذ برجل فلسطيني يسألني: إن كنت أنا محمد عربي ؟ قلت له : نعم أنا هو .

فقال : أتعرف فلاناً ؟

قلت : نعم ، ضابط ليبي من ...

قاطعني وهو يضحك : من الهاربين من جيشكم ... على أي حال فقد جئتك من طرفه ، وهو يقول لك إنه يريد أن يراك في مدينة القدس .

قلت : أهو موجود في القدس ؟

قال : نعم ، وإذا أحببت ان تلبي طلبه فهلم معي ؟

قلت : هلم إليه .

ومضينا معاً ، وفي نفسي أن أغتنمها فرصة للقاء صديق .. ولسبر غور أسرار الهاربين والتزود بزورة وداع لمشاهد القدس والمسجد الأقصى .

●

هنالك التقيت بالهاربين من كتيبتنا قد غيروا أغطية رؤوسهم ، وارتدوا شارات جيش الجهاد المقدس . هنالك التقيت بهم والتقيت بضابط فلسطيني قائد من قواد الأفواج التي كانت تعسكر في بيت لحم من جيش الجهاد المقدس ، رأيته هنالك مرات ولكنني لم أتعرف عليه .

قال سليم : صديقنا الأخ عزمي الجاعوني .

كنت قد سمعت هذا الاسم يتردد كثيراً ، فهو أحـــد الأبطال الذين كانوا يعتمد عليهم الشهيد عبد القادر الحسيني. وعزمي هذا أزعج الحكومة البريطانية في أيامها الأخيرة . وهو بالتالي الذي نسف شارع بن يهودا في القدس ، الحدث الذي أرهب الصهاينة في الولايات الأميركية .

ولم أصدق أن هذا هو عزمي الجاعوني الذي تردده الألسن .

فقلت : عزمي صاحب شارع ابن يهودا ؟

فقال عزمي : نعم أنا أحد أصحابه .

ومضى سليم يشرح لي خطة فرارهم وأذكر مما قال :

ـ أنا لا أرضى لنفسي هذه النهاية المخزية ، إننا عقدنا العزم على أن نستشهد . سنقاتل اليهود وحدنا نحـــن الليبيين الهاربين وهذه الفصيلة مـــن أبطال الجهاد المقدس .

فقال عزمي : نعم ، سنقيم دولة داخل دولة إسرائيل ، وإذا لم نقـــدر ، فسوف نشن على مستعمراتهم ومدنهم غارات فدائية حتى نفنى جميعاً ..

وغمرني المتحدثون بحماسهم وصفاء نياتهم وصدق إخلاصهم . يا له من شباب أصيل عظيم . غمروني بذلك الشعور الطيب الذي يحس به المرء حين يقف مـع التاريخ بأزله وأبده في لحظة الإلهام والإيمان ، بالسمو عندما يتجرد من الاحداث مستغرقاً في التأمل السرمدي .. وكم يتمنى المرء أن يكون مثلهم .

# ٣

ثم قـــال لي سليم : وأنت ماذا قررت ؟ هـــل تعود وتترك ميـدان النضال ؟

لم أستطع أن أرد عليه ، فقلت : لست أدري . .

فقال : استشر نفسك ، وإذا قررت ان تفعل مثلنا ، فـلا تنسَ ان تأتينا بكمية من السلاح والذخيرة أقصى ما تستطيع . فهنالك رجال يتشوقون لخوض المعركة معنا ، ولكنهم لا سلاح لهم .

●

عدت من القدس أقدر العواقب ، واقلب الآراء على وجوهها . ماذا ينبغي ان افعل ؟ وبت ليلتي تلك في قلق وتردد بين أخذ ورد ؛ ما يفعله عزمي وسليم هو الرجولة والاخلاص ، وينبغي الا تفوتني الفرصة . ولكن هل يقدرون على العمل بدون عون ومدد من حكومة الاردن ؟ وهذه الذخيرة القليلة التي بـــين ايديهم سرعان ما تنفد والحكومة الاردنية تناصبهم العداء . فهم يعيشون الآن مستخفين بعيداً عن انظار الحكومة ، ولا يقدرون على الظهور . وما تسول لهم انفسهم من انهم يستطيعون ان يحصلوا على السلاح بطريقة او باخرى لا يزيد عن ان يكون وهماً في نظري .

وفي اليوم التالي وهو السابق ليوم الرحيل ارسلت الى سليم اني مسافر .

# ٤

تركناهم هنالك حول القدس يوجهون إلى الصهاينة ضربات قوية في غارات غير منتظمة .. وسافرنا نحن كما سأصف .. وقد اخبروني بعد بما حدث :

كان عزمي مع اربعة من رفاقه الليبيين ، يتجولون في مدينة بيت لحم .. والليبيين كما لعزمي ذكريات في بيت لحـــم ، ومضوا يتلمسون الذكريات ، ويقضون اوطاراً لهم ؛ هاهنا عسكر الليبيون اول ما نزلوا هذه البقاع الكريمة . وهنالك يرقد رفاقهم الشهداء الذين ظلوا هاهنا بعد ان عاد رفاقهم مـــن حيث اتوا .

دخلوا الى المقبرة ، ووقفوا على مشاهدهم وتأملوا : ما الحياة ؟ وما بقاء الانسان فيها ؟ وهذه الاشجار المتناثرة والطيور التي تتنقل بينها . وهذه المدينة وازقتها . وهذا المقهى الذي كان يعج دائماً بالليبيين ، غدا اليوم خالياً منهم .

●

وبينما كان عزمي ورفاقه يتجولون على هذا النحو ، إذ اقبل شرطيان على عزمي فقالا له :

— سيد عزمي هل تتفضل معنا الى دار الشرطة ؟

اجاب عزمي : لماذا ؟

قال أحدهما : لقد امرت شرطة بيت لحم ان تستدعيك للحضور ، لأنك مطلوب من الحاكم العسكري لمدينة القدس .

— امر هين .. انني ماض معكما .

ونظر الى رفاقه قائلاً : سألقاكم غداً في القدس .

ومضى معهما ونظر الرفاق بعضهم الى بعض . ثم قال احدهم :

ـ ما وقوفكم هاهنا ؟ هيا اسرعوا ... يجب ان نخلصه من بين ايديهم .

قال آخر : حقاً هيا اسرعوا الى سلاحكم .

واسرع الرجال الاربعة الى اول سيارة لتحملهم قريباً من القدس ، حيث يقيمون في احد الاحياء ، وعادوا مسرعين يحملون سلاحهم . وفي قرية بين القدس وبيت لحم نزلوا من سيارتهم ونقدوا صاحبها اجره . وليس بين القدس وبيت لحم من طريق غير هذا تستطيع السيارات ان تذرعه بمشقة .

وفي جانب مرتفع من القرية بقي احدهم يرقب الرائح والغادي من المسافرين وانطلق ثلاثة إلى حنية صعبة من الطريق على نحو كيلين أو ثلاثة من القرية ، بحيث يرون رفيقهم الرابع ليشير عليهم من بعد أشارة معناها: أغلقوا الطريق واستعدوا فقد حضر الصيد .

وفي الحنية حجارة كبيرة تعاونوا على نقلها لسد الطريق . ولم يتركوا منه إلا فرجة تتسع لسيارة من سيارات المسافرين القليلة . ولا يغلقون الفرجة إلا إذ أشار عليهم المراقب أول ما يرى سيارة شرطة قادمة من بيت لحم . وغربت الشمس والمراقب ينتظر ، والرجال الثلاثة اتخذوا لهم مكامن في الحنيـــة وراء الصخور وبأيديهم بنادقهم الرشاشة . ولكن لم يبد بعـــد أثراً لسيارة الشرطة .

وانسحبت أشعة الشمس من الأفق ، وانقضى الليل . ولم يمر عزمي من هذا المكان في حراسة الشرطة .

●

أصبحوا في اليوم التالي على ما كانوا عليه ، وكان سليم هو الذي يقف في طريق القرية يرقب مجيء سيارة الشرطة .

وبعد شك وقلق وصبر بدت سيارة الشرطة هنالك بعيداً في السهل تلتوي في حنايا الوادي ومنعرجات الطريق . وبعد بضعة دقائق وضحت للعين وهي تدنو رويـــداً رويداً . عندئذٍ أشار سليم على رفاقه في الحنية التي دحرجوا في وسطها الصخرتين الكبيرتين ليسدوا الفرجة التي كانت تمرق منها السيارات على مهل وبحذر . وأسرعوا إلى مكامنهم على جانب الطريق ، وبقية رفاقهم في القدس لا يعلمون بما حدث . وجاءت سيارة الشرطة حتى وصلت القرية ، وتوقفت أمام كشك اتخذ مقهى في الجبل للمسافرين ، على نحو ربع كيل من سليم .

●

لما توقفت ونزل منها بعض من فيها، ارتاب سليم في الامر . وماذا يحصل لو لم يكن عزمي في هذه السيارة..؟ وتصور مدى الكارثة التي ستحل بعد قليل ؛ لو كانت هذه السيارة تحمل سجيناً لما توقفت قبل أن تقضي واجبها وتسلم عهدتها .

وكبر الريب في نفس سليم، واسرع نحو السيارة وهو يرى أن أحسن حل أن يتعرض للسيارة بانتحال أي سبب إذا هي أقلعت قبل وصوله إليها ، ليتفادى الكارثة في حالة خلوها من عزمي . ولكنه وصل المقهى وهي لم تقلع ؛ ولشد ما سرّي عنه حين رأى عزمي جالساً بين ثلاثة من الشرطة يتناولون مرطباً.. تجاهل سليم .. وجلس في الجانب الآخر في مواجهة عزمي ، بحيث يتبادل معه الإشارة وفعلاً تم له ما أراد. ولم يفهم عزمي الإشارة ، ولكنه أدرك ان هنالك عزماً على تخليصه .

وعارض هو في ذلك ولكن سليماً أشار بأنه لا يستطيع تدارك الأمر الآن . ولما لم يستطيعاً التفاهم بالإشارة طلب عزمي من حراسه أن يسمحا له بالتحدث مع صديقه ذاك. وسمحا له، وهو البطل الذي يكرمه كل المواطنين. ولما فهم عزمي الخطة اعترض عليها ورأيا أن أحسن حل لإنقاذ الموقف أن يركب سليم في سيارة الشرطة معهم إلى أن يقتربوا من الحنية وهنالك ينزل سليم ويصيح بأصحابه في مكامنهم ألا يفعلوا . حتى يتفادوا مبادرة الكامنين بضرب السلاح .

وطلب عزمي من الشرطة أن يحملوا صديقه اللبي إلى القدس ، ورحبوا هم بنقله ما دام ليبياً . وكان ضابطاً ضمن الفدائيين ، وبعد كيلين أو نحوها طلب منهم ان ينزلوه ها هنا .

قالوا إن القدس لا تزال بعيدة جداً ، ولكن عزمي أيد طلبه فأنزلوه .

●

نزل الرجل يجري ولا بد أنهم عجبوا لما يحدث ، وتساءلوا بينهم وبين أنفسهم : هل بالرجل لوثة في عقله ؟ ولكنهم حين وصلوا العقبات التي تسد الطريق في وجههم أدركوا الأمر ولحق سليم يساعد الشرطة على إزاحة العقبات . وقال أحد الشرطيين لعزمي : إنك شهم يا سيد عزمي. شهم ، ووطني مخلص ، وما ذنبنا نحن ... لو كان الأمر بأيدينا لفديناك بأنفسنا . وطلب منهم عزمي أن يتحدث برهة إلى أصدقائه. وخرج الكامنون من مكامنهم ، وصافحوا عزمي والشرطة. وتحدث إليهم عزمي أمام الشرطة ، ومما قال :

أنتم تظنون أنني مقبوض علي. أليس كذلك؟ لا، ليس الأمر كما تتصورون. فالحاكم العسكري السيد عبدالله التل صديق لنا ، ووطني يحب المكافحين من أجل القضية الوطنية ، ونحن لم نقم بعمل إلا ما كان مشرّفاً وفي سبيل القضية الوطنية ، وهو دائماً يبدي لنا وطنيته وإخلاصه . لا لست مقبوضاً عليّ ، وما هي إلا ساعات ونلتقي هنالك في القدس . إلى اللقاء هنالك .

وأمن الشرطة على قوله، وطمأنوا أصحابه .. غير أنه لم يلقهم ذلك اليوم في القدس ، بل استمر مقبوضاً عليه . وحمل إليه بعض أصدقائه الطعام في سجنه.

●

وأخبر عزمي فيما بعد بما حدث له ، قال : كنت أترقب مقابلة السيد الحاكم العسكري ليجاملني المجاملة المعتادة ، ويصافحني بحرارة مبتسماً ومشجعاً كعادته ، ونحن نعرف بعضنا لأننا التقينا في صفوف القتال ، وتعاونا أكثر من مرة . وهو كثيراً ما يبدي عطفه علينا معشر جيش الجهاد المقدس ، ويعطينا الذخيرة سرًّا ..

توقعت أن يشرح لي سبب الطلب ثم يكرمني كعادته ، ويودعني بحرارة كما كان يفعل من قبل . ولكنيلم أجد الرجل الذي كنت أتوقع.. وجدته متجهماً خاطبني كما يخاطب أحد المجرمين .. وأول كلمة واجهني بها قال : أمجرم ولابس كارفته ؟ لا أنسى ما حييت هذه العبارة « أمجرم ولابس كرفتـــه » أصبحت مجرماً في عينه ، وأين ذلك الرجل الذي كنا نظنه ؟

هذا ما قالة عزمي. وبقي في السجن أياماً ، ولا بد أن كثيرين كانوا يسعون لإطلاق سراحه ، ولم يتساهل الحاكم العسكري أو يساعد على إطلاق سراحه كما قيل

## ٥

ولكن الذي حدث يعرفه الضابطان الليبيان سليم ومولود وشخصية أردنية

كبيرة. إذ كان سليم ومولود وعزمي في ضيافة موظف حكومي أردني مسئول عن مصلحة ... في مدينة نابلس . ونظراً لأن هذا المسئول في مركز الآن قد لا يستحسن معه ذكـر اسمه ولا ذكر اسم والده فنكتفي بالإشارة إليه .

لما سجن عزمي ذهب سليم ومولود إلى نابلس وأعلما صديقهما المسئول الأردني بما صار إليه عزمي وهو صديق له أيضاً. وكان قد علم من قبلهما بما حدث، ووعدهما بأنه يتصل بوالده ليسعى والده الباشا لدى الملك عبدالله، ووالده صديق للملك، وأثير لديه. وبعد الحاح من الابن تنازل الوالد عن تمنعه، ووعدهم أن يتكلم مع الملك ويسعى لاطلاق سراحه .

وبقي سليم ومولود في ضيافة ... يوماً وبعض يوم ينتظران رد الملـك على الباشا .. لأن عزمي مسجون بتهمـــة محاولة وضع لغم في طريق سيارة الملك نفسه .

اتصل الوالد الباشا بالملك عبدالله ، وشرح له قضية عزمي ورجـاه إطلاق سراحه . وابدى الملك عبدالله عطفه على عزمي . وأنه يكن له الود ، ويتمنى أن تستفيد الدولة بشبابه ، وأمر بإطلاق سراحه . وطلب أن تعرض عليـه أمور ثلاثة يجب أن يقبل أحدها. الأول ! أن ينخرط ضابطاً في الجيش الأردني هو وفرقته برتبهم ، والثاني إذا لم يكن يستحسن الخدمة العسكرية ، فتعرض عليه رئاسة مصلحة في وظيفة مدنيـــة ، والثالث ان يمتنع عن كل عمل ثوري وعسكري .

وأطلق سراحه ، واضطر عزمي إزاء عطف الملك عبدالله ، أن يغـــادر الوطن ، ليريح ويستريح .. وذهب شمل فرقته اشتاتاً .

منهم من فترت حماسته ولا يدري ما يفعل؟ ومنهم من كان عند سابق عزمه على الكفاح حتى الموت ، ومن هؤلاء معظم الفرقة .

وحقاً كانوا عند عزمهم كافحوا ما وسعهم السلاح. انتشروا جماعات داخل

الدولة اليهودية . وما هي إلا بضعة معارك حتى نفد ما لديهم من ذخيرة وعادوا يبحثون عنها بلا جدوى .

وتسرب اليأس الى نفوس معظمهم وانطلق بعضهم الى دمشق وبغداد وبيروت يلتمسون مساعدة المنظمات والحكومات ولكن بلا جدوى أيضاً. وبعدها كنت تجد الليبيين الذين ثاروا على الانسحاب ، تجدهم في دمشق وبيروت وعمان . واخيراً يئسوا ، وعادوا الى ليبيا فرادى. وهم لا يزالون يتحرقون شوقاً للنصر ولا يجدون مكاناً في قلوبهم يدفنون فيه شعورهم بالهزيمة فهي ستظل حية تنمو يوماً بيوم تنبش راحة بالهم كلما كادت الراحة تتسرب الى نفوسهم .

ولكن هذه الصفات ليست مقصورة عليهم ، بل يشترك فيها جميع أبناء العروبة الذين اسهموا في المعركة الاولى ..

●

# هَذه هِيَ بَوّابَة إسرَائيل

# ١

نعود الآن الى الليبيين في شرفات يحزمون أمتعتهم لمغادرة قريتهم التي أقاموا فيها وألفوها أشهراً طويلة .

ها هم في صباح غرة مايو يحزمون أمتعتهم ، ويمضون نحو قافلة من السيارات تنتظرهم ..ثم يغادرونها .

ومن ذا الذي سيأخذ مكانهم ليحمي شرفات من غـدر الصهاينة ؟ قالوا إن الجيش الاردني سيتسلم قطاعنا . مثل ما تسلم بيت صفافا وصور باهر وغيرهما .

وجاء أربعة جنود أردنيين تسلموا قطاعنا في شرفـــات وفي الجبل الغربي والجبل اليماني ..

منطقة تحتاج لألف رجل تسلمها أربعة رجال فقط .

شيء يبعث على الرثاء ...

●

انسحبنا إلى بيت السقا ، على كيل ونصف من شرفات ، وفي الساعة الثالثة مساء سارت بنا السيارات الى الطريق المعبد ووقفت في صف طويل الى جانب قبة راحيل حيث يرقد الذين جاءوا معنا وحباهم الله بالشهادة ، وبهذا المرقد في

الأرض المقدسة ، وفي هذه المقبرة .
هؤلاء إخواننا الشهداء الليبيون .
وقفت قافلتنا هنالك لننام هذه الليلة الى جانب شهدائنا ..

●

قد سكتت الحرب خمسة أشهر طوال ، ولم نعد نسمع خلالها فرقعة رصاصة ولا انفجار قنبلة ، ومضت ساعتان ونحن وقوف هاهنا بجوار قبة راحيل ..

كانت الساعة الخامسة حين انفجرت القنابل من كل الأحجام ، وسيل من رصاص كثير ، ودام الضرب طويلا هنالك عند شرفات ، كأنما هي معركة ضارية بين جيشين . ولا يزال القتال على أشده حين أقبل نساء يحملن أطفالهن ورجال عزل يحملون بعض متاع بيوتهم ، وسألنا بتلهف: ماذا هنالك ؟ قالوا : هاجم اليهود بيت صفافا واحتلوه ، واحتلوا جزءاً من شرفات .. واثناء ذلك جاءت سيارة اردنية تحمل بضعة عشر جندياً لنجدة المعركة .

وطلبنا ان نعود للقتال ، ولكن القتال محرم علينا الآن . واصبح من تبعات الجيش الاردني وحده .

●

مع ان الحرب محرمة علينا استطاع نحو مئة رجل ان يتسللوا الى القتال دون علم قيادتهم . ولما وصلوا شرفات وجدوها لا تزال عربية خالصة ، ولم يحتل منها اليهود شيئاً ، ولم يهاجموها ، والمعركة لا تزال جارية متقطعة ولكنها في بيت صفافا .

وسارع أولئك النفر من الليبيين الى بيت صفافـــا ، وهنالك التقوا بأربعة فوارس من فرسان الجيش الأردني الذين تسلموا بيت صفافا ، ومعهم بضعة عشر جندياً : أولئك الذين جاءت بهم السيارة للنجدة .

كان بعضهم وقوفاً كأنهم ليسوا من المعركة الجارية في شيء . وأما بعضهم الآخر فقد اتخذوا أماكن لهمْ منتصف القرية على جانب شريط سكة الحديد التي تشق القرية نصفين .

ولما استوضح الليبيون القادمون الى المعركة ، قيل لهم : إن اليهود احتلوا نصف القرية الشمالي الواقع وراء السكة الحديدية..وهو في الحقيقة معظم القرية.. وسألوا إخوانهم الأردنيين : لماذا تقفون هكذا ولا تنجدون المقـاتلين من أهل القرية ؟ فأجابهم الجنود الاردنيون : بأنهم أُمروا ألا يقـــاتلوا الصهاينة الا اذا تجاوزوا السكة الحديدية ، وهم لم يتجاوزوها بعد .. وانهم أمروا بألا يسمحوا للعرب أن يقاتلوا اليهود فيما وراء السكة الحديدية ، وهذه المعركة جرت على الرغم منهم ، يدافع فيها أهل القرية عن بيوتهم .. ونصحوا الليبيين أن يعودوا الى وحدتهم .

غير أن الليبيين لم يصغوا اليهم ، وشرعوا يأخذون مكانهم بين بضعة رجال من أهل القرية ، الذين اضطروا للانسحاب الى ما وراء السكة الحديدية ..

●

وما هي إلا نصف ساعة حتى هرعت القيـادة المصرية والضباط الليبيون إلى بيت صفافا . وطلبوا من جنودهم الليبيين أن يعودوا الى وحدتهم . لقد اتصلت حامية بيت صفافا الاردنية بقيادة بيت لحم ، وأعلمتهم بالليبيين الذين جـاءوا خلسة للقتال في بيت صفافا ، وسارعت القيادة لتعيدهم الى وحدتهم ..

وعادوا متسخطين ، ولكنهم يعزون أنفسهم بأن احتلال ما وراء السكة

الحديدية متفق عليه رسمياً. وما شأننا نحن مادام الجيش الاردني هو الذي يتحمل التبعات ..

وبتنا ليلتنا نتألم وننقض المواجع ، وقد بات الألم آلاماً . ألم هذه النهاية التي نراها مخجلة ، وألم فراق أرض جرى حبها في سويداء القلب ، وألم التفريط في أرض طالما دفعنا ودفع الإخوان السودانيون دماءهم الزكية في الدفاع عن كل شبر منها ، ثم نراها الآن وقبل ان نرحل بيد أعدائنا ..

تلك المواجع كانت تتغلغل في نفوسنا .. ومنظر قبور إخواننا الشهداء بين الشجيرات الى جانبنا في هذه المقبرة ، يؤرث المواجع حرّاقة تشوي جراح الكبود ، إذ نرى ما ضحينا من أجله بأرواحنا يوهب لأعدائنا هيناً وابتغاء وجه الشيطان .

بتنا ليلتنا ولأحاسيس المواجع رَجْع في النفوس ذو صدى أليم ..

●

من قبل فجر الغد ، دعا النفير للاجتماع ، وكانت الليلة شديدة البرد ، قد أشعل الجنود النار يستدفئون ، فتركوا نيرانهم موقدة ، وهرعوا تلبية للنفير ، وسرعان ما اصطفوا وأمروا بالرحيل فوراً . وتوجهت كل سرية لسياراتها المخصصة .. وتحرك الركب في اتجاه الخليل ، وتركوا شُعَل نيرانهم موقدة ، دون ان يعطوا فرصة لإطفائها .

وانساب رتل من السيارات طويل ، وكنت ألتفت أودع أرواح الشهداء وأرى هنالك شعلا ترتفع مضيئة قد رحل عنها أصحابها قبل الفجر .. ولما طلعت الشمس كنا قد اجتزنا الخليل . ومن هنالك انضم الينا المصريون المعسكرون في الخليل ، ومنهم علمنا ان اليهود احتلوا جزءاً من قرية صور باهر العربية قبل ان تنطفىء النيران التي تركناها تشتعل . لقد نزح عنها النساء والاطفال

ومروا حيث كنا . وحاول المناضلون الفلسطينيون ان يستردوا ما احتله الصهاينة ، ولكنهم لم يجدوا تشجيعاً من الحامية الاردنية . وحسبنا ان اليهود لم يحتلوها إثر رحيل المصريين عنها مباشرة لقربها منا حيث بتنا الليلة البارحة .

## ٢

بعد الخليل اجتزنا الظاهرية ، وبعدها ببضعة أكيال توقفنا أمام بوابة من الأسلاك الشائكة أقيمت على الطريق . هذه هي بوابة اسرائيل .. التي كانت بالأمس أرضاً عربية .. وسندخل من هذه البوابة ، ونمر خلال دولة اسرائيل في طريقنا الى مصر ، وليس لنا طريق بري غيره ، وهو الطريق الوحيد الذي يصل بين آسيا وافريقيا ، قطعه اليهود ليقيموا عليه دولة يفصل بها الاستعمار بين جناحي العرب ، لئلا يكونوا وحدة تهدد مصالحهم فيما بعد . ولم يجد الاستعمار وسيلة لتحقيق غايته هذه ، خيراً من هؤلاء الصهاينة ، شذاذ الآفاق ، والذين أصبحوا مخالب قطط وقطاع طرق .

وقفنا أمام هذه البوابة التي يقف إلى جانبها جندي صهيوني قميء ، يمثل إسرائيل القميئة .. إنه لحال موجع ، مؤثر في النفس ، وأي تأثير .. وأي حال خلقه الاستعمار في أرضنا أسوأ من هذه الحال ؟ وأي ظلم يمس من كرامتنا الصميم إن لم يكن هذا الذي صنعه بنا الطامعون فينا ؟ فرطنا في أرضنا ، وتهاونا في الحفاظ على وطننا .. ومددنا يد الصداقة للذين يقفون وراء عدونا .. ونسينا تاريخنا .. وها نحن ندخل هذه البوابة بشهادة الأعداء ، ووخز الآلام ، وسخرية أولئك الاصدقاء .. يا لهوان العرب على أنفسهم .

# ٣

وأي هوان نحسه الساعة !..

من ذا الذي فرط ؟ وأي العرب تهاون ؟

هل نحن الفدائيين الليبيين ، ومعنا كل الجيوش العربية ؟ أم هم السياسيون المحترفون ؟ مثل ما يقول الصحافيون العرب؟ لو قرأت أي صحيفة اليوم لوجدتها تشير بأصبع الاتهام إلى بعض السياسيين .. هنا في مصر قتل النقراشي وجاء من بعده إبراهيم عبد الهادي ، فهادن اليهود وأقـــرهم على مكاسبهم ، وهنالك في الأردن الجنرال جلوب باشا الانجليزي الذي سلم اللد والرملة للصهاينة ، وهنالك أيضاً رئيس الوزراء توفيق ابو الهدى ، والملك عبدالله ، وفي ســـوريا ضحايا وانقلابات وآلام .. وغيرهم وغيرهم !...

وأي منهم البريء ؟ وأي منهم الملوم ؟ لماذا لا نواجه الحقائق ؟

إننا نؤمن أنه لولا الملك عبدالله لما كانت هنالك اليوم قدس عربية ، ولما كانت نابلس ولا رام الله ولا أريحا . الملك عبدالله بحكمته وحنكته أبقى على جزء كبير من فلسطين عربياً ، ولو واجهه الصهاينة مواجهة القوة بالقوة لكانت الأردن اليوم اسرائيلية أيضاً .

وما هي الأردن ؟ هي صحراء فقيرة وبادية خالية يعمرها نصف مليون عربي. وأين هي من لبنان الذي احتل اليهود بضع عشرة قرية من قراه ؟ بعد طرد جيشه من فلسطين . وماذا يملك لبنان من قوة إزاء اسرائيل ؟ هذه حقيقة فلنواجهها بشجاعة ولنترك العواطف حيناً قليلاً ، لنرى أنفسنا على حقيقتها في ميزان التاريخ .

هذه الأردن استطاعت أن تستخدم المخلب الاستعماري وتستفيد .. تكون جيشاً وميزانية ودولة وتبقي على أرض العرب للعرب والفضل لرجل واحد فيها، هو الملك عبدالله، وخضوعها للنفوذ الاستعماري لا يقل عنـــه خضوع أية دولة أخرى . فهي لم تخضع أكثر من بعض الدول العربية الأخرى ، فهم جميعاً على حد سواء في هذا الميدان ..

●

وهذا جلوب الذي يلعنه كل لسان عربي اليوم هب أنني أنا أو أنت في مكانه . هب أنك تقود جيشاً أرلندياً فقيراً كونته بنفسك ، وجعلت منه جيشاً تموله وتسلحه بلادك العربية . وأعلنت حكومة جيشك الحرب على اسكتلاندا ، هل كنت تريد لجيشك الذي كونته بنفسك، تريد له الهزيمة أو تريد له النصر؟ ونصره نصر لك ، وارتفاع لقدرك ، وسمو بمنزلتك ، وهزيمته إخفاق وعار وخيبة للقائد قبل أن تكون للجند ؟

حقائق كثيرة تعمينا عواطفنا المتهيجة عن تبصرها . جلوب خضع لنفوذ حكومة بلاده الانجليزية ، وهو مذنب حقاً لو لم يكن العرب أيضاً أشد منه إذعاناً واستسلاماً وخضوعاً للنفوذ ذاته .

وإن كان هنالك من لوم على جلوب ، وعلى الحكومة التي أوكلت إليه قيادة جيشها ، فهو لا يعدو أن يكون لوماً على شيء واحد : وهو أن جلوب كان يسعى بكل مـــا أوتي من حيلة ووسيلة ، ومن ورائه حكومته الانجليزية وتوجيهها وخداعها ، كان يسعى بدوافع قومية انجليزية شديدة إلى تحطيم الجيش المصري . لم يكن لجلوب من وراء هذه الحرب مسعى أغلى في نفسه من هزيمة

المصريين وجيشهم . هم أعدى عدو له ، لأنهم أعداء دولته ، وقد تبينت رغبة جلوب هذه في كل ما صدر عنه إزاء هذا الجيش وحكومته .

●

واما العرب في مصر والعراق وسوريا ولبنان وغيرها ، لست أرى بينهم عربياً غير مخلص لعروبته ووطنه ودينه حتى نوري السعيد وإنما اختلفت أساليبهم في النهوض بالوطن العربي على مقدار ما أوتوا من خبرة وذكاء ..

لو كان لتوفيق أبي الهدى رئيس وزراء الأردن جيش وقوة يتحدى بهما بريطانيا ، لما تردد لحظة في طرد جلوب وإعلان الحرب على بريطانيا نفسها ، في سبيل فلسطين ، أو في سبيل ليبيا ، أو في سبيل حضرموت .. ولكن اليد الحكيمة من لحم لا تصادم الإبرة من حديد ..

هذا رأيي الذي أراه هذه الساعة وأنا أدخل أرضنا المسلوبة التي أقيمت عليها إسرائيل . لا أرى على سياسي عربي لوماً .

●

ولكن بعض السياسيين ومن ورائهم صحافتهم يكيلون الاتهام جزافاً ؛ وهم إزاء شعورهم بالإخفاق ، لا يجدون ترضية لبواطن أحاسيسهم إلا أن يكيلوا الاتهامات الجريئة للآخرين لإقناع أنفسهم بأنهم بذلوا جهدهم قبل اقناع الآخرين .. فهم في نظري يختفون وراء الأوهام ، ويختبئون عن الحقيقة ، ويرهبون أن يواجهوها ..

# ٤

والحقيقة أننا حاربنا بقوة دون قوة إسرائيل ، حاربنا بقوة قليلة وحماسة كثيرة .. حماسة الشعوب العربية ، وحماسة الجامعة العربية وأمينها ، وحماسة السياسيين . والحماسة وحدها لا تقاتل الحديد والنار ..

نعم ، فرطنا ، ولكن عن جهل لا عن تهاون ، وعن قلة خبرة بمستلزمات الحروب لا عن خيانة ، وعن ضعف وتخـــاذل إزاء النفوذ الاستعماري لا عن تواطؤ معه .

والضعف لم يخلقه السياسيون بين يوم وليلة .. بل هو وليد الأجيال . كل السياسيين وكل العسكريين علموا الآن قوة إسرائيل .. قد بلغ تعداد جيشهم النظامي مئة وعشرين ألفاً إلى جانب العصابات الأخرى . والجيوش العربيـــة المقاتلة كلها دون الثمانين ألفاً بما في ذلك المتطوعون من كل بلاد . تعداد الجيش المصري اليوم ٤٥ ألفاً بما في ذلك المتطوعون الليبيون والسودانيون والمصريون . والجيش العراقي ١٥ ألفاً ، والجيش الأردني ٧ آلاف ، والجيش السوري ٨ آلاف بما في ذلك الكتيبة الليبية الخامسة وتعدادها ٩٥٠ فدائياً والجيش اللبناني ٣ آلاف بمـــا في ذلك الكتيبة الليبية الرابعة .. والجيش السعودي دون الألف والخمسمئة : هؤلاء الذين يقاتلون ، أو هم بالأحرى على خطوط القتال دون ان يشترك نصفهم في القتال فعلاً . هؤلاء الأربعون ألفاً أزاء مئة وعشرين ألفاً .. من أمثال هذا القميء الذي مررنا به الساعة ، وهو قميء ، وهزيل ، ومهلهل ، ولكن السلاح الذي بيده خير مما بأيدينا وأجـدى وأحدث ، وهي حقيقة مرة ولكن لا بد من الاعتراف بها .

# ٥

ولا بد لنا من مواجهة الحقيقـــة والاعتراف بالأخطاء ، وإلا فسنظل نصنع ضعفنا بأوهامنا . لا بد وان نعترف بأن جيش اليهود أكثر عدداً وأقوى عدة . اليهود خـلال هدنتين اثنتين استوردوا أجود الطائرات من أمريكا ومن فرنسا ومن البلاد الشيوعية وألمانيا وبريطانيا ، واستوردوا منها الدبابات والمدافـــع والسلاح والذخائر . . واستوردوا الطيارين والفنيين والخبراء من هذه البلاد جميعها ، ومن استراليا وجنوب افريقيا . .

والعرب ... العرب لم يستوردوا شيئاً ...

لم يجدوا من دول الغرب المتواطئة مـــع اسرائيل من يبيع لهم سلاحاً ، ولا يستطيعون أن يشتروه من تشيكوسلوفاكيا كما فعلت إسرائيل ، لأن المستعمرين يحجرون على العرب أن يتعاملوا مع دول ما وراء الستار الحديدي كما يسمونها . . ولم لا يحجرون على اسرائيل ؟ لأنهم لا يخشون من اسرائيل أن تنقلب عليهم ، ويخشون من العرب أن ينقلبوا ، فيخرج الشرق الأوسط من أيديهم ، لهذا فهم يقبضون عليه بيد من حديد ...

وأنى للعرب إذن بالسلاح يحاربون به عدواً يدفع عنه الذعر بالحديد والنار ؟.

●

ثم لا بد من هذا الاعتراف ، وهو بيت القصيد ، وذلك أن تحرير فلسطين لا يتولى قيادته إلا أبناء فلسطين .. ولا يدفع البلاء عن يافا إلا اليافاويون ... يدفعونه عن أهليهم ودورهم وذراريهم وأعراضهم وأسباب حياتهم ومراتـــع

طفولتهم ومراح شبابهم . تلك أرضهم وترابهم ، اختلطت بأرواحهم وعرقهم ودموعهم وأفراحهم ، وهي مأواهم ومثواهم . وأما نحن فإننا ، بعد أن نهزم ، نعود لدور ننتظرنا بفارغ الصبر وجيرة وأحباب مجتمعين حول الديار لم تشردهم كوارث الزمن .. فالرجل من المجدل لا يقاتل دون تاجوراء مثل قتـــالي عن مسقط رأسي الذي لا تطيب لي الحياة إلا فيه ، ولا تستقر نفسي وتطمئن إلا تحت جذوع نخيله ، وفيه مرتع بنتي ومهد ولدي وذكرى أبي ومثوى أمي ..

فلأكن أنا قائد قتالي والمجدلي أخ يساعدني .. ولكن الدول العربية طردت صاحب البيت من الميدان .

●

ولا بد لي من الاعتراف أيضاً بأن الصهاينة كانوا مضطرين للاتحـاد ، وأن العرب كانوا مدفوعين للانقسام ، فحارب أولئك على قلب رجل واحد وحاربنا نحن منقسمين ، مختلفي الأهواء ..

ولا بد لي من أن أعترف بان الصهاينة كانوا واقعيين وكنا خياليين ..

ولا بد لي أخيراً من الاعتراف بأن الصهاينة حاربونا بسلاح الغـدر وخيانة العهد ، ولم نحاربهم بالسلاح ذاته ، وقد كان لهم أجدى ، وبنـــا كان أضر من السلاح .

ولما ترفع العرب عن الخـــداع وافتقروا للسلاح وافتقدوا الذخيرة ، لأن مخزونهم منها نفد أو أوشك على النفاد ، وقوتهم تضاءلت أمـــام عدو اشتد ساعده ، ولم يستطيعوا أن يحابهوه في الميدان لم يجدوا بداً من الانسحاب ...

وها نحن منسحبون .

## ٦

دخلنا اسرائيل الآن ومضينا تجاه بئر السبع، ولم يصادفنا في طريقنا حيوان ولا بشر ، فهي اليوم أرض خلاء ، وغـــداً سيتوافد أعداء الله من كل حدب وصوب ، يتوافدون إلى حيث تهوى أفئدتهم ، ليقيموا دولة شعب الله المختار . .

وفي منتصف الطريق أقيم لهم معسكر صغير وحيد ، وسط صحراء خالية لاحظنا به نحو فصيلة من الجنود معظمها من البنات . هؤلاء البنات كن يحاربننا بالأمس إلى جانب الرجال ... لم يترك اليهود قادراً على حمل السلاح لم يجندوه .

●

لما مررنا بمدينة بئر السبع وجدناها خالية ، ينعق فيها البوم . ولم نلحظ بها سوى اثنين من أعراب تلك البادية ...

ثم عرجنا على غزة ومنها إلى خان يونس فإلى رفح ، البلاد التي تقسمها الحدود المصرية الفلسطينية إلى قسمين .

وها هنا أقمنا في واحة جميلة بنيت منازلها من الطين وبها قليل من البساتين ومعسكرات كثيرة ، نقيم نحن في أحدها قلقين، متعجلي العودة ...

وهنالك وجدنا آلافاً لا تحصى من الجنود المصريين العائدين من القتال . .

## ٧

عدنا ، ولم نعد كما ذهبنا . وذلك طبيعي فما رائح مهزوم كغـــاد منصور ؛

غدونا على الحرب منصورين بقادة العرب وساستهم، ولكننا رحنا على عواصمنا بغير ما غدونا على ساحة القتال .

غدونا نحمل السلاح على أكتافنا ملاصقاً للصدور وعدنا نطوح به أيدينا ونحن نكاد نطرحه للتراب .

ذهبنا شامخي الأنوف رافعي الرؤوس نستنشق نسيم فلسطين ملء رئتينا وعدنا حاني الرؤوس المليئة بالفكر المهموم .والفضل لأعدائنا ، إذ لا بد أن يتحول هذا الفكر إلى فكر خلاق في الوقت القريب الذي ندرك فيه الموقف أثر انتهاء هذا الانفعال ..

وشيء واحد غدونا به على فلسطين صغيراً وعدنا به كبيراً هو الغيظ .. الحقد .. الإصرار على الثأر ...

وشعور آخر عدنا به أيضاً هو التبرم بأحوال العرب ، والسخط على أولئك الذين صيرونا إلى ما صرنا إليه .

●

وفي رفح ، وجدنا الشرطة المصرية في استقبالنا ينتظرون وصول الفدائيين المصريين الذين جاءوا معنا ، ينتقون منهم الافراد المنتمين لمنظمة الاخوان المسلمين ، وحملوهم من بيننا إلى السجون والمعتقلات لخلافات سياسية بينهم وبين الحكومة . بل إن المصريين جميعاً استقبلوا في المعتقلات للاشتباه في معظمهم أن يكونوا من المعادين للملك فاروق وحكومته .. ولهذا الاشتباه أقمنا في رفح ثمانية عشر يوماً .

## ٨

في اليوم الحادي عشر من هذا الشهر، مايو، ومن إقامتنا في رفح أعلن قبول اسرائيل في الأمم المتحدة ..

واحتفلت اسرائيل في اليوم الثاني لهـذه المناسبة ، واحتفل المستر ترومان أيضاً وابتهج ، لأن مجهوداته الكبيرة تكللت جميعها بالنجاح ، إذ هزم العرب في كل الميادين العسكرية والسياسية ، وانتصرت اسرائيل بفضله في كل الميادين..

●

جهل المستر ترومان على نفسه وعلى شعبه وجهل على التاريخ .. ولم يجهل على العرب، فإن العرب هم الأعلون على الرغم من أنفه. فليسأل التاريخ متى نام العرب على ضيم ؟ متى وطئت أنوفهم للذلة حتى ارتضوها واستمرؤوها ؟

ترومان يعتقد كما قال : أن قبول اسرائيل في الأمم المتحدة ضمن لها الحياة والبقاء .. ونسي التاريخ العربي ، وتلك الشهامـــة التي صنعت لهم التاريخ ؛ وحسب ان تاريخ العرب مثل اليهود ، وهو الطرد من كل أرض يحلون بها .

أتمنى أن يعلم المستر ترومان أن العربي أبيٌ لا يقبل المهانة ، وإذا سكن إليها لأجل فإنما هو يعد نفسه ليدمرها...بخلاف ذلك الطبع اليهودي الذي يقبل الضيم ويرتضي المذلة . واليهودي معذور لأنه لا يجد في نفسه غير هذا الطبع ، ورثه منذ أن عرف نفسه على هذه الارض . في مصر كان ذليلاً مسخراً، وفي صحراء فلسطين عاش على فتات الكنعانيين دهراً ، واستذلوه قروناً . وما كاد يقف على رجليه حتى وجد نفسه في السلاسل يساق عبداً إلى أرض بعيدة. ولا أعرف شعباً سيق في السلاسل بقضه وقضيضه ، رجالاً ونساء وأطفالاً . آلاف الأكيال غير بني إسرائيل . وكادوا يعبدون ذا القرنين لأنه منّ عليهم وفكّ أسرهم بعـــد دهور ، وما كادوا يستقرون من جديد حتى ذهبوا في الارض بدداً إلى يومنا هذا.

وفي كل بقعة من الأرض لا يزالون إلى ساعتنا هذه يسامون المذلة والهوان ، بسبب طبع دنيء لا يستطيع معظم اليهود ان ينفكوا عنه مهما وجـــدوا من ضروب التسامح والمساواة ..

●

هذا شأن اليهودي ، وهو نقيض الطبع العربي ، ذلك الطبع الذي أنشأته الصحراء في جزيرة العرب . تعود العرب ان يغالبوا الشدائد ، ولا غرابة ، حتى حيوانهم تعود ذلك. ولا يستكينون بل يناضلون ولا يفتر نضالهم ، لأن الصحراء تسحق اولئك الذين يفتر النضال في نفوسهم .

قد يعود العربي مهزوماً ، ولكنه يظل يغلي حقداً ، كما نغلي نحن الآن ، إلا أنه لا يفتأ حتى يعود منصوراً . نفس الشعور الذي يملأ نفوسنا الآن بالغيظ .. بالحقد .. بالثأر ..

●

طبع ورثناه في المدن بالرضاعة والأساطير وتربية الشهامة والكرامة في النفوس ، وقد ورثه من قبلنا الرعيل الأول الذين اجتاحوا شمال افريقيا ، وما بين النهرين قبل الإسلام بعشرات القرون . ويل لليهود من هذا الطبع ، هو الذي سيسحقهم على الرغم من مؤازرة الذين خلقوهم ، الذين يحاولون أن يجردونا من السلاح .

●

وهم الذين قيل انهم يبنون سياساتهم على أسس علمية . لو شاءوا ان يبنوا بقاء اسرائيل على أسس علمية لنبذوا خططهم هذه دبر الآذان ، لأن خطر العرب على إسرائيل ليس السلاح. بل هو شيء آخر، أشد فتكاً من السلاح، لو استطاعوا أن يجردوا العرب منه لضمنوا لإسرائيل الحياة والبقاء . ذلك هو الطبع الذي ورثه العرب عن بيئتهم الأولى والذي حرمه اليهود منذ فجر التاريخ ..

●

هذا الطبع هو الذي نكب الأوروبيين الصليبيين ، وهو الذي ابتلع التتار . وهو الذي بنى حضارة الإسلام ظلت نبراساً للدنيا سبعة قرون ، وهو الذي

نكب الأوروبيين الصليبيين في البقعة ذاتها المنكوبة اليوم باسرائيل، بعد مئات السنين ، وسط حروب الأجيال العربية ، ثم حملوا أظلافهم وأظافرهم الى غير رجعة .

وسنقاتل اسرائيل ومن وراءها جيلاً بعد جيل ، مهما طالت القرون . ونحن قوم نرث الثأر أباً عن جد . ولكأني بخوذات جنودهم ملقية على قوارع طرق فلسطين ، وهم يحملون خزيهم ومخالبهم عبر عباب البحر في يوم قريب إلى غير رجعة .

وسنحتفظ بآثار تلك الدويلة في متاحف فلسطين العربية .

## ٩

في الحادي والعشرين من هذا الشهر ، أعني مايو ، ودعنا رفح وركبنا القطار الذي قضينا به ليلة في طريق عودتنا الى معسكرات الهايكتسب بالقاهرة ، في انتظار العودة للوطن ، مكرهين ان ننتهي الى هذا المصير ..

ولكن عسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ..

عسى ان تكون إسرائيل نعمة على العرب . إنها تتحداهم ، وهم مكرهون للدفاع عن مجدهم بتحديها وتحدي اولئك الذين يقفون من ورائها . سنتحرر من سطوتهم ونحادّهم ، وذلك لعمري بداية الطريق .

لنأخذ المكان المناسب لنا في قيادة البشرية .. مكان الصدارة الذي تقاعسنا عنه منذ ثلاثة قرون .. وأحسب ان صورة الانفعال هي التي تحجب عنا هذه الحقيقة .

# ١٠

ظللنا مقيمين بالقاهرة تسعة أيام إلى نهاية شهر مايو ٤٩ . وفي غـرة يونيو تقدمت آسفاً فوضعت سلاحاً عزيزاً على نفسي ، وخلعت ملابس حبيبة رافقتني ثمانية عشر شهراً ، وودعت حياة غالية كريمة ، ودعت الجنديـة ، ولكن إلى لقاء قريب ..

كانت ساعات حزينة في حياتي حقاً ، كما هي حزينة في حياة رفاقي ايضاً .

وتهيأت لأواصل دراستي في إحدى جامعات القاهرة ، إذ لا تزال أمـــامي رسالة أخرى .. ألسنا قد أوتينا الضعف من أبواب ، أوسعها الجهل ؟ سيتوجه رفاقي اليوم الى الوطن ويتركونني فريداً .

ومن الهايكستب ركبنا السيارات الى محطة القـــاهرة . ومن هنالك ركب رفاقي القطار الى ليبيا، وودعت رفاق السلاح، أعز الرفاق وأغلى الأحباب ... ودعتهم بعين حزينة . وودعوني بعيون فياضة .. ثم تحرك بهم القطار متوجهاً إلى وطن حبيب ، وتركوني على رصيف المحطة أكفكف عيناً ثرّة .

ولوحت لهم بيدي ولوحوا لي بمناديلهم حتى توارى القطار ...

# فهرست


| | صفحة |
|---|---|
| مقدمة | ٧ |
| الغام وعظام | ١١ |
| ود وطراد | ٢٥ |
| خطاب وارتياب | ٣٩ |
| تحت السلاح | ٤٩ |
| هذه القاهرة | ٦٥ |
| هذه هي فلسطين | ٧٧ |
| عراق سويدان | ٨٩ |
| جاسوس في النصيرات | ١٠٧ |
| المعركة الاولى | ١٢٧ |
| رامات راحيل | ١٤٩ |
| نزاع الاخوين | ١٨٥ |
| صراع في عصلوج | ٢٠٥ |
| طائرات وعتاد انجليزي واميركي | ٢٣٣ |
| غدا تعود الحرب | ٢٤٥ |
| في آخر لحظة | ٢٥٩ |
| شرفات | ٢٧٥ |
| في القدس | ٢٨٩ |
| صفعة للأعور المغرور | ٢٩٩ |

| | |
|---|---|
| دخان الحطب | ٣١٩ |
| بئر السبع والمالكية | ٣٤٣ |
| ماذا في الجنوب | ٣٥٥ |
| نزولاً عند وساطة امريكا | ٣٦٧ |
| محاولات يائسة | ٣٨١ |
| هذه هي بوابة اسرائيل | ٣٩٥ |
| فهرست | ٤١٥ |